مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه . وبعد .

فهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ "مباحث في علوم القرآن " كانت طبعته الأولى استجابة لرغبة بعض إخواننا في تقديم أبحاث مختصرة عن أهم مباحث علوم القرآن . يستطيع شبابنا المسلم الذي لا يتيسر له التعمق في الدراسات الإسلامية أن يجد فيها من الثقافة اللازمة له ما يكفيه مؤونة البحث في مراجع هذا العلم ويجنبه عناء فهم أساليبها . وقد حظي الكتاب – على اختصاره – في تلك الطبعة برواج لم أكن أتوقعه . ونفد من المكتبات .

ثم أحسست بالحاجة الملحة إلى طبعه مرة ثانية ، فراجعته ، وتوافرت لدي الدواعي لتوضيح بعض فصوله ، وزيادة موضوعات أخرى ، فخرجت الطبعة الثانية أوفى بحثاً ، وأكثر تنقيحاً . واحتوت على خلاصة ما كتب في هذا الفن قديماً وحديثاً من غير حشو ولا تطويل ، ولم يمض عليها سوى عام واحد حتى نفد الكتاب كذلك .

ثم تتابع الطلب على الكتاب من رواد الثقافة الإسلامية . ومن الجهات التعليمية المختلفة التي تعنى بهذا العلم ، فلم أجد بداً من إخراجه في طبعته الثالثة مزيداً منقحاً ، وإن كانت الزيادة هذه المرة أقل من سابقتها . وأسأل الله تعالى أن يجعله نافعاً مفيداً ، وأن يرزقنا التوفيق والسداد .

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله ، نحمده و نستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد :

فهذه مباحث في علوم القرآن توخيت فيها الإلمام بما يحتاج إليه الطالب الدارس في دراسته ، والشاب المسلم في ثقافته ، مع وضوح المعنى ، وسهولة اللفظ ، وجودة السبك ، وحسن الترتيب ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، والله المستعان .

هذا وقد طبع الكتاب الأولى ثم نفدت ، وهذه هي الطبعة الثانية أقدمها للقراء مزيدة منقحة ، عسى الله أن ينفع بها ، إنه سميع الدعاء.

التعريف بالعلم
وبيان نشأته وتطوره

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التي لا يزيدها التقدم العلمي إلا رسوخاً في الإعجاز ، أنزله الله على رسولنا محمد r ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يبلغه لصاحبته – وهم عرب خلص – فيفهمونه بسليقتهم ، وإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات سألوا رسول الله r عنها .

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال : " لما نزلت هذه الآية **(**الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ**)** [الأنعام :82] شق ذلك على الناس ، فقالوا يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح **(** إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**)** [لقمان 13] ؟ إنما هو الشرك " .

وكان رسول الله **r** يفسر لهم بعض الآيات .

أخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله **r** يقول وهو على المنبر : **(**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ **)** [الأنفال 60] ألا إن القوة الرمي".

وحرص الصحابة على تلقي القرآن الكريم من رسول الله **r** وحفظه وفهمه ، وكان ذلك شرفاً لهم .

عن أنس رضي الله عنه قال : "كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا" أي عظم .- رواه أحمد في مسنده .

وحرضوا كذلك على العمل به والوقوف عند أحكامه .

روي عن أبي عبد الرحمن السُّلمي أنه قال : " حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن ، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من

النبي r عشر آيات لم يجاوزها حتى يتعلموا ما فيها ممن العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً " . رواه عبد الرزاق بلفظ قريب من هذا .

ولم يأذن لهم رسول الله r في كتابة شيء عنه سوى القرآن خشية أن يلتبس القرآن بغيره .

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله r قال : " لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير فليمحه ، وحدثوا عني و لا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" .

ولئن كان رسول الله r قد أذن لبعض صحابته بعد ذلك في كتابة الحديث فإن ما يتصل بالقرآن ظل يعتمد على الرواية بالتلقين في عهد رسول الله r ، وفي خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

جاءت خلافة عثمان[1] رضي الله عنه ، واقتضت الدواعي – التي سنذكره فيما بعد[2]– إلى جمع المسلمين على مصحف واحد ، فتم ذلك ، وسمى بالمصحف الإمام ، وأرسلت نسخ منه إلى الأمصار ، وسميت كتابته بالرسم العثماني ، نسبة إليه ، ويعتبر هذا بداية " لعلم رسم القرآن " .

ثم كانت خلافة علي رضي الله عنه ، فوضع أبو الأسود الدؤلي بأمر منه قواعد النحو ، صيانة لسلامة النطق ، وضبطا للقرآن الكريم ، ويعتبر هذا كذلك بداية " لعلم إعراب القرآن" .

استمر الصحابة يتناقلون معاني القرآن بعض آياته على تفاوت فيما بينهم ، لتفاوت قدرتهم على الفهم ، وتفاوت ملازمتهم لرسول الله r وتناقل عنهم ذلك تلاميذهم من التابعين .

ومن أشهر المفسرين من الصحابة : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى اشعري ، وعبد الله بن الزبير .

---

(1) لقد جمع القرآن الكريم أول جمع في عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه بعد معركة اليمامة كما سيأتي .

(2) انظر بحث جمع القرآن في عهد عثمان .

وقد كثرت الرواية في التفسير عن : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب . وما روي عنهم لا يتضمن تفسيراً كاملاً للقرآن ، وإنما يقتصر على معاني بعض الآيات ، بتفسير غامضها ، وتوضيح مجملها .

أما التابعون ، فاشتهر منهم جماعة ، أخذوا عن الصحابة ، واجتهدوا في تفسير بعض الآيات .

واشتهر من تلاميذ أبي بن كعب بالمدينة : زيد بن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظي .

واشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود بالعراق: علقمة بن قيس ، ومسروق، والأسود بن يزيد ، وعامر الشعبي ، والحسن البصري ، وقتادة بن دعامة السدوسي .

قال ابن تيمية : " وأما التفسير ، فأعلم به أهل مكة ، لأنهم أصحاب ابن عباس ، كمجاهد ، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولي ابن عباس ، وغيرهم من أصحاب ابن عباس ، كطاوس ، وأبي الشعثاء ، وسعيد بن جبير وأمثالهم ، وكذلك أهل المدينة في التفسير ، مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذ عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن ، وعبد الله بن وهب " [(1)].

والذي روي عن هؤلاء جميعاً يتناول : علم التفسير، وعلم غريب القرآن ، وعلم أسباب النزول ، وعلم المكي والمدني ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، ولكن هذا كله ظل معتمداً على الرواية بالتلقين .

جاء عصر التدوين في القرن الثاني ، وبدأ تدوين الحديث بأبوابه المتنوعة ، وشمل ذلك ما يتعلق بالتفسير ، وجمع بض العلماء ما روي من تفسير للقرآن الكريم عن رسول الله r ، أو عن الصحابة ، أو عن التابعين .

واشتهر منهم : يزيد بن هارون السلمي المتوفى سنة 117 هجرية ، وشعبة ابن الحجاج المتوفى سنة 160 هجرية ، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة 197 هجرية

---

(1) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير صفحة 15.

، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة 198 هجرية ، وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة 211 هجرية .

وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث ، فكان جميعهم للتفسير جمعاً لباب من أبوابه ، ولم يصلنا من تفاسيرهم شيء مكتوب.

ثم نهج نهجهم بعد ذلك جماعة من العلماء وضعوا تفسيراً متكاملاً للقرآن وفق ترتيب آياته ، واشتهر منهم ابن تجرير الطبري المتوفى سنة 310 هجرية .

وهكذا بدأ التفسير أولاً بالنقل عن طريق التلقي والرواية ، ثم كان تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث ، ثم دون على استقلال وانفراد ، وتتابع التفسير بالمأثور ، ثم التفسير بالرأي .

وبإزاء علم التفسير كان التأليف الموضوعي في موضوعات تتصل بالقرآن ولا يستغني المفسر عنها .

فألف علي بن المديني شيخ البخاري المتوفى سنة 234 هجرية في أسباب النزول .

وألف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة 224 هجرية في الناسخ والمنسوخ، وفي القراءات.

وألف ابن قتيبة المتوفى 276 هجرية في مشكل القرآن .

وهؤلاء من علماء القرن الثالث الهجري.

وألف محمد بن خلف بن المرزبان المتوفى سنة 309 هجرية الحاوي في علوم القرآن .

وألف أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري المتوفى سنة 328 هجرية في علوم القرآن .

وألف أبو بكر السجستاني المتوفى سنة 330 هجرية في غريب القرآن .

وألف محمد بن علي الأدفوي المتوفى سنة 388 هجرية "الاستغناء في علوم القرآن".

وهؤلاء من علماء القرن الرابع الهجري .

ثم تتابع التأليف بعد ذلك .

فألف أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة 403 هـ في إعجاز القرآن وعلي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي المتوفى سنة 430 هجرية في إعراب القرآن .

والماوردي المتوفى سنة 450 هـ في أمثال القرآن .

والعز بن عبد السلام المتوفى سنة 660 هجرية في مجاز القرآن .

وعلم الدين السخاوي المتوفى سنة 643 هجرية في علم القراءات .

وابن القيم المتوفى 751 هجرية في " أقسام القرآن ".

وهذه المؤلفات يتناول كل مؤلف منها نوعاً من علوم القرآن وبحثاً من مباحثه المتصلة به .

أما جمع هذه المباحث وتلك الأنواع – كلها أو جلها – في مؤلف واحد فقد ذكر الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه "مناهل العرفان في علوم القرآن " [1] أنه ظفر في دار الكتب المصرية بكتاب مخطوط لعلي بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي ، اسمه " البرهان في علوم القرآن " يقع في ثلاثين مجلداً ، يوجد منها خمسة عشر مجلدً غير مرتبة ولا متعاقبة ، حيث يتناول المؤلف الآية من آيات القرآن الكريم بترتيب المصحف فيتكلم عما تشمل عليه من علوم القرآن ، مفرداً كل نوع بعنوان ، فيجعل العنوان العم في الآية (القول في قوله عز وجل) ويذكر الآية ، ثم يضع تحت هذا العنوان (القول في الإعراب) ويتحدث عن الآية بالمأثور والمعقول ، ثم (القول في الوقف والتمام) ويبين ما يجوز من الوقف وما لا يجوز، وقد يفرد القراءات بعنوان مستقل فيقول : (القول في القراءة) وقد يتكلم عن الأحكام التي تؤخذ من الآية عند عرضها .

والحوفي بهذا النهج يعتبر أول من دوّن علوم القرآن ، وإن كان تدوينه على النمط الخاص الآنف الذكر ، وهو المتوفى سنة 330 هـ .

ثم تبعه ابن الجوزي المتوفى سنة 597 هجرية في كتابه " فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن" [2].

---

(1) انظر صفحة 27 وما بعدها ج1 ، ط الحلبي .

(2) توجد منه نسخة مخطوطة غير كاملة في المكتبة التيمورية .

ثم جاء بدر الدين الزركشي المتوفى سنة 794 هجرية وألف كتاباً وافياً سماه "البرهان في علوم القرآن" [3].

ثم أضاف إليه بعض الزيادات جلال الدين البلقي المتوفى سنة 824 هجرية في كتابه " مواقع العلوم من مواقع النجوم".

ثم ألف جلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911 هجرية كتابه المشهور "الإتقان في علوم القرآن".

ولم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف في عصر النهضة الحديثة أقل من العلوم الأخرى . فقد اتجه المتصلون بحركة الفكر الإسلامي اتجاهاً سديداً في معالجة الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر ، مثل كتاب " إعجاز القرآن" لمصطفى صادق الرافعي ، وكتابي : "التصوير الفني في القرآن" و "مشاهد القيامة في القرآن "للشهيد سيد قطب" . و"ترجمة القرآن للشيخ محمد مصطفى المراغي" ، بحث فيها لمحب الدين الخطيب ، و"مسألة ترجمة القرآن" لمصطفى صبري و "النبأ العظيم" للدكتور محمد عبد الله دراز ، ومقدمة تفسير "محاسن التأويل" لمحمد جمال الدين القاسمي.

وألف الشيخ طاهر الجزائري كتاباً سماه "التبيان في علوم القرآن".

وألف الشيخ محمد علي سلامة "منهج الفرقان في علوم القرآن" تناول فيه المباحث المقررة بكلية أصول الدين بمصر تخصص الدعوة والإرشاد .

وتلاه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني فألف كتابه "مناهل العرفان في علوم القرآن".

ثم الشيخ أحمد محمد علي في "مذكرة علوم القرآن" التي ألقاها عل طلابه بالكلية ، قسم إجازة الدعوة والإرشاد .

وصدر أخيراً "مباحث في علوم القرآن" للدكتور صبحي الصالح .

وللأستاذ أحمد محمد جمال أبحاث على مائدة القرآن .

---

(3) نشره وحققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم في أربعة أجزاء.

هذه المباحث جميعها هي التي تعرف بعلوم القرآن ، حتى صارت علماً على العلم المعروف بهذا الاسم .

والعلوم : جمع علم ، والعلم : الفهم والإدراك . ثم نقل بمعنى المسائل المختلفة المضبوطة ضبطاً علمياً .

والمراد بعلوم القرآن : العلم الذي يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول ، وجمع القرآن وترتيبه ، ومعرفة المكي والمدني ، والناسخ ولمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن .

وقد يسمى هذا العلم بأصول التفسير ، لأنه يتناول المباحث التي لابد للمفسر من معرفتها للاستناد إليها في تفسير القرآن [1].

---

(1) اكتفينا بهذا العرض التاريخي مع التعريف الإجمالي عن البعث في لفظ "علوم القرآن" باعتباره مركباً إضافياً ، وباعتباره علماً على هذا الفن .

القــــرآن

من فضل الله على الإنسان أنه لم يتركه في الحياة يستهدي بما أودعه الله فيه من فطرة سليمة ، تقوده إلى الخير، وترشده إلى البر فحسب ، بل بعث إليه بين فترة وأخرى رسولاً يحمل من الله كتاباً يدعوه إلى عبادة الله وحده ، ويبشر وينذر، لتقوم عليه الحجة **(**رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا **)** [النساء : 165] .

وظلت الإنسانية في تطورها ورقيها الفكري والوحي يعاودها بما يناسبها ويحل مشاكلها الوقتية في نطاق قوم كل رسول ، حتى اكتمل نضجها ، وأراد الله لرسالة محمد **r** أن تشرق على الوجود ، فبعثه على فترة من الرسل . ليكمل صرح إخوانه الرسل السابقين بشريعته العامة الخالدة ، وكتابه المنزل عليه ، وهو القرآن الكريم ...

" مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ن فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون منه ، ويقولون : لولا هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين " [1].

فالقرآن رسالة الله إلى الإنسانية كافة، وقد تواترت النصوص الدالة على ذلك في الكتاب والسنة**(**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا **)** [الأعراف:158] **(**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا **)** [الفرقان :1] " وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة "[2] . ولن يأتي بعده رسالة أخرى **(**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**)** [الأحزاب :40].

---

(1) متفق عليه .

(2) في الصحيحين من حديث "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي..." .

فلا غرو من أن يأتي القرآن وافياً بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس الأولى للأديان السماوية {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ} [الشورى : 13].

وتحدى رسول الله r العرب بالقرآن ن وقد نزل بلسانهم نوهم أرباب الفصاحة والبيان ، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله : أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، فثبت له الإعجاز ، وبإعجازه ثبتت الرسالة .

وكتب الله له الحفظ والنقل المتواتر دون تحريف أو تبديل ، فمن أوصاف جبريل الذي نزل به (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ] [الشعراء: 193] ومن أوصافه وأوصاف المنزل عليه {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [19] ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ[20]مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ[21]وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ[22]وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ [23]وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ[24]} [التكوير:19-24] {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ[77]فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ[78]لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ[79]} [الواقعة :77-79]

ولم تكن هذه الميز لكتاب آخر من الكتب السابقة لأنها جاءت موقوتة بزمن خاص ، وصدق الله إذ يقول: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] [الحجر :9]

وتجاوزت رسالة القرآن الإنس إلى الجن [وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ [29]قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ [30]يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ[31]يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ] [الأحقاف :29-31].

والقرآن بتلك الخصائص يعالج المشكلات الإنسانية في شتى مرافق الحياة ، الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجاً حكيماً ، لأنه تنزيل الحكيم الحميد ، ويضع لكل مشكلة بلسمها الشافي في أسس عامة ، تترسم الإنسانية خطاها ، وتبنى عليها في كل عصر ما يلائمها ، فاكتسب بذلك صلاحيته

لكل زمان ومكان ، فهو دين الخلود ، وما أروع ما قاله داعية الإسلام في القرن الرابع عشر " الإسلام نظام شامل ، يتناول مظاهر الحياة جميعاً ، فهو دولة ووطن ، أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقوة ، أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون ، أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة ، أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة ، أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة ، وعبادة صحيحة سواء بسواء " [1].

والإنسانية المعذبة اليوم في ضميرها ، المضطربة في أنظمتها المتداعية في أخلاقها ، لا عاصم لها من الهاوية التي تتردى فيها إلا القرآن **[** فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى**[**123**]**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**[**124**]]** [طه : 124،123].

والمسلمون هم وحدهم الذين يحملون المشعل وسط دياجير النظم والمبادئ الأخرى ، فحري بهم أن ينفضوا أيديهم من كل بهرج زائف ، وأن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم حتى يأخذوا بيدها إلى شاطئ السلام . وكما كانت لهم الدولة بالقرآن في الماضي ، فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به في الحاضر .

تعريف القرآن

قرأ : تأتي بمعنى الجمع والضرب ، والقراءة : ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل ، والقرآن في الأصل كالقراءة ، مصدر قرأ قراءة وقرآناً . قال تعالى : **[**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**[**17**]**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**[**18**]]** [القيامة :17، 18] أي قراءته، فهو مصدر على وزن "فعلان" بالضم كالغفران والشكران، تقول : قرأته قرءاً وقراءة وقرآناً، بمعنى واحد . سمى به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر .

وقد خص القرآن بالكتاب المنزل على محمد **r** فصار له كالعلم الشخصي .

---

(1) من رسالة التعاليم للإمام الشهيد حسن البنا.

ويطلق بالاشتراك اللفظي على مجموع القرآن ، وعلى كل آية من آياته ، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن [وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: 204] .

وذكر بعض العلماء أن تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه ، بل لجمعه جميع العلوم . كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ] [النحل : 89] وقوله : {و مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ] [الأنعام :38][1].

وذهب بعض العلماء إلى أن لفظ القرآن غير مهموز الأصل في الاشتقاق ، إما لأنه وضع علماً مرتجلاً على الكلام المنزل على النبي r وليس مشتقاً من قرأ ، وإما لأنه من قرن الشيء بالشيء إذا ضمه إليه ، أو من القرائن لأن آياته يشبه بعضها بعضاً فالنون أصلية – وهذا رأي مرجوح ، والصواب الأول .

والقرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص . بحيث يكون تعريفه حداً حقيقياً ، والحد الحقيقي له هو استحضاره معهوداً في الذهن أو مشاهداً بالحس كأن تشير إليه مكتوباً في المصحف أو مقروءاً باللسان فتقول هو ما بين هاتين الدفتين ، أو تقول : هو [بسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ[1]الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[2] إلى قوله {مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ[6]] .

ويذكر العلماء تعريفاً له يقرب معنا ويميزه عن غيره ، فيعرفونه بأنه :

كلام الله، المنزل على محمد r ، المتعبد بتلاوته. "فالكلام" جنس في التعريف، يشمل كل كلام ، وإضافته إلى "الله " يخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة.

و"المنزل" يخرج كلام الله استأثر به سبحانه : [قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا] [الكهف:109] {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [لقمان 27].

---

(1) سياق الآية يدلّ على أن المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ ، ولكن القرآن مثبت كذلك في اللوح المحفوظ.

وتقييد المنزل بكونه "على محمد r " يخرج ما انزل على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل وغيرهما .

و" المتعبد بتلاوته " يخرج قراءات الآحاد ، والأحاديث القدسية – إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها – لأن التعبد بتلاوته معناه بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة ، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك .

أسماؤه وأوصافه

وقد سماه الله بأسماء كثيرة :

منها "القرآن"[إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ] [الإسراء :9] .

و" الكتاب"[لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ] [الأنبياء: 10].

و"الفرقان"[تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا] [الفرقان:1].

و"الذكر"[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] [الحجر:9].

و"التنزيل"[وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ] [الشعراء:192] إلى غير ذلك مما ورد في القرآن .

وقد غلب من أسمائه : القرآن والكتاب ، قال الدكتور محمد عبد الله دراز :

"روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن ، كما روعي في تسميته كتاباً كوناً مدوناً بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه .

وفي تسميته بهذين الإسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد ، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز ، إنجازاً لرعد الله الذي تكفل بحفظه حيث

يقول : [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند "[1].

وبين سر هذه التفرقة بأن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد ، وأن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها ، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة زائداً عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سائراً مسيرها ، ولم يكن شيئ منها ليسد مسده ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه – وهو الحكيم العليم – وهذا تعليل جيد .

ووصف الله القرآن بأوصاف كثيرة كذلك :-

منها "نور" [يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا] [النساء:147] .

و" هدى "و" شفاء " و " رحمة " و " موعظة " [يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ] [يونس:57].

و "مبارك" [وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ] [الأنعام:92] .

و "مبين" [جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ] [المائدة :15] .

و "بشرى" [مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ] [البقرة: 97] .

و "عزيز" [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ][فصلت:41].

و "مجيد" [بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ] [البروج: 21] .

و "بشير" و "نذير" [بَشِيرًا وَنَذِيرًا] [فصلت:4] .

وكل تسمية أو وصف فهو باعتبار معنى من معاني القرآن .

الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي:

سبق تعريف القرآن ، ولكي نعرف الفرق بينه وبين الحديث القدسي والحديث النبوي نعطي التعريفين الآتيين :

---

(1) النبأ العظيم – صفحة 12،13 – طبعة دار القلم بالكويت.

الحديث النبوي : -

الحديث في اللغة : ضد القديم ، ويطلق ويراد به كل كلام يتحدث به وينقل ويبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه ، وبهذا المعنى أسمي القرآن حديثاً **[** وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا **]** [النساء: 87] وسمي ما يحدث به الإنسان في نومه **[** وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ **]** [يوسف:101] .

والحديث في الإصلاح : ما أضيف إلى النبي r من قول أو فعل أو تقرير أو صفة .

فالقول : كقوله r : " إنما العمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ..."[1].

والفعل : كالذي ثبت من تعليمه لصحابه كيفية الصلاة ثم قال : " صلوا كما رأيتموني أصلي "[2] وما ثبت من كيفية حجه ، وقد قال : " خذوا عني مناسككم"[3].

والإقرار : كأن يقرر أمراً عن أحد الصحابة من قول أو فعل . سواء أكان ذلك في حضرته r ، أم في غيبته ثم بلغه ، ومن أمثلته "أكل الضب على مائدته r " " وما روي من أن رسول الله r بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـــ **[**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**]** فلما رجعوا ذكروا ذلك له عليه الصلاة والسلام ، فقال سلوه لأي شيء يصنع ذلك ؟ فسألوه ، فقال لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها فقال النبي r : أخبروه أن الله يحبه " [4]

والصفة ! كما روي : " من أنه r ، كان دائم البشر، سهل الخلق ، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب ولا فحّاش ولا عيّاب ...".

الحديث القدسي : -

---

(1) من حديث طويل رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب.

(2) رواه البخاري.

(3) أخرجه مسلم وأحمد والنسائي .

(4) رواه البخاري ومسلم .

عرفنا معنى الحديث لغة ، والقدسي : نسبة إلى القدس ، وهي نسبة تدل على التعظيم ، لأن مادة الكلمة دالة على التنزيه والتطهير في اللغة ، فالتقديس : تنزيه الله تعالى ، والتقديس : التطهير ، وتقدس: تطهر ، قال الله تعالى على لسان ملائكته [وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ] [البقرة:30] أي نطهر أنفسنا لك .

والحديث القدسي في الاصطلاح : هو ما يضيفه النبي r إلى الله تعالى : أي أن النبي r يرويه على أنه من كلام الله ، فالرسول راو لكلام الله بلفظ من عنده وإذا رواه أحد رواه عن رسول الله مسنداً إلى الله عز وجل ، فيقول: -

قال رسول الله r فيما يرويه عن ربه عز وجل ، أو يقول :-

قال رسول الله r قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى .

ومثال الأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله r فيما يرويه عن ربه عز وجل : " يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ..."[1] .

ومثال الثاني :عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله r قال : يقول الله تعالى : " أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ..."[2].

الفرق بين القرآن والحديث القدسي :-

هناك عدة فروق بين القرآن الكريم والحديث القدسي أهمها : -

1- أن القرآن الكريم كلام الله أوحى به إلى رسوله بلفظه، وتحدى به العرب ، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، ولا يزال التحدي به قائماً فهو معجزة خالدة إلى يوم الدين .

2- والقرآن الكريم لم يقع به التحدي والإعجاز .

والحديث القدسي – كما سبق – قد يروى مضافاً إلى الله وتكون النسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء فيقال : قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى ، وقد يروى مضافاً إلى رسول الله r ، وتكون النسبة حينئذ نسبة إخبار لأنه عليه الصلاة والسلام

---

(1) أخرجه البخاري.

(2) أخرجه البخاري ومسلم .

هو المخبر به عن الله ، فيقال : قال رسول الله r فيما يرويه عن ربه عز وجل.

3- والقرآن الكريم جميعه منقول بالتواتر ، فهو قطعي الثبوت . والأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد ، فهي ظنية الثبوت . وقد يكون الحديث القدسي صحيحاً ، وقد يكون حسناً ، وقد يكون ضعيفاً .

4- والقرآن الكريم من عند الله لفظاً ومعنى ، فهو وحي باللفظ والمعنى .

والحديث القدسي معناه من عند الله ولفظه من عند رسول الله r على الصحيح فهو وحي بالمعنى دون اللفظ ، ولذا تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين .

5- والقرآن الكريم متعبد بتلاوته ، فهو الذي تتعين القراءة به في الصلاة { مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ } [المزمل : 20] وقراءته عبادة يثيب الله عليها بما جاء في الحديث " من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف، ولام حرف ، وميم حرف [(1)]" .

والحديث القدسي لا يجزئ في الصلاة ، ويثيب الله على قراءته ثواباً عاماً ، فهلا يصدق فيه الثواب الذي رد ذكره في الحديث على قراءة القرآن ، بكل حرف عشر حسنات .

الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي : -

الحديث النبوي قسمان :

" **قسم توقيفي**" وهو الذي تلقى الرسول r مضمونه من الوحي فبينه لناس بكلامه ، وهذا القسم وإن كان مضمونه منسوباً إلى الله فإنه – من حيث هو كلام- حريّ بأن ينسب إلى الرسول r ، لأن الكلام إنما ينسب إلى قائله وإن كان ما فيه من المعنى قد تلقاه عن غيره .

و " قسم توفيقي" وهو الذي استنبطه الرسول r من فهمه للقرآن ، لأنه مبيّن له ، أو استنبطه بالتأمل والاجتهاد . وهذا القسم الاستنباطي الاجتهادي يقره الوحي

---

(1) رواه الترمذي عن ابن مسعود وقال حديث حسن صحيح .

إذا كان صواباً ، وإذا وقع فيه خطأ جزئي نزل الوحي بما فيه الصواب [1]وليس القسم كلام الله قطعاً .

ويتبين من ذلك : أن الأحاديث النبوية بقسميها : التوقيفي ، والتوفيقي الاجتهادي الذي أقره الوحي ، يمكن أن يقال فيها إن مرداها جميعاً بجملتها إلى الوحي ، وهذا معنى قوله تعالى في رسولنا r : {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى[3]إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى[4]} [النجم: 3،4] .

والحديث القدسي معناه من عند الله عز وجل ، يلقى إلى الرسول r بكيفية من كيفيات الوحي – لا على التعيين . أما ألفاظه فمن عند الرسول r على الراجح ونسبته إلى الله تعالى نسبة لمضمونه لا نسبة لألفاظه ، ولو كان لفظه من عند الله لما كان هناك فرق بينه وبين القرآن ، ولوقع التحدي بأسلوبه والتعبد بتلاوته .

ويرد على هذا شبهتان !

الشبهة الأولى : أن الحديث النبوي وحي بالمعنى كذلك ، واللفظ من الرسول r فلماذا لا نسميه قدسياً أيضاً ؟

والجواب :أننا نقطع في الحديث القدسي بنزول معناه من عند الله لورود النص الشرعي على نسبته إلى الله بقوله r : " قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى " ولذا سميناه قدسياً ، بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لم يرد فيها مثل هذا النص ، ويجوز في كل واحد منها أن يكون مضمونه معلماً بالوحي (أي توقيفياً)وأن يكون مستنبطاً بالاجتهاد (أي توفيقياً)ولذا سمينا الكل نبوياً وقوفاً بالتسمية عند الحد المقطوع به ، ولو كان لدينا ما يميز الوحي التوقيفي لسميناه قدسياً كذلك .

الشبهة الثانية : أنه إذا كان لفظ الحديث القدسي من الرسول r فما وجه نسبته إلى الله بقوله r :" قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى " .

---

(1) ومثاله ما كان في أسرى بدر ، فإن رسول الله r أخذ برأي أبي بكر وقبل منهم الفداء، فنزل القرآن الكريم معاتباً له {ما كان لنبي أن يكون له أسرى ...} [الأنفال : 67] .

والجواب : أن هذا سائغ في العربية ، حيث ينسب الكلام باعتبار مضمونه لا باعتبار ألفاظه ، فأنت تقول حينما تنثر بيتاً من الشعر: يقول الشاعر كذا ، وحينما تحكي ما سمعته من شخص . يقول فلان كذا ، وقد حكى القرآن الكريم عن موسى وفرعون وغيرهما مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم ، وأسلوب غير أسلوبهم ، ونسب ذلك إليهم {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**[**10**]** قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ**[**11**]** قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ**[**12**]** وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ**[**13**]** وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ**[**14**]** قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ**[**15**]** فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**[**16**]** أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**[**17**]** قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ**[**18**]** وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ**[**19**]** قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**[**20**]** فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ**[**21**]** وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ**[**22**]** قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ **[**23**]** قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ **[**24**]**} [الشعراء : 10-24] [(1)].

---

(1) من ذهب إلى أن الحديث القدسي وحي باللفظ كذلك يجعل هذا فرقاً أساسياً بينه وبين الحديث النبوي ، ويبقى الفرق بينه وبين القرآن الكريم في عدم التحدي وعدم الإعجاز وعدم التعبد بتلاوته وعدم التواتر في معظمه .

الوحـــي

إمكانية الوحي ووقوعه :

ازدهرت الحياة العلمية وبددت أشعتها كل ريبة كانت تساور الناس إلى عهد قريب فيما وراء المادة من روح ، وآمن العلم المادي الذي وضع جل الكائنات تحت التربة والاختبار بأن هناك عالماً غيبياً وراء العالم المشاهد ، وأن عالم الغيب أدق وأعمق من عالم الشهادة ، وأكثر المخترعات الحديثة التي أخذت بألباب الناس تحجب وراءها هذا السر الخفي الذي عجز العلم عن إدراك كنهه وإن لاحظ آثاره ومظاهره ، وقرّب هذا بعد الشقة بين التنكر للأديان والإيمان بها مصداقاً لقوله تعالى : {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } [فصلت: 53] وقوله : { وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً} [الإسراء :85] .

فالبحوث النفسية الروحية لها في مضمار العلم الآن مكانتها ، ويساندها ويقربها إلى الإفهام تفاوت الناس في مداركهم وميولهم وغرائزهم ، فمن العقول العبقري الفذ الذي يبتكر كل جديد ن ومنها الغبي الذي يستعصي عليه إدراك بديهي الأمور، وبين المنزلتين درجات . والنفوس كذلك ، منها الصافي المشرق ، والخبيث المعتم .

وجسم الإنسان يطوي وراءه روحاً هي سر حياته ، وإذا كان الجسم تبلى ذراته وتفنى أنسجته وخلاياه ما لم يتناول قسطه من الغذاء فجدير بالروح أن يكون لها غذاء يمدها بالطاقة الروحية كي تحتفظ بمقوماتها وقيمها .

وليس ببعيد على الله تعالى أن يختار من عباده نفوساً لها من نقاء الجوهر وسلامة الفطرة ما يعدها للفيض الإلهي ، والوحي السماوي ، والاتصال بالملأ الأعلى ، ليلقي إليها برسالاته التي تسد حاجة البشر في رقي وجدانه ، وسمو أخلاقه ، واستقامة نظامه ، وهؤلاء هم رسله وأنبياؤه .

ولا غرابة في أن يكون هذا الاتصال بالوحي السماوي.

فالناس اليوم يشاهدون التنويم المغناطيسي ، وهو يوضح لهم أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها يحدث أثراً يقرب إلى الإفهام ظاهرة الوحي – حيث

يستطيع الرجل القوي الإرادة أن يتسلط بإرادته على من هو أضعف منه فينام نوماً عميقاً ويكون رهن شارته ، ويلقنه ما يريد فيجري على قلبه لسانه ، وإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة ؟[1].

ويسمع الناس الأحاديث المسجلة التي تحمله اليوم موجات الأثير ، عابرة الوهاد والنجّاد ، والسهود والبحار ، دون رؤية ذويها ، بل بعد وفاتهم .

وأصبح الرجلان يتخاطبان في الهاتف ، أحدهما في أقصى المشرق ، والآخر في أقصى المغرب ، وقد يترائيان مع هذا التخاطب ، ولا يسمع الجالسون بجانبهما شيئاً سوى أزيز كدوي النحل الذي في صفة الوحي .

ومن منا ليس له حديث نفس في يقظته أو منامه يدور في خلده دون أن يرى متكلماً أمامه ؟

هذه وغيرها أمثلة تفسر لعقولنا حقيقة الوحي .

وقد شاهد الوحي معاصروه ، ونقل بالتواتر المستوفى لشروطه بما يفيد العلم القطعي إلى الأجيال اللاحقة ، ولمست الإنسانية أثره في حضارة أمته ، وقوة أتباعه ، وعزتهم ما استمسكوا به ، وانهيار كيانهم وخذلانهم ما فرطوا في جنبه ، مما لا يدع مجالاً للشك في إمكان الوحي وثبوته ، وضرورة العودة إلى الاهتداء به إطفاء لظمأ النفسي بمثله العليا ، وقيمه الروحية .

ولم يكن رسولنا r أول رسول أوحي إليه ، بل اوحى اله تعالى إلى الرسل قبله بمثل ما أوحي إليه {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا **[**163**]** وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا **[**164**]**} [النساء: 163،164].

فليس هناك في نزول الوحي محمد r ما يدعو إلى العجب ، ولذا أنكر الله على العقلاء هذا في قوله {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ

---

(1) انظر النبأ العظيم صفحة (75).

النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ} [يونس :2] .

معنـــى الوحـــي

يقال : وحين إليه وأوحيت : إذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، والوحي : الإشارة السريعة ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعويض ، وقد يكون بصوت مجرد ، وبإشارة ببعض الجوارح .

والوحي مصدر ، ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين ، هما : الخفاء والسرعة ، ولذا قيل في معناه : الإعلام الخفي السريع الخاص بمن إليه بحيث يخفى على غيره ، وهذا معنى المصدر ، ويطلق ويراد به الموحي ، أي بمعنى اسم المفعول . والوحي بمعناه اللغوي يتناول :

1- الإلهام الفطري للإنسان ، كالوحي إلى أم موسى {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ } [القصص: 7] .

2- والإلهام الغريزي للحيوان ، كالوحي إلى النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} [النحل: 68].

3- والإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم:11].

4- ووسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ } [الأنعام :121] {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا [الأنعام : 112] .

5- وما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ) [الأنفال: 12] .

ووحي الله إلى أنبيائه قد عرفوه شرعاً بأنه : -

كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه . وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أي الموحى .

وعرفه الأستاذ محمد عبده في رسالة التوحيد بأنه :

" عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت . ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام : وجدان تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور "[(1)]

وهو تعريف للوحي بالمعنى المصدري ، وبدايته وإن كانت توهم شبهه بحديث النفس أو الكشف إلا أن الفرق بينه وبين الإلهام الذي جاء في عجز التعريف ينفى هذا .

كيفية وحي الله إلى ملائكته

1- جاء في القرآن الكريم ما ينص على كلام الله لملائكته :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30] .

وعلى إيحائه إليهم :

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ [الأنفال:12].

وعلى قيامهم بتدبير شؤون الكون حسب أمره :

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات:4] ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:5] وهذه النصوص متآزرة تدل على أن الله يكلم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه .

ويؤيد هذا ما جاء في الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله r : " إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي ، أخذت السموات منه رجفة – أو قال رعدة – شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع

---

(1) انظر كتاب " الوحي المحمدي " للشيخ محمد رشيد رضا ص44.

ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها ، ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل : ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل "[1]

فهذا الحديث يبين أن كيفية الوحي تكلم من الله ، وسماع من الملائكة ، وهول شديد لأثره ، وإذا كان ظاهره – في مرور جبريل وانتهائه بالوحي – يدل على أن ذلك خاص بالقرآن فإن صدره يبين كيفية عامة ، وأصله في الصحيح " إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان " .

2-وثبت أن القرآن الكريم كتب في اللوح المحفوظ لقوله تعالى : ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ**[**21**]** فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**[**22**]** ﴾ [الأنبياء:21،22] كما ثبت إنزاله جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا في ليلة القدر من شهر رمضان ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1] ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ} [الدخان: 3] .

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة : 185] .

وفي السنة ما يوضح هذا النزول ، ويدل على أنه غير النزول الذي كان على قلب رسول الله r ، فعن ابن عباس موقوفاً : " أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة ثم قرأ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**[**33**]**﴾ [2] ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً **[**106**]**﴾ [3] [4] وفي رواية " فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي r "[5].

---

(1) أخرجه الطبراني.

(2) سورة الفرقان ، الآية : 33.

(3) سورة الإسراء ، الآية : 106.

(4) أخرجه الحاكم و البيهقي والنسائي.

(5) أخرجه الحاكم وابن شيبة.

ولذلك ذهب العلماء في كيفية وحي الله إلى جبريل بالقرآن إلى المذاهب الآتية: -

(أ) أن جبريل تلقفه سماعاً من الله بلفظه المخصوص .

(ب) أن جبريل حفظه من اللوح المحفوظ .

(ج) أن جبريل ألقي إليه المعنى – والألفاظ لجبريل ، أو لمحمد r .

والرأي الأول هو الصواب ، وهو ما عليه أهل السنة والجماعة ، ويؤيده حديث النواس بن سمعان السابق .

والثاني : وهو الذي لا واسطة فيه .

(أ) منه الرؤيا الصالحة في المنام ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : " أول ما بدئ به r الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح " [1] وكان ذلك تهيئة لرسول الله حتى ينزل عليه الوحي يقظة ، وليس في القرآن شيء من هذا النوع لأنه نزل جميعه يقظة ، خلافاً لمن ادعى نزول سورة "الكوثر" مناماً للحديث الوارد فيها ، ففي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه " بينما رسول الله r ذات يوم أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً فقلت : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : " نزلت علي آنفاً سورة ، فقرأ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ[1] فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ[2] إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ[3]} فلعل الإغفاءة هذه هي الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي .

ومما يدل على أن الرؤيا الصالحة للأنبياء في المنام وحي يجب إتباعه ما جاء في قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل [2] ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ[101] فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ[102] فَلَمَّا أَسْلَمَا

---

(1) متفق عليه .

(2) هذا هو الصواب ، خلافاً لمن ذهب إلى أنه إسحاق ، فإن الإشارة كانت أولاً بإسماعيل قبل إسحاق ، وإسماعيل هو الذي نشأ في الجزيرة العربية حيث كانت قصة الذبح ، وهو الحري بأن يوصف بالحلم .

وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ[103] وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ[104] قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[105] إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ[106] وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ[107] وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ[108] سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ[109] كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[110] إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ[111] وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ[112] ﴾ [الصافات :101-112] ولو لم تكن هذه الرؤيا وحيا يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده لولا أن من الله عليه بالفداء .

والرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول، فهي باقية للمؤمنين وإن لم تكن وحياً كما قال عليه الصلاة والسلام " انقطع الوحي وبقيت المبشرات ، رؤيا المؤمن "[(1)].

والرؤيا الصالحة في المنام للأنبياء هي القسم الأول من أقسام التكليم الإلهي المذكور في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: 21].

(ب) ومنه الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون واسطة يقظة :

وهو ثابت لموسى عليه السلام ﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143] ﴿ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء :164].

وهذا النوع هو القسم الثاني المذكور في الآية : ﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ وليس في القرآن شيء منه كذلك .

كيفية وحي الملك إلى الرسول

وحي الله إلى أنبيائه إما أن يكون بغير واسطة ، وهو ما ذكرناه آنفاً ، وكان منه الرؤيا الصالحة في المنام ، والكلام الإلهي من وراء حجاب يقظة – وإما أن يكون بواسطة ملك الوحي وهو الذي يعنينا في هذا الموضوع لأن القرآن الكريم نزل به .

---

(1) أصل الحديث في الصحيحين وغيرهما ، ولفظ البخاري : " لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة " .

ولا تخلو كيفية وحي الملك إلى الرسول في هذا الموضوع لأن القرآن الكريم نزل به .

الحالة الأولى : - وهي أشد على الرسول – أن يأتيه مثل صلصلة الجرس والصوت القوي يثير عوامل الانتباه فتهيأ النفس بكل قواها لقبول أثره ، فإذا نزل الوحي بهذه الصورة على الرسول r نزل عليه وهو مستجمع القوى الإدراكية لتلقيه وحفظه وفهمه ، وقد يكن هذا الصوت حفيف أجنحة الملائكة المشار إليه في الحديث " إذ قضى الله لأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان " [1] وقد يكون صوت الملك نفسه في أول سماع الرسول له .

والحالة الثانية : - أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه في صورة بشر ، وهذه الحالة أخف من سابقتها ، حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع ، ويأنس رسول النبوة عند سماعه من رسول الوحي ، ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان.

والهيئة التي يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتم فيها أن يتجرد من روحانيته ، ولا يعني أن ذاته انقلبت رجلاً . بل المراد أنه يظهر بتلك الصورة البشرية أنساً للرسول البشري ، ولا شك أن الحالة الأولى – حالة الصلصلة – لا يوجد فيها هذا الإيناس ، وهي تحتاج إلى سمو روحي من رسول الله يتناسب مع روحانية الملك فكانت أشد الحالين عليه ، لأنها كما قال ابن خلدون " انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية ، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية "[2].

وكلتا الحالتين مذكور فيما روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله r فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله r :

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه البخاري.

" أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال . وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول " ؟ وروت عائشة رضي الله عنها ما كان يصيب رسول الله r من شدة فقالت : " ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً "(1).

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلهي المشار إليه في الآية ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ ﴾ .

1- ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾.

2- ﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾.

3- ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى:51].

أما النفث في الروع ،أي القلب ، فقد ذكر في قول الرسول r " إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب "(2) والحديث لا يدل على أنه حالة مستقلة ، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين في حديث عائشة ، فيأتيه الملك في مثل الصلصلة وينفث روعه ، أو يتمثل له رجلاً وينفث في روعه . وربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم .

شبه الجاحدين على الوحي

وقد حرص الجاهليون قديماً وحديثاً على إثارة الشبه في الوحي عتواً واستكباراً، وهي شبه واهية مردودة .

1- زعموا أن القرآن الكريم من عند محمد r ، ابتكر معانيه ، وصاغ أسلوبه ، وليس وحياً يوحى

وهذا زعم باطل ، فإنه عليه الصلاة والسلام إذا كان يدعي لنفسه الزعامة ويتحدى الناس بالمعجزات لتأييد زعامته فلا مصلحة له في أن ينسب ما يتحدى به الناس إلى غيره ، وكان في استطاعته أن ينسب القرآن لنفسه ، ويكون ذلك كافياً

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه أبو نعيم في الحلية بسند صحيح .

لرفعه شأنه ، والتسليم بزعامته ، ما دام العرب جميعاً على فصاحتهم قد عجزوا عن معارضته ، بل ربما كان هذا أدعى للتسليم المطلق بزعامته لأنه واحد منهم أتى بما لم يستطيعوه .

ولا يقال إنه أراد بنسبة القرآن إلى الوحي الإلهي أن يجعل لكلامه حرمة تفوق كلامه حتى يستعين بهذا على استجابة الناس لطاعته وإنفاذ أوامره ، فإنه صدر عنه كلام نسبه لنفسه فيما يسمى بالحديث النبوي ولم ينقص ذلك من لزوم طاعته شيئاً ، ولو كان الأمر كما يتوهمون لجعل كل أقواله من كلام الله تعالى .

وهذا الادعاء يفترض في رسول الله أنه كان من أولئك الزعماء الذين يعبرون الطريق في الوصول إلى غايتهم على قنطرة من الكذب والتمويه ، وهو افتراض يأباه الواقع التاريخي في سيرته عليه الصلاة والسلام ، وما اشتهر به من صدق وأمانة شهد له بهما أعداؤه قبل أصدقائه .

لقد اتهم المنافقون زوجه عائشة بحديث الإفك ، وهي أحب زوجاته إليه ، واتهامها يمس كرامته وشرفه ، وأبطأ الوحي ، وتحرّج الرسول r وحرّج صحابته معه حتى بلغت القلوب الحناجر ، وبذل جهده في التحري والاستشارة ، ومضى شهر بأكمله ، ولم يزد على أن قال لها آخر الأمر " أم إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله " [1] وظل هكذا إلى أن نزل الوحي ببرائتها ، فماذا كان يمنعه لو أن القرآن كلامه من أن يقول كلاماً يقطع به ألسنة المتخرصين ، ويحمي عرضه ؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ **[44]** لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ **[45]** ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ **[46]** فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**[47]**﴾ [الحاقة : 44-47].

واستأذن جماعة في التخلف عن غزوة تبوك وأبدوا أعذاراً وكان منهم من انتحل هذه الأعذار من المنافقين وأذن لهم ، فنزل القرآن الكريم معاتباً له لخطأ رأيه ﴿عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾

---

(1) راجع حديث الإفك في الصحيحين وفي غيرهما ، وتفسير القصة في سورة النور .

[التوبة : 43] ولو كان هذا العقاب صادراً عن وجدانه تعبيراً عن ندمه حين تبين له فساد رأيه لما أعلنه عن نفسه بهذا التعنيف الشديد والعتاب القاسي .

ونظير هذا معاتبته r في قبول الفداء من أسرى بدر ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**[**67**]** لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**[**68**]**﴾ [الأنفال 67-68] ومعاتبته في توليه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى رضي الله عنه اهتمامٌ بنفر من أكابر قريش في دعوتهم إلى الإسلام ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى **[**1**]** أَن جَاءهُ الْأَعْمَى **[**2**]** وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى **[**3**]** أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى **[**4**]** أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى **[**5**]** فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى **[**6**]** وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى **[**7**]** وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى **[**8**]** وَهُوَ يَخْشَى **[**9**]** فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى} **[**10**]** كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ **[**11**]** ﴾ [عبس : 1-11] .

والمعهود في سيرته r أنه كان منذ نعومة أظفاره مثلاً فريداً في حسن الخلق ، وكريم السجايا ...وصدق اللهجة ، وإخلاص القول والعمل ، وقد شهد له بهذا قومه عندما دعاهم في مطلع الدعوة وقال لهم : " أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بظهر ذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا نعم ، ما جربنا عليك كذباً " وكانت سيرته العطرة مهوى أفئدة الناس إليه للدخول في الإسلام ، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : " لما قدم رسول الله r المدينة ، انجفل الناس إليه ، وقيل : قدم رسول الله ، قدم رسول الله ، فجئت في الناس لأنظر إليه فلما استثبت وجه رسول الله r عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب " [1].

وصاحب هذه الصفات العظيمة التي يتوجها الصدق ما ينبغي لأحد أن يتمرى في قوله حينما أعلن عن نفسه بأنه ليس واضع ذلك الكتاب ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [يونس: 15] .

2- وزعم الجاهليون قديماً وحديثاً أنه عليه الصلاة والسلام كان له من حدة الذكاء ، ونفاذ البصيرة ، وقوة الفراسة ، وشدة الفطنة ، وصفاء النفس ، وصدق

---

(1) رواه الترمذي بسند صحيح .

التأمل ، ما يجعله يدرك مقاييس الخير والشر ، والحق والباطل ، بالإلهام ، ويتعرف على خفايا الأمور بالكشف والوحي النفسي ، ولا يخرّج القرآن عن أن يكون أثراً للاستنباط العقلي ، والإدراك الوجداني عبر عنه محمد بأسلوبه وبيانه .

وأي شيء في القرآن يعتمد على الذكاء والاستنباط والشعور ؟

فالجانب الأخباري – وهو قسم كبير من القرآن – لا يماري عاقل في أنه لا يعتمد إلا على التلقي والتعلم .

لقد ذكر القرآن أنباء من سبق من الأمم والجماعات والأنبياء والأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة كما يذكر شاهد العيان مع طول الزمن الذي يضرب في أغوار التاريخ إلى نشأة الكون الأولى بما لا يدع مجالاً لإعمال الفكر ودقة الفراسة ، ولم يعاصر محمد **r** تلك الأمم وهذه الأحداث في قرونها المختلفة حتى يشهد وقائعها وينقل أنباءها ، كما لم يتوارث كتبها ليدرس دقائقها ويروي أخبارها ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ **[44]** وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ **[45]** ﴾ [القصص :44-45]

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود : 49] ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: 3] ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران :44] .

ومنها أنباء دقيقة تتناول الأرقام الحسابية التي لا يعلمها إلا الدارس البصير ، ففي قصة نوح ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (14) سورة العنكبوت ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت :14] وهذا موافق لما جاء في سفر التكوين من التوراة . وفي قصة أصحاب الكهف ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [الكهف :

25] وهي عند أهل الكتاب ثلاثمائة سن شمسية ، والسنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية .

فمن أين أتى محمد r بهذه الدقائق الصحيحة لو لم يكن يوحى إليه وهو الرجل الأمي الذي عاش في أمة لا تكتب ولا تحسب ؟

وقد كان أهل الجاهلية الأولى أذكى من ملاحدة الجاهلية المعاصرة ، فإن أولئك لم يقولوا إن محمداً استقى هذه الأخبار من وحي نفسه كما يقول هؤلاء ، بل قالوا إنه درسها وأمليت عليه ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان : 5] ولم يتلق رسول الله r درساً على معلم قط كما سيأتي – فمن أين جاءته هذه الأنباء فجأة بعد أن بلغ سن الأربعين ؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم : 4] .

هذا في الجانب الأخباري .

أما في سائر العلوم التي تضمنها القرآن فإن القسم العقائد يتناول كذلك أموراً تفصيلية عن بدء الخلق ونهايته . والحياة الآخرة وما فيها من الجنة ونعيمها ، والنار وعذابها ، وما يتبع ذلك من الملائكة وأوصافهم ووظائفهم – وهذه معلومات لا مجال فيها لذكاء العقل وقوة الفراسة البتة ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ [المدثر : 31] ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[يونس : 37].

ناهيك بما تضمنه القرآن من أحكام قاطعة عن أخبار المستقبل التي تجري على سنن الله الاجتماعية ، في القوة والضعف ، والصعود والهبوط ، والعزة والذلة ، والبناء والدمار ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النـــور :55] ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ **[40]** الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ

الْأُمُور [41]﴾ [الحــج :40 ، 41] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: 35] .

أضف إلى هذا أن القرآن الكريم قد حكى عن رسول الله اتباعه للوحي ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ [الأعراف :203] وأنه بشر لا يعلم الغيب ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : 110] ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [الأعراف : 188] .

وقد كان عليه الصلاة والسلام عاجزاً عن إدراك حقيقة ما وقع بين خصمين شاهدين أمامه ليقضي بينهما وهو يسمع أقوالهما فهو بلا شك أشد عجزاً عن إدراك ما فات وما هو آت : " سمع رسول الله r خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال ، إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ، فلعل بعضكم أن يكون أحلن بحجته من بعض ، فأحسب أنه صدق ، فأقضي له بذلك . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها " [1].

قال الدكتور عبد الله دراز " هذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم " الوحي النفسي" زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأي علمي جديد ، وما هو بجديد ، وإنما هو الرأي الجاهلي القديم ، لا يختلف عنه في جملته ولا في تفصيله، فقد صوروا النبي r رجلاً ذا خيال واسع وإحساس عميق فهو إذاً شاعر ، ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغى كثيراً على حواسه حتى يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصاً يكلمه ، وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجداناته فهو إذاً الجنون أو أضغاث الأحلام ، على أنهم لم يطيقوا الثبات طويلاً على هذه التعليلات ، فقد اضطروا أن يهجروا كلمة " الوحي النفسي" حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلية ، فقالوا : لعله تلقفها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة ، فهو إذا قد علمه بشر ، فأي جديد ترى في هذا كله ؟ أليس كله حديثاً

---

(1) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن .

معاداً يضاهون به قول جهال قريش ؟ وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الجديد صورة منتسخة ، بل ممسوخة منه في أقدم أثوابه ، وكان غذاء هذه الأفكار المتحضرة في العصر الحديث مستمداً من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة : 118].

وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله أنه كان صادقاً أميناً ، وأنه كان معذوراً في نسبة رؤاه إلى الوحي الإلهي ، لأن أحلامه القوية صورتها له وحياً إلهياً ، فما شهد إلا بما علم ، وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام : 33] فإن كان هذا عذره في تصوير رؤاه وسماعه فما عذره في دعواه أن لم يكن يعلم تلك الأنبياء لا هو ولا قومه من قبل هذا ، بينما هو قد سمعها بزعمهم من قبل ؟ فليقولوا إذا إنه افتراه ليتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل ، ولكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدعون الإنصاف والتعقل ، ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون " [1]

3- وزعمه الجاهليون قديماً وحديثاً أن محمداً قد تلقى العلوم القرآني على يد معلم .

وهذا حق ، إلا أن المعلم الذي تلقى عنه القرآن هو ملك الوحي ، أما أن يكون له معلم آخر من قومه ، أو من غير قومه فلا .

وإنه عليه الصلاة والسلام قد نشأ أمياً وعاش أمياً ، في أمة أمية لم يعرف فيها أحد يحمل وسام العلم والتعليم ، وهذا واقع يشهد به التاريخ ، ولا مرية فيه .

أما أن يكون له معلم من غير قومه فإن الباحث لا يستطيع أن يقع في التاريخ على كلمة واحدة تشهد بأنه لقى أحداً من العلماء حدثه عن الدين قبل إعلان نبوته .

حقيقة إنه رأى في طفولته بحيرا الراهب في سوق بصرى بالشام[2] ، ولقي في مكة ورقة بن نوفل إثر مجيء الوحي ، ولقي بعد الهجرة علماء من اليهود والنصارى ، لكن المقطوع به أنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء شيئاً من الأحاديث

---

(1) راجع النبأ العظيم .

(2) قال بحيرى عندما رأى في رسول الله r سيما النبوة : " إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم " .

قبل نبوته ، أما بعد النبوة ، فقد كانوا يسألونه مجادلين فيستفيدون منه ويأخذون عنه ، ولو كان رسول الله r أخذ شيئاً عن واحد منهم لما سكت التاريخ عنه .

لأنه ليس من الهيئات التي يتغاضى عنها الناس ، لا سيما الذين يقفون للإسلام بالمرصاد ، والكلمات التي ذكرها التاريخ عن راهب الشام او ورقة بن نوفل كانت بشارة بنبوته عليه الصلاة والسلام [1] أو اعترافاً بها .

ونقول لهؤلاء الذين يزعمون أن محمداً كان يعلمه بشر : ما اسم هذا المعلم ؟ وعندئذ نرى الجواب المتهافت المتداعي في " حداد رومي " ينسبون إليه ذلك ، فكيف يستساغ عقلاً أن تكون العلوم القرآنية صادرة من رجل لم تعرفه مكة عالماً متفرغاً لدراسة الكتب ؟ بل عرفته حدّاداً منهمكاً في مطرقته وسندانه ، عاميّ الفؤاد ، أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة بالنسبة إلى العرب ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل : 103] .

ولقد كان العرب أحرص الناس على دفع هذا القرآن إمعاناً في خصومة محمد r ، ولكنهم عجزوا ووجداو السبل أمامهم مغلقة ، وباءت كل محاولاتهم بالفشل ، فما للملحدين اليوم – وقد مضى أربعة عشر قرناً على ذلك – يبحثون في قمامات التاريخ ملتمسين سبيلاً من تلك السبل الفاشلة نفسها ؟!

وبهذا يتبين أن القرآن الكريم لا يوجد له مصدر إنساني ، لا في نفس صاحبه ، ولا عند أحد من البشر ، فهو تنزيل الحكيم الحميد .

ونشأة رسول الله r في بيئة أمية جاهلية ، وسيرته بين قومه ، من أقوى الدلائل على أن الله قد أعده لحمل رسالته ، وأوحى إليه بهذا القرآن هداية لأمته ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[52] صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ

---

(1) قال ورقة عندما سمع قص النبي r من صفة الوحي وقد أخذته خديجة إليه يرجف فؤاده " هذا هو الناموس الذي أنزله الله على موسى ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، قال : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا أوذي ، وإن يدركني قومك أنصرك نصراً مؤزراً .

الأُمُورُ[53]﴾ [الشورى : 52-53] يقول الأستاذ محمد عبده في رسالة التوحيد : " من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ، لاسيما إن كان من ذوي قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم ، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده [(1)].

ولكن الأمر لم يجر على سننه ، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعالجته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء في الكتاب من قوله : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم ، حاشى لله ، إن ذلك لهو الإفك المبين ، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ماهدوا إليه من إنقاذ الهالكين ، وإرشاد الضالين ، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته " .

متاهات المتكلمين :

وقد خاض المتكلمون في بيان كلام الله على نهج الفلاسفة فأوقعوا الناس في متاهات أضلتهم عن سواء السبيل ، حيث قسموا كلام الله تعالى إلى قسمين : نفسي
متاهات أضلتهم عن سواء السبيل ، حيث قسموا كلام الله تعالى إلى قسمين : نفسي
قديم قائم بذاته تعالى ليس بحرف ولا صوت ولا ترتيب ولا لغة ، وكلام لفظي هو المنزل على الأنبياء عليهم السلام ، ومنه الكتب الأربعة ، وأغرق علماء الكلام في خلافاتهم الكلامية المبتدعة : أيكون القرآن بهذا المعنى الثاني مخلوقاً أم لا؟ ورجحوا أن يكون مخلوقاً ، وخرجوا بذلك عن منهج السلف الصالح فيما لم يرد به

---

(1) كان غلاماً نصرانياً ، واختلف أهل السيرة في اسمه ، فقيل : اسمه سبيعة ، وقيل يعيش ، وقيل : بلعام .

كتاب ولا سنة ، وتناولوا صفات الله بالتحليل الفلسفي الذي يؤدي إلى التشكيك في عقيدة التوحيد .

ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء والصفات أو أثبته رسوله r فيما صح عنه ، وحسبك أن تؤمن بأن الكلام صفة من صفاته تعالى ، قال سبحانه : ﴿وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164] وأن القرآن الكريم – وهو الوحي المنزل على محمد r - كلام الله غير مخلوق ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ﴾ [التوبة: 6] وإثبات هذا ونحوه مما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله وإن كان يوصف به العباد فإنه لا ينافي كمال تنزيهه تعالى عما لا يليق به من نقائض عباده ، ولا يقتضي مماثلته لهم .

إذ أن الاشتراك في الأسماء لا يقتضي الاشتراك في المسميات ، فشتان بين الخالق والمخلوق في الذات والصفات والأفعال ، فذاته تعالى أكمل ، وصفاته أسمى ، وأفعاله أتم وأعلى ، وإذا كان الكلام صفة كما للمخلوق فكيف ينتفي هذا عن الخالق؟ ويسعنا ما وسع أصحاب رسول الله r وعلماء التابعين وأئمة الحديث والفقه في العصور المشهود لها بالخير قبل ظهور بدعة المتكلمين من الإيمان بما جاء عن الله أو صح عن رسوله في صفاته تعالى وأفعاله إثباتاً ونفياً من غير تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ، وليس لنا أن نحكم رأينا في كنه ذات الله أو كيفية صفاته ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:11].

المكيّ والمدني

تولي الأمم اهتمامها البالغ بالمحافظة على تراثها الفكري ومقومات حضارتها ، والأمة الإسلامية أحرزت قصب السبق في عنايتها بتراث الرسالة المحمدية التي شرفت بها الإنسانية جمعاء ، لأنها ليست رسالة علم أو إصلاح يحدد الاهتمام بها مدى قبول العقل لها واستجابة الناس إليها ، وإنما هي – فوق زادها الفكري أسسها الإصلاحية – دين يخامر الألباب ويمتزج بحبات القلوب ، فنجد أعلام الهدى من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يضبطون منازل القرآن آية أية ضبطاً يحدد الزمان والمكان ، وهذا الضبط عماد قوي في تاريخ التشريع يستند إليه الباحث في معرفة أسلوب الدعة ، وألوان الخطب ، والتدرج في الأحكام والتكاليف ، ومما روي في ذلك ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه : " والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه " (1)

والدعوة إلى الله تحتاج إلى نهج خاص في أسلوبها إزاء كل فساد في العقيدة والتشريع والخلق والسلوك نولا تفرض تكاليفها إلا بعد تكوين النواة الصالحة لها وتربية اللبنات التي تأخذ على عاتقها القيام بها ، ولا تسن أسسها التشريعية ونظمها الاجتماعية إلا بعد طهارة القلب وتحديد الغاية حتى تكون الحياة على هدى من الله وبصيرة .

والذي يقرأ القرآن الكريم يجد للآيات المكية خصائص ليست للآيات المدنية في وقعها ومعانيها ، وإن كانت الثانية مبنية على الأولى في الأحكام والتشريع .

فحيث كان القوم في جاهلية تعمي وتصم ، يعبدون الأوثان ، ويشركون بالله ، وينكرون الوحي ، ويكذبون بيوم الدين ، وكانوا يقولون : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

---

(1) أخرجه البخاري.

وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات : 16] ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية : 24] وهم ألداء في الخصومة ، أهل مماراة ولجاجة في القول عن فصاحة وبيان – حيث كان القوم كذلك نزل الوحي المكي قوارع زاجرة ، وشبهاً منذرة ، وحججاً قاطعة ، يحطم وثنيتهم في العقيدة ، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية والربوبية ، ويهتك أسرار فسادهم ، ويسفه أحلامهم ، ويقيم دلائل النبوة ، ويضرب الأمثلة للحياة الآخرة وما فيها من جنة ونار ، ويتحداهم – على فصاحتهم – بأن يأتوا بمثل القرآن ، ويسوق إليهم قصص المكذبين الغابرين عبرة وذكرى ، فتجد في مكي القرآن ألفاظاً شديدة القرع على المسامع ، تقذف حروفه شرر الوعيد وألسنة العذاب ، فكلا الرادعة الزاجرة ، والصاخة والقارعة ، والغاشية والواقعة ، وألفاظ الهجاء في فواتح السور ، وآيات التحدي في ثناياها ، ومصير الأمم السابقة ، وإقامة الأدلة الكونية ، والبراهين العقلية – كمل هذا نجده في خصائص القرآن المكي .

وحين تكونت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، وامتحنت في عقيدتها بأذى المشركين فصبرت وهاجرت بدينها مؤثرة ما عند الله على متع الحياة – حين تكونت هذه الجماعة – نرى الآيات المدنية طويلة المقاطع ، تتناول أحكام الإسلام وحدوده ، وتدعو إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، وتفصل أصول التشريع وتضع قواعد المجتمع ، وتحدد روابط الأسرة وصلات الأفراد ، وعلاقات الدول والأمم ، كما تفضح المنافقين وتكشف دخيلتهم ، وتجادل أهل الكتاب وتلجم أفواههم – وهذا هو الطابع العام للقرآن المدني .

عناية العلماء بالمكي والمدني وأمثلة ذلك وفوائده

وقد عني العلماء بتحقيق المكي والمدني عناية فائقة ، فتتبعوا القرآن آية آية ، وسورة سورة ، لترتيبها وفق نزولها، مراعين في ذلك الزمان والمكان والخطاب ، لا يكتفون بزمن النزول ، ولا بمكانه ، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب ، وهو تحديد دقيق يعطي للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمي في علم المكي والمدني ، وهو شأن علمائنا في تناولهم لمباحث القرآن الأخرى .

إنه جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحي في جميع مراحله ، ويتناول آيات القرآن الكريم فيعين وقت نزولها ، ويحدد مكانه ، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها ، أهو من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة الإسلامية في مكة أم من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة في المدينة ؟

وإذا اشتبه الأمر على الباحث لتوافر الدلائل المختلفة رجح بينها فجعل بعضها شبيهاً بما نزل في مكة ، وبعضها شبيهاً بما نزل في المدينة .

وإذا كانت الآيات نزلت في مكان ثم حملها أحد من الصحابة فور نزولها لإبلاغها في مكان آخر ضبط العلماء هذا كذلك ، فقالوا : ما حمل من مكة إلى المدينة ، وما حمل من المدينة إلى مكة .

قال أبو القاس الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري في كتاب التنبيه على فضل علوم القرآن : " من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة ، وما نزل بمكة وحكمه مدني ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي ، وما نزل بمكة في أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة في أهل مكة ، وما يشبه نزول المكي في المدني ، وما يشبه نزول المدني في المكي ، وما نزل ليلاً ، وما نزل نهاراً، وما نزل مشيّعاً [1]، وما نزد مفرداً ، والآيات المدنيات من السور المكية ، والآيات المكيات في السور المدنية ، وما حمل من مكة إلى المدينة ، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل مجملاً ، وما نزل مفسراً ، وما اختلفوا فيه ، فقال بعضهم مدني وبعضهم مكي ، فهذه خمسة وعشرون وجهاً من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتب الله تعالى " [2].

وحرص العلماء على الدقة ، فرتبوا السور حسب منازلها صورة بعد سورة ، وقالوا سورة كذا نزلت بعد سورة كذا ، وازدادوا حرصاً في الاستقصاء . ففرقوا بين ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً ، وما نزل صيفاً وما نزل شتاءً ، وما نزل في الحضر وما نزل في السفر .

وأهم الأنواع التي يتدارسها العلماء في هذا المبحث :

---

(1) كالذي روي في بعض السور والآيات مثل سورة الأنعام ، وسورة الفاتحة ، وآية الكرسي.

(2) انظر " الإتقان في علوم القرآن " للسيوطي ج1 ، صفحة (8) الطبعة الثالثة للحلبي.

1- ما نزل بمكة -2- ما نزل بالمدينة -3- ما اختلف فيه -4- الآيات المكية في السور المدينة -5- الآيات المدينة في السور المكية -6- مما نزل بمكة وحكمه مدني -7- ما نزل بالمدينة وحكمه مكي -8- ما يشبه نزول المكي في المدني -9- ما يشبه نزول المدني في المكي -10- ما حمل من مكة إلى المدينة -11- ما حمل من المدينة إلى مكة -12-ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً-13- ما نزل صيفاً وما نزل شتاء -14- ما نزل في الحضر وما نزل في السفر .

فهذه أنواع أساسية ، يرتكز محورها على المكي والمدني ، ولذا سمي هذا "بعلم المكي والمدني "

أمثلة :

1 ، 2 ، 3 – أقرب ما يل في تعداد السور المكية والمدنية إلى الصحة ، أن **المدني عشرون سورة** : -1- البقرة -2- آل عمران -3- النساء -4- المائدة -5- الأنفال – 6- التوبة -7- النور -8- الأحزاب -9- محمد -10- الفتح -11- الحجرات -12- الحديد -13- المجادلة – 14- الحشر -15- الممتحنة -16- الجمعة -17- المنافقون -18- الطلاق -19- التحريم -20- النصر .

وأن المختلف فيه اثنتا عشر سورة -1- الفاتحة -2- الرعد -3- الرحمن -4- الصف -5- التغابن -6- التطفيف -7- القدر -8- البينة -9- الزلزلة -10- الإخلاص -11- الفلق -12- الناس .

وأن ما سوى ذلك مكي . هو اثنتان وثمانون سورة ، فكييف مجموع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة .

4- الآيات المكية في السور المدنية : لا يقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك ، فقد يكون في المكية بعض آيات مدنية ، وفي المدنية بعض آيات مكية ، ولكنه وصف أغلبي حسب أكثر آياتها ، ولذا يأتي في التسمية : سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية ، وسورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية – كما نجد ذلك في المصاحف .

ومن أمثلة الآيات المكية في السور المدنية " سورة الأنفال" مدنية ، واستثنى منها كثير من العلماء قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ

أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال : 30] قال مقاتل في هذه الآية : نزلت بمكة ، وظاهرها كذلك ، لأنها تضمنت ما كان من المشركين في دار الندوة عند تآمرهم على رسول الله r قبل الهجرة . واستثنى بعضهم كذلك ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال :64] لما أخرجه البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

5- الآيات المدنية في السور المكية : ومن أمثلة المدنية في السور المكية " سورة الأنعام " قال ابن عباس نزلت بمكة جملة واحدة . فهي مكية إلا بثلاث آيات منها نزلت بالمدين ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ ... ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث [الأنعام : 151-153] ، و " سورة الحج " مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، من أول قوله تعالى : ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ... ﴾ [الحـــج : 19] .

6- ما نزل بمكة وحكمه مدني : ويمثلون له بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات : 13] فإنها نزلت بمكة يوم الفتح ، وهي مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة ، والخطاب فيها عام ، ومثل هذا لا يسميه العلماء مكياً ، كما لا يسمونه مدنياً على وجه التعيين ، بل يقولون فيه . ما نزل بمكة وحكمه مدني .

7- ما نزل بالمدينة وحكمه مكي : ويمثلون له بسورة الممتحنة ، فإنها نزلت بالمدينة ، فهي مدينة باعتبار المكان ، ولكن الخطاب في ثناياها توجه إلى مشركي أهل مكة .. ومثل هذا صدر سورة براءة نزل بالمدينة ، والخطاب فيه لمشركي أهل مكة .

8- ما يشبه نزول المكي في المدني : ويعني العلماء به ما كان في السور المدينة من آيات جاء أسلوبها في خصائصه وطابعه العام على نمط السور المكية ، ومن أمثلته قوله تعالى في سورة الأنفال – وهي مدنية ﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال : 32] فإن استعجال المشركين للعذاب كان بمكة .

9- ما يشبه نزول المدني في المكي : ويعني العلماء به ما يقابل النوع السابق ، ويمثلون له بقوله تعالى في سورة النجم ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ [النجم : 32] قال السيوطي : فإن الفواحش كل ذنب فيه حد ، والكبائر كل ذنب عاقبته النار ، واللمم ما بين الحدين من الذنوب ، ولم يكن بمكة حد ولا نحوه[1] .

10- ما حمل من مكة إلى المدينة : ومن أمثلته سورة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾أخرجه البخاري عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي r : مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرأن القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين . ثم جاء النبي r ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به ، فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سور مثلها " وهذا المعنى يصدق على كل ما حمله المهاجرون من القرآن وعلموا الأنصار .

12- ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً : أكثر القرآن نزل نهاراً أما ما نزل بالليل فقد تتبعه أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري واستخرج له أمثلة منها : أواخر آل عمران ، أخرج ابن حيان في صحيحه ، وابن المنذر ، وابن مردويه وابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها : أن بلالاً أتى النبي r يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكي ، فقال : يا رسول الله ما يبكيك ؟ قال : وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ﴾ [آل عمران : 190] ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر " ومنها : آية الثلاثة الذين خلفوا ، ففي الصحيحين من حديث كعب : فأنزل الله توبتنا حين بقي الثلث الأخير من الليل " [1] ومنها : أول سورة الفتح ، ففي

---

(1) الإتقان ج1 صفحة (18) .

(1) " لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم { لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة :118] وهم الذين قبل الله عذرهم في التخلف بغزوة تبوك .

البخاري من حديث عمر " لقد نزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ، فقرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ .

13- ما نزل صيفاً وما نزل شتاءً : ويمثل العلماء لما نزل صيفاً بآية الكلالة التي في آخر سورة النساء ، ففي صحيح مسلم عن عمر : " ما راجعت رسول الله r في شيء ما راجعته في الكلالة ، وما أغلظ في شيء ما أغلظ لي فيه ، حتى طعن بإصبعه في صدري وقال يا عمر : ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء " [(2)] . ومن أمثلته الآيات التي نزلت في غزوة تبوك ، فإنها كانت في الصيف في شدة الحر كما في القرآن نفسه [(3)].

ويمثلون للشتائي بآيات حديث الإفك في سورة النور ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : { لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النـــــور 11-26] ففي الصحيح عن عائشة " أنها نزلت في يوم شات " ومن أمثلته الآيات التي في غزوة الخندق من سورة الأحزاب حيث كانت في شدة البرد . أخرج البيهقي في دلائل النبوة عن حذيفة قال : " تفرق الناس عن رسول الله r ليلة الأحزاب إلا اثني عشر رجلاً ، فأتاني رسول الله r فقال : قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب ، قلت يا رسول الله : والذي بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء ، من البرد ، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب :9] " .

14- ما نزل في الحضر وما نزل في السفر : أكثر القرآن نزل في الحضر ، ولكن حياة رسول الله r كانت عامرة بالجهاد والغزو في سبيل الله حيث يتنزل عليه الوحي في مسيره ، وقد ذكر السيوطي لما نزل في السفر كثيراً من الأمثلة. منها أول سورة الأنفال ، نزلت ببدر عقب الواقعة ، كما أخرجه أحمد عن سعد بن أبي وقاص – وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي

---

(2) {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ ...} [النساء:176] والكلالة كما في صريح الآية : الميت الذي لا ولد له ولا مال يورث.

(3) وقد حكى القرآن عن المنافقين قولهم { وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ ...} [التوبة : 81] ، فأمر الله رسوله أن يجيبهم { قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [التوبة : 81] .

سَبِيلِ اللّهِ ﴾ [التوبة : 34] أخرج أحمد عن ثوبان أنها نزلت في بعض أسفاره r - وأول سورة الحج ، أخرج الترمذي والحاكم عن عمران بن حصين قال : " لما نزلت على النبي r ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحـــج : 1-2] أنزلت عليه هذه وهو في سفر" وسورة الفتح ، أخرج الحاكم غيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا : " نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها " .

فوائد العلم بالمكي والمدني :

وللعلم بالمكي والمدني فوائد أهمها :

(أ) **الاستعانة به في تفسير القرآن** : فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيراً صحيحاً ، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ويستطيع المفسر في ضوء ذلك عند تعارض المعنى في آيتين أن يميز بين الناسخ والمنسوخ ، فإن المتأخر يكون ناسخاً للمتقدم .

(ب) **تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله** ، فإن لكل مقام مقالاً ، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة ، وخصائص أسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجاً لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلاءم نفسية المخاطب ، ويمتلك عليه لبه ومشاعره ، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة ، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها ، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم ، ويبدو هذا واضحاً جلياً بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب .

(ج) **الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية :**

فإن تتابع الوحي على رسول الله r ساير تاريخ الدعوة بأحداثها في العهد المكي والعهد المدني منذ بدأ الوحي حتى آخر آية نزلت ، والقرآن الكريم هو

المرجع الأصيل لهذه السيرة الذي لا يدع مالاً للشك فيما روي عن أهل السير موافقاً له، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات .

معرفة المكي والمدني وبيان الفرق بينهما

اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني وبيان الفرق بينهما

اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين أساسيين : المنهج المساعي النقلي ، والمنهج القياسي الاجتهادي .

والمنهج السماعي النقلي يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحي ، وشاهدوا نزوله ، أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه ، ومعظم ما ورد في المكي والمدني من هذا القبيل ، وفي الأمثلة السابقة خير دليل على ذلك ، وقد حفلت بها كتب التفسير بالمأثور ، ومؤلفات أسباب النزول ، ومباحث علوم القرآن ، ولم يرد عن رسول الله r شيء في ذلك ، حيث إنه ليس من الواجبات التي تجب على الأمة إلا بالقدر الذي يعرف به الناسخ والمنسوخ ، قال القاضي أبو بكر ابن الطيب الباقلاني في " الانتصار" " إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين ، ولم يرد عن رسول الله r في ذلك قول لأنه لم يؤمر به ، ولم يجع الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب في بعضه على أهل العلم ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول " [1].

والمنهج القياسي الاجتهادي يستند إلى خصائص المكي وخصائص المدني ، فإذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مدنية ، وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مكية ، وإذا وجد في السورة خصائص المكي قالوا إنها مكية ، وإذا وجد فيها خصائص المدني قالوا إنها مدنية ، وهذا قياس اجتهادي ، ولذا قالوا مثلاً : كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية ،

---

(1) الإتقان صفحة (ج) ج 1.

وكل سورة فيها فريضة أو حد مدنية ، وهكذا ، قال الجعبري : " لمعرفة المكي والمدني طريقان : سماعي وقياسي " [1] ولا شك أن السماعي يعتمد على النقل ، والقياسي يعتمد على العقل ، والنقل والعقل هما طريقا المعرفة السليمة والتحقيق لعلمي .

الفرق بين المكي والمدني :

للعلماء في الفرق بين المكي والمدني ثلاثة آراء اصطلاحية ، كل رأي منها بني على اعتبار خاص .

الأول : **اعتبار زمن النزول** : **فالمكي** : ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة، **والمدني** : ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة ، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة : أو عرفة مدني ، كالذي نزل عام الفتح ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ [النساء : 58] فإنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم ، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ [المائدة : 3] [2] وهذا الرأي أولى من الرأيين بعده لحصره واطراده .

الثاني : **اعتبار مكان النزول** : **فالمكي** : ما نزل بمكة وما جاورها كمنى وعرفات والحديبية . **والمدني** : ما نزل بالمدينة وما جاوزها كأحد وقباء وسلع .

ويترتب على هذا الرأي عدم ثنائية القسمة وحصرها ، فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمة [1] ، فلا يسمى مكياً ولا مدنياً ، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكياً .

---

(1) انظر الإتقان ، صفحة (17) ج1 .

(2) في الصحيح عن عمر أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع .

(1) فسورة " الفتح " نزلت بالسفر ، وقوله تعالى في سورة التوبة (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك) نزل بتبوك .

وقوله (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) في سورة الزخرف نزل ببيت المقدس ليلة الإسراء .

الثالث : **اعتبار المخاطب** : **فالمكي** : ما كان خطاباً لأهل مكة ، **والمدني** : ما كان خطاباً لأهل المدينة .

وينبني على هذا الرأي عند أصحابه أن ما في القرآن من قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ مكي ، وما فيه من قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ مدني .

وبالملاحظة يتبين أن أكثر سور القرآن لم تفتتح بأحد الخطابين ، وأن هذا الضابط لا يطرد ، فسورة البقرة مدنية ، وفيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة : 21] وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة : 168] وسورة النساء مدنية وأولها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وسورة الحج مكية ، وفيها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ?﴾ [الحـــج77] والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين ، ويجوز أن يخاطب المؤمنين بصفتهم وباسمهم وجنسهم ، كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار عليها والازدياد منها .

مميزات المكي والمدني

استقرأ العلماء السور المكية والسور المدنية ، واستنبطوا ضوابط قياسية لكل من المكي والمدني ، تبين خصائص الأسلوب والموضوعات التي يتناولها ، وخرجوا من ذلك بقواعد ومميزات .

ضوابط المكي ومميزاته الموضوعية :

1- كل سورة فيها سجدة فهي مكية .

2- كل سورة فيها لفظ (كلا) فهي مكية ، ولم ترد إلا في النصف الأ خير من القرآن . وذكرت ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة .

3- كل سورة فيها {يَا أَيُّهَا النَّاسُ } وليس فيها {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ } فهي مكية ، إلا سورة الحج ففي أواخرها {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا } ومع هذا فإن كثيراً من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك .

4- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة .

5- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة كذلك .

6- كل سورة تفتتح بحروف التهجي كـــ " ألم " و " الر" و "حم" ونحو ذلك فهي مكية سوى الزهراوين ك وهما البقرة وآل عمران ، واختلفوا في سورة الرعد .

هذا من ناحية الضوابط ، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي .

1- الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، وإثبات الرسالة ، وإثبات البعث والجزاء ، وذكر القيامة وهولها ، والنار وعذابها ، والجنة ونعيمها ، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية ، والآيات الكونية .

2- وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع ، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء ، وأكل أموال اليتامى ظلماً ، ووأد البنات وما كانوا عليه من سوء العادات .

3- ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم ، وتسلية لرسول الله r حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم .

4- قصر الفواصل مع قوة الألفاظ ، وإيجاز العبارة ، بما يصخ الآذان ، ويشتد قرعه على المسامع ، ويصعق القلوب ، ويؤكد المعنى بكثرة القسم ، كقصار المفصل إلا نادراً .

ضوابط المدني ومميزاته الموضوعية :

1- كل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية .

2- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت فإنها مكية .

3- كل سورة فيها المجادلة أهل الكتاب فهي مدنية .

هذا من ناحية الضوابط ، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجماله فيما يأتي :

1- بيان العبادات ، والمعاملات ، والحدود ، ونظام الأسرة ، والموايث وفضيلة الجهاد ، والصلات الاجتماعية ، والعلاقات الدولية في السلم والحرب ، وقواعد الحكم ، ومسائل التشريع .

2- مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وبيان تحريفهم لكتب الله ، وتجنيهم على الحق ، واختلافهم من بعد ما جاءم العلم بغياً بينهم .

3- الكشف عن سلوك المنافقين ، وتحليل نفسيتهم ، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين .

4- طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها.

معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل

التعبير عن تلقي رسول الله r للقرآن بنزوله عليه يشعر بقوة يلمسها المرء في تصور كل هبوط من أعلى . ذلك لعلو منزلة القرآن وعظمة تعاليمه التي حولت مجرى حياة البشرية وأحدثت فيها تغيراً ربط السماء بالأرض ، ووصل الدنيا بالآخرة ، ومعرفة تاريخ التشريع الإسلامي في مصدره الأول والأصيل – وهو القرآن – نعطي الدارس صورة عن التدرج في الأحكام ومناسبة كل حكم للحالة التي نزل فيها دون تعارض بين السابق واللاحق ، وقد تناول هذا أول ما نزل من القرآن على الإطلاق وآخر ما نزل على الإطلاق ، كما تناول أول ما نزل وآخر ما نزل في كل تشريع من تعاليم الإسلام ، كالأطعمة ،والأشربة ، والقتال ، ونحو ذلك .

وللعلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ، وآخر ما نزل كذلك أقوال نجملها ونرجح بينها فيما يأتي :

أول ما نزل :

1- أصح الأقوال أن أول ما نزل هو قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [1] خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ [2] اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ [3] الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [4] عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [5] ﴾ ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : " أول ما بدئ به رسول الله r من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها حتى فجأة الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك في فقال اقرأ ، قال رسول الله r : فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال اقرأ ، فقلت ما أنا بقارئ ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ ، فغطني الثالثة حتى بلغ

مني الجهد ثم أرسلني فقال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فرجع بها رسول الله r ترجف بوادره ..." الحديث [1]

2- وقيل أن أول ما أنزل هو قوله تعالى : " يا أيها المدثر" لما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت جابر بن عبد الله : أي القرآن أنزل قبل ؟ قال: بأيها المدثر ، قلت : أو اقرأ باسم ربك ؟ قال : أحدثكم ما حدثنا به رسول الله r : إني جاورت بحراء فلما قضيت جواري نزلت فاستنبطت الوادي ، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي ، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو – يعني جبريل – فأخذتني رجفة ، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني ، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [1] قُمْ فَأَنذِرْ [2] ﴾ .

وأجيب عن حديث جابر بأن السؤال كان عن نزول سورة كاملة ، فبين جابر أن سورة المدثر نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة اقرأ ، فإن أول ما نزل منها صدرها – ويؤيد هذا ما في الصحيحين أيضاً عن أبي سلمة عن جاب قال : سمعت رسول الله r وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على ككرسي بين السماء والأرض ، فرجعت ، فقلت : زملوني ، فدثروني ، فأنزل الله " يا أيها المدثر" فهذا الحديث يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء – أو تكون المدثر أول سورة نزلت بعد فترة الوحي – وقد استخرج جابر ذلك باجتهاد فتقدم عليه رواية عائشة . ويكون أول ما نزل من القرآن على الإطلاق " اقرأ " وأول سورة نزلت كاملة ، أو أول ما نزل بعد فترة الوحي " أيها المدثر" أو أول ما نزل للرسالة ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وللنبوة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

3- وقيل أن أول ما نزل هو سورة " الفاتحة" ولعل المراد أول سورة كاملة .

---

(1) التحنث : التعبد ، وأصله ترك الحنث ، أي الذنب .

وغطني : أي ضمني شديداً حتى كان لي غطيط ، وهو صوت من حبست أنفاسه بما يشبه الخنق .

والجهد : بفتح الجيم يطلق على المشقة وعلى الوسع والطاقة وبضمها يطلق على الوسع والطاقة لا غير.

4- وقيل " بسم الله الرحمن الرحيم " والبسملة تنزل صدراً لكل سورة . دليل هذين أحاديث مرسلة والقول الأول والمؤيد بحديث عائشة هو القوي الراجح المشهور .

وقد ذكر الزركشي في " البرهان " حديث عائشة الذي نص على أن أول ما نزل ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وحديث جابر الذي نص على أن أول ما يذكر قصة بدء الوحي ، فسمع آخرها ، ولم يسمع أولها ، فتوهم أنها أو لما نزلت ، وليس كذلك ، نعم هي أول ما نزل بعد سورة ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وفترة الوحي ، لما ثبت في الصحيحين أيضاً عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله r كان يحدث عن فترة الوحي ، قال في حديثه " بينما أنا أمشي ، سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فجئثت منه فرقاً [1]، فرجعت فقلت : زملوني زملوني ، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [1] قُمْ فَأَنذِرْ [2] ﴾ .

فقد أخبر في هذا الحديث عن الملك الذي جاءه بحراء قبل هذه المرة ، وأخبر في حديث عائشة أن نزول (اقرأ) كان في غار حراء ، وهو اول وحي ، ثم فتر بعد ذلك ، وأخبر في حديث جابر أن الوحي تتابع بعد نزول ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [1]﴾ فعلم بذلك أن (اقرأ) أول ما نزل مطلقاً ، وأن سورة المدثر بعده " . وكذلك قال ابن حيان في صحيحه : لا تضاد بين الحديثين ، بل أول ما نزل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ بغار حراء ، فلما رجع إلى خديجة رضي الله عنها وصبت عليه الماء البارد ، أنزل الله عليه في بيت خديجة : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [1] } فظهر أنه لما نزل عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ رجع فتدثر فأنزل عليه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [1] ﴾.

وقيل : أول ما نزل سورة الفاتحة ، روى ذلك عن طريق أبي إسحاق عن أبي ميسرة : كان رسول الله r إذا سمع الصوت انطلق هارباً ، وذكر نزول الملك عليه وقوله قل : ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخرها .

---

(1) جئثت : فزعت ، وفي صحيح البخاري : "فرعبت منه" .

وقال القاضي أبو بكر في " الانتصار" : وهذا الخبر منقطع ، وأثبت الأقاويل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ويليه في القوة ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [1] } وطريق الجمع بين الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وأول ما نزل من أوامر التبليغ ريَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [1] ﴾ وأول ما نزل من السور سور الفاتحة ، وهذا كما ورد في الحديث " أول ما يحاسب به العبد الصلاة " [1] و " أول ما يقضى فيه الدماء" [2] وجمع بينهما بأن أول ما يحكم فيه من المظالم التي بين العباد الدماء ، وأول ما يحاسب به العبد من الفرائض البدنية الصلاة .

وقيل : أول ما نزل للرسالة ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [1] } وللنبوة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فإن العلماء قالوا: قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ دال على نبوة محمد **r** ، لأن النبوة عبارة عن الوحي إلى الشخص على لسان الملك بتكليف خاص ، وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [1] قُمْ فَأَنذِرْ [2] ﴾ دليل على رسالته **r** ، لأنها عبارة عن الوحي إلى الشخص على لسان الملك بتكليف عام " [3].

آخر ما نزل :

1- قيل آخر ما نزل آية الربا : لما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال : " آخر آية نزلت آية الربا" والمراد بها قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ الآية [4].

2- وقيل آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ﴾ الآية ، لما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس وسعيد بن جبير : " آخر شيء نزل من القرآن ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ﴾ الآية [5].

---

(1) نقله السيوطي في الجامع الصغير عن الطبراني ، ولفظه " أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح له سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله " .

(2) رواه البخاري في كتاب الديات ، ولفظه " أول ما يقضي بين الناس في الدماء" .

(3) انظر البرهان في علوم القرآن للزركشي بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص 206 وما بعدها ج 1 .

(4) سورة لبقرة ، الآية : 278 .

(5) سورة البقرة ، الآية : 281.

3- وقيل آخر ما نزل آية الدين ، لما روي عن سعيد بن المسيب : " إنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين " والمراد بها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ الآية [1].

ويجمع بين الروايات الثلاث بأن هذه الآيات نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ، آية الربا ، فآية " واتقوا يوماً " فآية الدين ، لأنها في قصة واحدة . فأخبر كل راو عن بعض ما نزل بأنه آخر ، وذلك صحيح ،وبهذا لا يقع التنافي بينها .

4- وقيل آخر ما نزل آية الكلالة . فقد روى الشيخان عن البراء بن عازب قال : آخر آية نزلت﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ﴾ الآية [2] وحملت الآخرية هنا في قول البراء على أنها مقيدة بما يتعلق بالمواريث .

5- وقيل آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى آخر السورة . ففي المستدرك عن أبي كعب قال : آخر آية نزلت ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى آخر السورة [3] وحمل هذا على أنها آخر ما نزل من سورة براءة .

ففيما رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند عن أبيّ بن كعب أن رسول الله r أقرأه هاتين الآيتين ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ في آخر سورة براءة.

6- وقيل آخر ما نزل سورة المائدة ، لما رواه الترمذي والحاكم في ذلك عن عائشة رضي الله عنها ، وأجيب بأن المراد أنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام ، فلم تنسخ فيها أحكام .

7- وقيل آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ

---

(1) سورة البقرة ، الآية : 282.

(2) سورة النساء ، الآية : 176 .

(3) سورة التوبة ، الآيتان : 128، 129 .

عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ [1] لما أخرجه ابن مردويه من طريق مجاهد عن أم سلمة أنها قالت : " آخر آية نزلت هذه الآية ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم ﴾إلى آخرها ، وذلك أنها قالت : يا رسول الله: أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [2] ونزلت ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [3] ونزلت هذه الآية ، فهي آخر الثلاثة نزولاً ، وآخر ما نزل بعد ما كان ينزل في الرجال خاصة " .

ويتضح من الرواية أن الآية المذكورة آخر الآيات الثلاث نزولاً ، وأنها آخر ما نزل بالنسبة إلى ما ذكر فيه النساء .

8- وقيل آخر ما نزل آية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [4] لما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس قال : هذه الآية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ هي آخر ما نزل وما نسخها شيء . والتعبير بقوله : " وما نسخها شيء" يدل على أنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمداً .

9- وأخرج مسلم عن ابن عباس قال : " آخر سورة نزلت ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وحمل ذلك على أن هذه السورة آخر ما نزل مشعراً بوفاة النبي r كما فهم بعض الصحابة ، أو أنها آخر ما نزل من السور .

وهذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي r . وكل قال بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن . ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من الرسول، أو قال ذلك باعتبار آخر ما نزل في تشريع خاص أو آخر سورة نزلت كاملة على النحو الذي خرّجنا به كل قول منها .

أما قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ [المائدة : 3] فإنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع ، ويدل ظاهرها

---

(1) سورة آل عمران ، الآية : 195.

(2) سورة النساء ، الآية : 32 .

(3) سورة الأحزاب ، الآية :35 .

(4) سورة النساء ، الآية : 93 .

على إكمال الفرائض والأحكام وقد سبقت الإشارة إلى ما روي في نزول آية الربا ، وآية الدين ، وآية الكلالة ، وغيرها بعد ذلك . لذا حمل كثير من العلماء إكمال الدين في هذه الآية على أن الله أتم عليهم نعمته بتمكينهم من البلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، وحجهم وحدهم دون أن يشاركهم ، في البيت الحرام أحد من المشركين ، وقد كان المشركون يحجون معهم من قبل وذلك من تمام النعمة ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ قال القاضي أبو بكر الباقلاني في "الانتصار" معلقاً على اختلاف الروايات في آخر ما نزل " هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي r ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي r في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمع هو ، ويحتمل أيضاً أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول r مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك ، فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب " [1].

أوائل موضوعية :

وتناول العلماء أوائل ما نزل بالنسبة إلى موضوعات خاصة ، ومن ذلك :

1- أول ما نزل في الأطعمة : أول آية نزلت بمكة آية الأنعام .

﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام : 145] .

ثم آية النحل ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ **[**114**]** إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ **[**115**]** ﴾ [النحل : 114 - 115] .

---

(1) انظر الإتقان صفحة (27) ج1 . ونص العبارة الأخيرة في الزركشي .

" فيؤمر برسم ما نزل معها وتلاوتها عليهم بعد رسم ما نزل آخراً وتلاوته ، فيظن سامع ذلك أنه آخر ما نزل في الترتيب ".

انظر البرهان ص 210 ، ج 1 ، وفي نقل الإتقان شيء من التحريف .

ثم آية البقرة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة : 173].

ثم آية المائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة :3] .

أول ما نزل في الأشربة : أول آية نزلت في الخمر آية البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة : 219].

ثم آية النساء {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : 43] .

ثم آية المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة :90].

عن ابن عمر قال : " نزل في الخمر ثلاث آيات ، فأول شيء ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ الآية . فقيل حرمت الخمر ، فقالوا يا رسول الله : دعنا ننتفع بها كما قال ، فسكت عنهم ، ثم نزلت هذه الآية ﴿ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ فقيل حرمت الخمر ، فقالوا يا رسول الله ألا نشربها قرب الصلاة ، فسكت عنهم ثم نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : حرمت الخمر " [1].

3- أول ما نزل في القتال : عن ابن عباس قال : أول آية نزلت في القتال ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحـــج : 39] [1].

فوائد هذا المبحث :

---

(1) رواه الطيالسي في مسنده .

(1) رواه الحاكم في المستدرك .

ولمعرفة أول ما نزل وآخر ما نزل فوائد أهمها :

(أ) **بيان العناية التي حظي بها القرآن الكريم صيانة له وضبطاً لآياته** : فقد وعى الصحابة هذا الكتاب آية آية ، فعرفوا متى نزلت ؟ وأين نزلت ؟ حيث كانوا يتلقون عن رسول الله r ما ينزل عليه من القرآن تلقي المؤمنين لأصول دينهم ، ومبعث إيمانهم ، ومصدر عزهم ومجدهم ، وكان من أثر ذلك سلامة القرآن من التغيير والتبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9] .

(ب) **إدراك أسرار التشريع الإسلامي في تاريخ مصدره الأصيل** : فإن آيات القرآن الكريم عالجت النفس البشرية بهداية السماء ، وأخذت الناس بالأساليب الحكيمة التي ترقى بنفوسهم في سلم الكمال ، وتدرجت بهم في الأحكام التي يستقيم بها منهج حياتهم على الحق ، وتنظم شؤون مجتمعهم على الطريق الأقوم .

(ج) **تمييز الناسخ من المنسوخ** : فقد ترد الآيتان أو الآيات في موضوع واحد ويختلف الحكم في إحداها عن الأخرى ، فإذا عرف ما نزل أولاً وما نزل آخراً كان حكم ما نزل آخراً ناسخاً لحكم ما نزل أولاً .

أسباب النزول

نزل القرآن ليهدي الإنسانية إلى المحبة الواضحة ، ويرشدها إلى الطريق المستقيم، ويقيم لها أسس الحياة الفاضلة التي تقوم دعامتها على الإيمان بالله ورسالاته ، ويقرر أحوال الماضي ، ووقائع الحاضر ، وأخبار المستقبل .

وأكثر القرآن نزل ابتداء لهذه الأهداف العامة ، ولكن الصحابة رضي الله عنهم في حياتهم مع رسول الله r قد شاهدوا أحداث السيرة ، وقد يقع بينهم تحادث خاص يحتاج إلى بيان شريعة الله فيه ، أو يلتبس عليهم أمر فيسألون رسول الله r عنه لمعرفة حكم الإسلام فيه ، فيتنزل القرآن لذلك الحادث ، أو لهذا السؤال الطارئ ، ومثل هذا يعرف بأسباب النزول .

عناية العلماء به :

وقد اعتنى الباحثون في علوم القرآن بمعرفة سبب النزول ،ولمسوا شدة الحاجة إليه في تفسير القرآن فأفرده جماعة منهم بالتأليف ، ومن أشهرهم : " علي بن المديني" شيخ البخاري ، ثم " الواحدي [1] " في كتابه : أسباب النزول ، ثم " الجعبري" [2] الذي اختصر كتاب " الواحدي" بحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئاً ، ثم شيخ الإسلام " ابن حجر" [3] الذي ألف كتاباً في أسباب النزول أطلع السيوطي على جزء من مسودته ولم يتيسر الوقوف عليه كاملاً ، ثم السيوطي" [4] الذي قال عن نفسه : " وقد ألفت فيه كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يؤلف مثله في هذا النوع ، سميته " لباب المنقول في أسباب النزول" [1].

ما يعتمد عليه في معرفة أسباب انزول

---

(1) هو أبو الحسن علي بن أحمد النحوي المفسر ، توفي سنة 427 هجرية .

(2) هو برهان الدين إبراهيم بن عمر ، كان له عناية بعلوم القرآن ، فألف " روضة الطرائف في رسم المصاحف " و " كنز المعاني " وهو شرح للشاطبية في القراءات ، توفي سنة 732 هجرية .

(3) هو أبو الفضل شهاب الدين الحافظ بن حجر العسقلاني واسمه أحمد بن علي . ينسب إلى عسقلان بفلسطين . كان له عناية بالحديث ،واشتهر بعلومه ، وكنبه عماد في هذا الفن –توفي سنة 852 هجرية .

(4) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة 911 هجرية .

(1) انظر الإتقان صفحة (28) ج1.

والعلماء يعتمدون في معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله r ، أو عن الصحابة ، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا إذا كان صريحاً لا يكونبالرأي ، بل يكون له حكم المرفوع ، قال الواحدي : " لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلب " وهذا هو نهج علماء السلف ، فقد كانوا يتورعون عن أن يقولوا شيئاً في ذلك دون تثبت ، قال " محمد بن سيرين"[2] سألت "عبيدة" [3] عن آية من القرآن فقال : اتق الله وقل سداداً هذا هو قول "ابن سيرين" من أعلام علماء التابعين تحرياً للرواية ،ودقة في الفصل ، فإنه يدل على وجوب الوقوف عند أسباب النزول الصحيحة ، ولذا فإن المعتمد من ذلك فيما روي من أقوال الصحابة ما كانت صيغته جارية مجرى المسند ، بحيث تكون هذه الصيغة جازمة بأنها سبب النزول .

وذهب "السيوطي" إلى أن قول التابعي إذا كان صريحاً في سبب النزول فإنه يقبل ، ويكون مرسلاً ، إذا صح المسند إليه وكان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ، و اعتضد بمرسل آخر [4]" .

وقد أخذ " الواحدي " علماء عصره تساهلهم في رواية سبب النزول، ورماهم بالإفك والكذب ، وحذرهم من الوعيد الشديد ، حيث يقول : " أما اليوم فكل أحد يخترع شيئاً ، ويختلق إفكاً وكذباً ، ملقياً زمامه إلى الجهالة ، غير مفكر في الوعيد للجاهل بسبب الآية " .

تعريف السبب

وسبب النزول بعد هذا التحقيق يكون قاصراً على أمرين :-

1- أن تحدث حادثة فينزل القرآن الكريم بشأنها ، وذلك كالذي روي عن ابن عباس قال : " لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [1] خرج النبي r حتى صعد

---

(2) تابعي من علماء البصرة اشتهر بعلوم الحديث ،وتعبير الرؤيا ، وتوفي سنة 110 هجرية.

(3) هو عبيدة (بالفتح) بن عمرو السلماني ،أسلم قبل وفاة النبي r بسنتين ولم يلقه ن وكان ابن سيرين من أروى الناس عنه .

(4) انظر الإتقان صفحة (31) ج1.

الصفا ، فهتف : ياصاحباه (فاجتمعوا إليه ، فقال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب [2]: تباً لك ، إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قال ، فنزلت هذه السور ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [3].

2- أن يسأل رسول الله r عن شيء فيتنزل القرآن ببيان الحكم فيه ، كالذي كان من خولة بنت ثعلبة عندما ظاهر [4]منها زوجها أوس بن الصامت ، فذهبت تشتكي من ذلك : عن عائشة قالت : " تبارك الذي وسع سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله r ، وهي تقول : يا رسول الله ، أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني! اللهم إني أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ وهو أوس بن الصامت "[5].

ولا يعني هذا أن يلتمس الإنسان لكل آية سبباً ، فإن القرآ، لم يكن نزوله وقفاً على الحوادث والوقائع ، أو على السؤال والاستفسار ، بل كان القرآن يتنزل ابتداء بعقائد الإيمان ، وواجبات الإسلام ، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد وحياة الجماعة ، قال " الجعبري " :" نزل القرآن على قسمين : قسم نزل ابتداء ، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال"[6].

هو ما نزل قرآنبشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال

ومن الإفراط في علم سبب النزول أن نتوسع فيه ، ونجعل منه ما هو من قبيل الأخبار عن الأحوال الماضية ، والوقائع الغابرة ، قال "السيوطي"والذي يتحرر في سبب النزول انه ما نزلت الآية أيام وقوعه ، ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره

---

(1) سورة الشعراء ، الآية : 214 .

(2) اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم .

(3) أخرجه البخاري ومسلم وغيرها .

(4) الظهار : أن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، واختلفوا في غير هذه الصيغة.

(5) أخرجه ابن ماجه وابن أبي حاتم – والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي-.

(6) انظر الغتقان ، صفحة (28) ج1.

في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة ، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية ،كذكر قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك ، وكذلك ذكره في قوله : ﴿وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [1] سبب اتخاذه خليلاً ، فليس ذلك من أسباب نزول لقرن كما لا يخفى "[2].

فوائد معرفة سبب النزول

لمعرفة سبب النزول فوائد أهمها : -

(أ) بيان الحكمة التي دعت إلى تشريع حكم من الأحكام ، وإدراك مراعاة الشرع للمصالح العمة في علاج الحوادث رحمة بالأمة .

(ب) تخصيص حكم ما نزل إن كان بصيغة العموم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ ، وهي مسألة خلافية سيأتي لها مزيد من الإيضاح ، وقد يمثل لهذا بقوله تعالى : ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران : 188] " فقد روي أن مروان قال لبوابه :اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل يعذب لنعذبن أجمعون ، فقال ابن عباس : مالكم ولهذه الآية ، إنما نزلت في أهل الكتاب : ثم تلا ﴿وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ.. ﴾ [آل عمران: 187] الآية قال ابن عباس : سألهم رسول الله r عن شيء فكتموه إياه وأخذوا بغيره، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا من كتمان ما سألهم عنه " [3] .

(ح) إذا كان لفظ ما نزل عاماً وورد دليل على تخصيصه فمعرفة السبب تقصر التخصيص على ما عدا صورته ، ولا يصح إخراجها ، لأن دخول صورة السبب في اللفظ العام قطعي ، فلا يجوز إخراجها بالاجتهاد لأنه ظني ،وهذا هو ما عليه الجمهور وقد يمثل لهذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ

---

(1) سورة النساء ، الآية :125.

(2) انظر الإتقان – صفحة (31) ج1 .

(3) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ **[23]** يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ **[24]** يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ **[25]** ﴾ [النـــــور : 23-25] فإن هذه الآية نزلت في عائشة خاصة ، أو فيها وفي سائر أزواج النبي r ، " عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ الآية : نزلت في عائشة خاصة " [1] وعن ابن عباس في هذه الآية أيضاً " هذه في عائشة وأزواج النبي r ، ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة ، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي r التوبة – ثم قرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ [النـــــور : 4- 5] " [2] وعلى هذا فإن قبول توبة القاذف وإن كان مخصصاً لعموم قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ لا يتناول بالتخصيص من قذف عائشة ، أو قذف سائر أزواج النبي r ، فإن هذا لا توبة له ، لأن دخول صورة السبب في اللفظ العام قطعي .

(د) ومعرفة سبب النزول خير سبيل لفهم معاني القرآن ، وكشف الغموض الذي يكتنف بعض الآيات في تفسيرها ما لم يعرف سبب نزولها ، قال " الواحدي" لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها وقال " ابن دقيق العيد " " بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن " وقال " ابن تيمية " "معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب" [1] ومن أمثلة ذلك: ما أشكل على مروان بن الحكم ف فهم الآية الآنفة الذكر ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران : 188] حتى أورد له ابن عباس سبب النزول .

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم – والحاكم وصححه ، وابن مردويه .

(2) أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير والطبراني وابن مردويه (راجع تفسير ابن جرير ، وتفسير ابن كثير).

(1) انظر الإتقان . صفحة (28) ج 1.

ومثله آية ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : 158] فإن ظاهر لفظ الآية لا يقتضي أن السعي فرض ، لأن رفع الجناح يفيد الإباحة لا الوجوب ، وذهب بعضهم إلى هذا تمسكاً بالظاهر [2]، وقد وردت عائشة على عروة بن الزبير في فهمه ذلك بما ورد في سبب نزولها ، وهو أن الصحابة تأثموا من السعي بينهما لأنه من عمل الجاهلية ، حيث كان على الصفا إساف ، وعلى المروة نائلة ، وهما صنمان ، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما : " عن عائشة أن عروة قال لها : أرأيت قول الله : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ ؟ فما أرى على أحد جناحاً أن لا يطوف بهما ؟ فقالت عائشة : بئس ما قلت يا ابن أختي ، إنها لو كانت على ما أولتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما ، ولكنها إنما أنزلت ، غن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها ، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ ﴾ الآية قالت عائشة : ثم قد بين رسول الله r الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما " [3].

(هـ) ويوضح سبب النزول من نزلت فيه الآية حتى لا تحمل على غيره بدافع الخصومة والتحامل . كالذي ذكر في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف : 17] فقد أراد " معاوية" أن يستخلف " يزيد " وكتب إلى" مروان " عامله على المدينة بذلك ، فجمع اناس وخطبهم ودعاهم إلى بيعة "يزيد" فأبى عبد الرحمن بن أبي بكر أن يبايع ، فأراده "مروان" بسوء لولا أن دخل بيت عائشة ، وقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي

---

(2) حكى الزمخشري في الكشاف عن أبي حنيفة أنه يقول : إن السعي واجب وليس بركن وعلى تاركه دم – وقد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين .

(3) أخرجه اشيخان وغيرهما .

﴾ فردت عليه عائشة وبينت له سبب نزولها،" عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبي سفيان ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً ، فقال : خذوه ، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا أنزل فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ فقالت عائشة : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري"[1] وفي بعض الروايات " أن مروان لما طلب البيعة ليزيد قال: سنة أبي بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن : سنة هرقل وقيصر ، فقال مروان: هذا الذي قال الله فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ الآية فبلغ ذلك عائشة فقالت : كذب مروان ، واله ما هو به ، ولو شئت أن أسمي الذي نزلت فيه لسميته "[2] .

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

إذا اتفق ما نزل مع السبب في العموم ، أو اتفق معه في الخصوص ، حمل على عمومه ن والخاص على خصوصه .

ومثال الأول قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : 222] عن أنس قال : " إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت ، فسئل رسول الله r عن ذلك ، فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ الآية ، فقال رسول الله {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ : جامعوهن في البيوت ، واصنعوا كل شيء إلا النكاح " [1].

ومثال الثاني قوله : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى **[**17**]** الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى **[**18**]** وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى **[**19**]** إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى **[**20**]** وَلَسَوْفَ

---

(1) أخرجه البخاري.

(2) أخرجه عبد بن حميد والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن محمد بن زياد ، قال : لما بايع مروان لابنه قال مروان : الخ ...

(1) أخرجه مسلم وأهل السنن وغيرهم .

يَرْضَى [21] ﴾ [الليل : 17-21] فإنها نزلت في أبي بكر ، والأتقى : أفعل تفضيل مقرون بآل العهدية فيختص بمن نزل فيه ، وإنما تفيد آل العموم إذا كانت موصولة أو معرفة في جمع على الراجح ، وآل في الأتقى ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعل التفضيل ، والأتقى ليس جمعاً ، بل هو مفرد ،والعهد موجود لاسيما وأن صيغة أفعل تدل على التمييز ، وذلك كاف في قصر الآية من نزلت فيه :ولذا قال الواحدي : الأتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين : " عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله : بلال ، وعامرة بن فهيرة ، والنهدية وابنتها ، وأم عيسى ، وأمة بني الموئل ، وفيه نزلت ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة " [2] .

وروى نحوه عن عامر بن عبد الله بن الزبير وزاد فيه : " فنزلت فيه هذه الآية ﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى}إلى قوله ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى [19] إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى [20] وَلَسَوْفَ يَرْضَى [21] ﴾ [3].

أما إذا كان السبب خاصاً ونزلت الآية بصيغة العموم فقد اختلف الأصوليون أتكون العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟

1- فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالحكم الذي يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها ، كآيات اللعان التي نزلت في قذف هلال بن أمية زوجته " فعن ابن عباس :أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي r بشريك بن سمحاء . فقال النبي r : البينة وإلا حد في ظهرك ، فقال : يا رسول الله : إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل رسول الله r يقول : البينة وإلا حد في ظهرك ، فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ، ولينزلن اله ما يبرئ ظهري من الحد ، ونزل جبريل فأنزل عليه ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ حتى بلغ ﴿ إِن كَانَ مِنَ

(2) أخرجه ابن أبي حاتم .

(3) أخرجه الحاكم وصححه .

الصَّادِقِينَ﴾ [1] ... فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ غير حادثة هلال دون احتياج إل دليل آخر .

وهذا هو الرأي الراجح والأصح ، وهو الذي يتفق مع عموم أحكام الشريعة والذي سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة فعدّوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها . كنزول آي الظهار في أوس بن الصامت ، أو سلمة بن صخر – على اختلاف الروايات في ذلك ، والاحتجاج بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائع لدى أهل العلم ، قال ابن تيمية : " قد يجيء هذا كثيراً ومن هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت في كذا ، لا سيما إن كان المذكور شخصاً كقولهم : إن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت ، وأن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله ، وأن قوله : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم ﴾ [2]نزلت في بني قريظة والنضير ، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة ، أو في قوم من اليهود والنصارى ، أو في قوم من المؤمنين ، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ، هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق ، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هلى يختص بسببه فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين ، وإنما غاية ما يقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص ، فتعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ ، والآية التي لها سبب معين غن كانت أمراً او نهياً فهعي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كانت بمنزلته ، وإن كانت خيراً يمدح أو يذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته ".

2- وذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ ، فاللفظ العام دليل على صورة السبب الخاص ، ولابد من دليل آخر لغيره من الصور كالقياس ونحوه ،حتى يبقى لنقل رواية السبب الخاص فائدة ، ويتطابق السبب والمسبب تطابق السؤال والجواب .

---

(1) أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجه .

(2) سورة المائدة ، الآية 49.

صيغة سبب النزول

صيغة سبب النزول إما أن تكون نصاً صريحاً في السببية ، وإما أن تكون محتملة .

فتكون نصاً صريحاً في السببية إذا قال الراوي : " سبب نزول هذه الآية كذا " أو إذا أتى بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر الحادثة أو السؤال ، كما قال "حدث كذا" أو " سئل رسول الله r عن كذا فنزلت الآية " – فهاتان صيغتان صريحتان في السببية سيأتي لهما أمثلة [1].

وتكون الصيغة محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام إذا قال الراوي " نزلت هذه الآية كذا " فذلك يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أنه داخل في معنى الآية .

وكذلك إذا قال : " أحسب هذه الآية نزلت في كذا" أو " ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في كذا " فإن الراوي بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب – فهاتان صيغتان تحتملان السببية وغيرها كذلك . ومثال الصيغة الأولى ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : " أنزلت ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [2] الآية في إتيان النساء في أدبارهن " [3].

ومثال الصيغة الثانية ما روي عن عبد الله بن الزبير " أن الزبير خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً مع النبي r إلى رسول الله r في شراج من الحرة ، وكانا يسقيان به كلاهما النخل ، فقال الأنصاري سرح الماء يمر ، فأبى عليه ، فقال رسول الله r : اسق يا زبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك ، فغضب الأنصاري وقال : يا رسول الله ، آن كان ابن عمتك ؟ فتلوّن وجه رسول الله r ، ثم قال : اسق يا زبير ثم أحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، ثم أرسل الماء إلى جارك . واستوعى رسول الله r للزبير حقه ، وكان رسول الله r قبل ذلك

(1) انظر أمثلة تعدد الروايات في سبب النزول التي ستأتي بعد هذه الفقرة .

(2) سورة البقرة ، الآية : 223 .

(3) أخرجه البخاري.

أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة له وللأنصاري ، فلما أحفظ رسول الله الأنصاري استوعى للزبير حقه في صريح الحكم ، فقال الزبير : ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء : 65] " [1] قال ابن تيمية : " قولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب ، وقد تنازع العلماء في قول الصحابي : نزلت هذه الآية في كذا ، هل يجري مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند ؟ فالبخاري يدخله في المسند ، وغيره لا يدخله فيه ، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره ، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند " [2] وقال الزركشي في البرهان " قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : نزلت هذه الآي في كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها ، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع " [3]

تعدد الروايات في سبب النزول

قد تتعدد الروايات في سبب نزول آية واحدة ، وف مثل هذه الحالة يكون موقف المفسر منها على النحو الآتي :-

(أ) إذا لم تكن الصيغ الواردة صريحة مثل : " نزلت هذه الآية في كذا " أو " أحسبها نزلت في كذا" فلا منافاة بينها ، إذ المراد التفسير ، وبيان أن ذلك داخل في الآية ومستفاد منها ، وليس المراد ذكر سبب النزول ، إلا إن قامت قرينة على واحدة بأن المراد بها السببية .

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم .

(2) المراد بالإسناد هنا أن يكون مسنداً إلى الرسول r بمعنى أن يكون مرفوعاً . وإن كان من قول الصحابي ، لأنه لا مجال للاجتهاد فيه .

(3) انظر الإتقان صفحة (31) ج 1 .

(ب) إذا كانت إحدى الصيغ غير صريحة كقوله : "نزلت في كذا" وصرح آخر بذكر سبب مخالف فالمعتمد ما هو نص في السببية ، وتحمل الأخرى على دخولها في أحكام الآية ، ومثال ذلك ما ورد ف سبب نزول قوله تعالى : ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [1]" ع ننافع قال :قرأت ذات يوم ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ فقال ابن عمر : أتدري فيم أنزلت هذه الآية ؟ قلت : لا ، قال : نزلت في إتيان النساء في أدبارهن " [2] فهذه الصيغة من ابن عمر غير صحيحة في السببية ،وقد جاء التصريح يذكر سبب يخالفه " عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول ، فنزلت ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [3] فجابر هو المعتمد لأن كلامه نقل صريح، وهو نص في السبب ، أما كلام ابن عمر فليس بنص فيحمل على أنه استنباط وتفسير .

(ج) و إذا تعددت الروايات وكانت جميعها نصاً في السببية وكان إسناد أحده صحيحاً دون غيره فالمعتمد الرواية الصحيحة ، مثل : ما أخرجه الشيخان وغيرهما جندب البجلي قال " اشتكى النبي r فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً ، فأتته امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، لم يقربك ليلتين أو ثلاثاً ، فأنزل الله ﴿وَالضُّحَى [1] وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى [2] مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى [3] ﴾ وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمتها ، وكانت خادم رسول الله r ، إن جرواً دخل بيت النبي r ، فدخل تحت السرير ، فمات ، فمكث النبي r أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي ، فقال يا خولة ، ما حدث في بيت رسول الله r ؟ جبريل لا يأتيني ! فقلت ف نفسي : لو هيأت البيت وكنسته ، فأهويت بالمكنسة تحت السرير ، فأخرجت الجرو فجاء النبي r ترعد لحيته ، وكان إذا نزل علي أخذته الرعدة ، فأنزل الله {وَالضُّحَى} إلى قوله { فَتَرْضَى} ...

---

(1) سورة البقرة ، الآية :223.

(2) أخرجه البخاري وغيره .

(3) أخرجه البخاري وأهل السنن وغيرهم .

قال ابن حجر في شرح البخاري : " قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونه سبب نزول الآية غريب ، وفي إسناده من لا يعرف ، فالمعتمد ما في الصحيحين " [1]

(د) فإذا تساوت الروايات في الصحة ووجد وجه من وجوه الترجيح كحضور القصة مثلاً أو كون إحداها أصح قدمت الرواية الراجحة ، ومثال ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال : "كنت أمشي مع النبي r بالمدينة ،وهو يتوكأ على عسيب ، فمر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : لو سألتموه ، فقالوا . حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ورفع رأسه ، فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي ، ثم قال : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [2] " وقد أخرج الترمذي وصححه عن ابن عباس قال : " قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : أسألوه عن الروح ، فسألوه فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ الآية " فهذه الرواية تقتضي أنها نزلت بمكة حيث كانت قريش . والرواية الأولى تقتضي أنها نزلت بالمدينة وترجح الرواية الأولى لحضور ابن مسعود القصة . ثم لما عليه الأمة من تلقي صحيح البخاري بالقبول وترجيحه على ما صح في غيره .

وقد اعتبر " الزركشي" هذا المثال من باب النزول وتكرره [1]، فتكون هذه الآية قدنزلت مرتين : مرة بمكة ومرة بالمدينة ، واستند في ذلك إلى أن سورة "سبحان" مكية بالاتفاق .

وإني أرى أن كون السورة مكية لا ينفى أنتكون آية منها أو أكثر مدنية ، وما أخرجه البخاري عن ابن مسعود يدل على أن هذه الآية ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء : 85] مدنية ، فالوجه الذي اخترناه من ترجيح رواية ابن مسعود على رواية الترمذي عن ابن عباس أولى من حمل الآية على تعدد النزول وتكرره . ولو صح أن الآية مكية وقد نزلت جواباً عن سؤال

---

(1) انظر الإتقان ، صفحة (32) ج1.

(2) سورة الإسراء ، الآية :85 .

(1) انظر "البرهان " صفحة 30 ج1 .

نفسه بالمدينة لا يقتضي نزول الوحي بالجواب نفسه مرة أخرى ، بل يقتضي أن يجيب الرسول r بالجواب الذي نزل عليه من قبل .

(هــ) إذا تساوت الروايات في الترجيح جمع بينها إن أمكن ، فتكون الآية قد نزلت بعد السببين أو الأسباب لتقارب الزمن بينها ، كآيات اللعان ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ... ﴾ [النـــــور : 9] فقد أخرج البخاري والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس أنها نزلت في هلال بن أمية ، قذف امرأته عند النبي r بشريك بن سمحاء ، كما ذكرنا من قبل [2].

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال : " جاء عويمر إلى عاصم بن عدي ، فقال : سل رسول الله r عن رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فيقتل به أم كيف يصنع ؟..." فجمع بوقوع حادثة هلال أولاً ، وصادف مجيء عويمر كذلك . فنزلت في شأنهما معاً بعد حادثتيهما . قال ابن حجر :" لا مانع من تعدد الأسباب .

(و) إن لم يكن الجمع لتباعد الزمن فإنه يحمل على تعدد النزول وتكرره ومثاله : ما أخرجه الشيخان عن المسيب قال : " لما حض أبا طلب الوفاة دخل عليه رسول الله r وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : أي عم ، قل : لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلمان حتى قال : هو على ملة عبد المطلب ، فقال النبي r : لأستغفر نلك ما لم أنه عنه ، فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية [1].

وأخرج الترمذي عن علي قال : " سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال استغفر ابراهيم لأبيه وهو مشرك ، فذكرت ذلك لرسول الله r فنزلت .

---

(2) انظر صفحة (70) العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(1) سورة التوبة ، الآي : 113.

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن مسعود قال: " خرج النبي r يوماً للمقابر ، فجلس إلى قبر منها ، فناجاه طويلاً ثم بكى ، فقال : إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي ، وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي ، فأنزل علي ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ... ﴾ فجمع بين هذه الروايات بتعدد النزول .

ومن أمثلته كذلكما روي عن أبي هريرة : أن النبي r وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به ، فقال : لأمثلن بسبعين منهم مكانك ، فنزل جبريل والنبي r واقف بخواتيم سورة النحل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. ﴾ إلى آخر السورة " [2] [3] فهذا يدل على نزولها يوم أحد .

وجاء في رواية أخر أنها نزلت يوم فتح مكة [4] . السور المكية ، فجمع بين ذلك , بأنها نزلت بمكة قبل الهجرة مع السورة ، ثم بأحد ، ثم يوم الفتح ، ولا مانع من ذلك لما فيه من التذكير بنعمة الله على عباده واستحضار شريعته ، قال الزركشي في البرهان :" وقد ينزل الشيء مرتين : مرة بمكة ،وأخرى بالمدينة "

هذا ما يذكره علماء الفن في تعدد النزول وتكرره ، ولا أرى لهذا الرأي وجهاً مستساغاً ، حيث لا تتضح الحكمة من تكرار النزول . وإنما أرى أن الروايات المتعددة في سبب النزول ولا يمكن الجمع بينها يتأتى فيها الترجيح . فالروايات الواردة في سبب نزول قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ... ﴾ [التوبة : 113] ترجح فيها الرواية الأولى على الروايتين الأخيرتين ، لأنها وردت في الصحيحين دونهما ، وحسبك برواية الشيخين قوة . فالراجح أن الآية نزلت في أبي طالب . وكذلك الشأن ي الروايات التي وردت في سبب نزول خواتيم سورة النحل ، فغنها ليست في درجة سواء . والأخذ بأرجحها أولى من القبول بتعدد النزول وتكرره .

---

(2) سورة النحل ، الآيات :126-128 .

(3) أخرجه البيهقي والبراز عن أبي هريرة .

(4) أخرجها الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب .

والخلاصة أن سبب النزول إذا تعدد : فإما أن يكون الجميع غير صريح ، وإما أن يكون الجميع صريحاً ، وإما أن يكون بعضه غير صريح وبعضه صريحاً ، فإن كان الجميع غير صريح في السببية فلا ضرر حيث يحمل على التفسير والدخول في الآية (أ) وإن كان بعضه غير صريح وبعضه الآخر صريحاً فالمعتمد هو الصريح (ب) وإن كان الجميع صريحاً دون الآخر فالصحيح هو المعتمد (ج) وإن كان الجميع صريحاً فالترجيح إن أمكن (د) وإلا فالجمع إن أمكن (هـ) وإلا حمل على تعدد النزول وتكرره (و) وفي هذا القسم الأخير مقال، وفي النفس منه شيء .

تعدد النزول مع وحدة السبب :

قد يتعدد ما ينزل والسبب واحد ، ولا شيء في ذلك ، فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة في سور شتى . ومثاله : ما أخرجه سعيد بن منصور وعبد الرزاق والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن أم سلمة قالت : " يا رسول الله ، لا أسمع ذكر النساء في الهجرة بشيء ، فأنزل الله ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ... ﴾ (195) الآية "[1].

وأخرج أحمد والنسائي وابن جرير ابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة قالت : " قلت يا رسول الله : ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ فلم يرعني منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر وهو يقول ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... ﴾ إلى آخر الآية "[1] .

وأخرج الحاكم عن أم سلمة أيضاً أنها قالت : تغزو الرجال ولا تغزو النساء ، وإنما لنا نصف الميراث ؟ فأنزل الله ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ... ﴾ الآية [2] وأنزل﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ... ﴾ فهذه الآيات الثلاث نزلت على سبب واحد .

---

(1) سورة آل عمران ، الآية : 195.

(1) سورة الأحزاب ، الآية : 35.

(2) سورة النساء ،الآية : 32.

تقدم نزول الآية على الحكم

يذكر " الزركشي " نوعاً يتصل بأسباب النزول يسمي تقدم نزول الآية على الحكم " [3] والمثال الذي ذكره في ذلك لا يدل على أن الآية تنزل في حكم خاص ثم لا يكون العمل به إلا مؤخراً ، وإنما يدل على أن الآية قد تنزل بلفظ محمل يحتمل أكثر من معنى ثم يحمل تفسيرها على أحد المعاني فيما بعد فتكون دليلاً على حكم متأخر . جاء في "البرهان" واعلم أنه قد يكون النزول سابقاً على الحكم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ [الأعلى: 14] فإنه يستدل على زكاة الفطر ، روى البيهقي بسنده إلى ابن عمر أنها نزلت في زكاة رمضان ، ثم أسند مرفوعاً نحوه ، وقال بعضهم : لا أدري ما وجه هذا التأويل ؟ لأن هذه السورة مكية ، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة " .

وأجاب البغوي [4] في تفسيره بأنه يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم ، كما قال ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ **[**1**]** وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ **[**2**]** ﴾ [البلد: 1-2] فالسورة مكية ، وظهر أثر الحل يوم فتح مكة ، حتى قال عليه السلام : "أحلت لي ساعة من نهار" [1] .

وكذلك نزل بمكة ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر:45] قال عمر ابن الخطاب : كنت لا أدري : أي الجمع يهزم ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله **r** يقول : " سيهزم الجمع ويولون الدبر".

فأنت ترى فيما ذكره صاحب البرهان أن صيغة سبب النزول محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام "روى البيهقي بسنده إلى أن ابن عمر أنها نزلت في

---

(3) سورة آل عمران ، الآية :195.

(4) هو أبو محمد الحسن بن مسعود بن محمد البغوي الفقيه الشافعي ، صاحب كتاب " مصابيح السنة" و " معالم التنزيل" في التفسير ، توفي سنة 510 .

(1) من حديث في الصحيحين . والآية تحتمل ثلاث معان : أن يكون "حل" من الحلو بالمكان والنزول به ، فكون حلوله بالبلد الأمين مناطاً لإعظامه بالإقسام به ، أو يكون "حلّ" من الحلال بمعنى المباح ، فإنهم قد استحلوه عليه الصلاة والسلام في هذا البلد الحرام . أو يكون المعنى وأنت حل في المستقبل ، وهذا الرأي الأخير هو الذي يكون النزول فيه سابقاً للحكم .

زكاة رمضان" والآيات التي ذكرها مجملة تحتمل أكثر من معنى ، أو جاءت بصيغة الإخبار عما يحدث في المستقبل {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}.

تعدد ما نزل في شخص واحد

قد يحدث لشخص واحد من الصحابة أكثر من الواقعة ، ويتنزل القرآن بشأن كل واقعة منها ، فيتعدد ما نزل بشأنه بتعدد الوقائع ، ومثاله : ما رواه البخاري في كتاب "الأدب المفرد " في بر الوالدين عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : "نزلت في أربع آيات من كتاب الله عز وجل : كانت أمي حلفت ألا تأكل ولا تشرب ، حتى أفارق محمداً r ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان:15] والثانية : أني كنت أخذت سيفاً فأعجبني ، فقلت : رسول اله ، هب لي هذا السيف ، فنزلت : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ ﴾ [الأنفال : 1] والثالثة أني كنت مرضت فأتاني رسول الله r فقلت : يا رسول الله ، إني أريد أن أقسم مالي أفأوصي بالنصف ؟ فقال لا، فقلت : الثلث ، فسكت ، فكان الثلث بعد جائزاً [(1)].
والرابعة : أني شربت الخمر مع قوم من الأنصار ، فضرب رجل منهم أنفي بلحي جمل ، فأتيت رسول الله r فأنزل الله عز وجل تحريم الخمر " ويعتبر من هذا القبيل موافقات عمر رضي الله عنه ، فقد نزل الوحي موافقاً لرأيه في عدة آيات .

الاستفادة من معرفة أسباب النزول في مجال التربية والتعليم

يعاني المربون في مجال الحياة التعليمية كثيراً من المتاعب في استخدام الوسائل التربوية لإثارة انتباه الطلاب حتى تتهيأ نفوسهم للدرس في شوق يستجمع قواهم العقلية ويرغبهم في الاستماع والمتابعة ، والمرحلة التمهيدية من مراحل الدرس

---

(1) نزل في الوصية قوله تعالى : ﴿فكتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين ﴾ [البقرة : 180] ولم يأت التصريح بنزول الآية في نص الحديث.

تحتاج إلى فطنة لماحة تعين المدرس على اجتذاب مشاعر الطلاب لدرسه بشتى الوسائل المناسبة ، كما تحتج إلى ممارسة طويلة تكسبه خبرة في حسن اختيار الربط بين معلوماتهم دون تعسف يكلفه شططاً .

وكما تهدف المرحلة التمهيدية في الدرس إلى إثارة انتباه الطلاب واجتذاب مشاعرهم فإنها تهدف كذلك إلى التصور الكلي للموضوع ، كي يسهل على المدرس أن ينتقل بطلابه من الكلي لجزئي إلى أن يستوعب عناصر الدرس تفضيلاً بعد أن تصوره طلابه جملة .

ومعرفة أسباب النزول هي السبيل الأفضل لتحقيق تلك الأهداف التربوية في دراسة القرآن الكريم تلاوة وتفسيراً .

إن سبب النزول هي السبيل الأفضل لتحقيق تلك الأهداف التربوية في دراسة القرآن الكريم تلاوة وتفسيراً .

إن سبب النزول إما أن يكون قصة لحادثة وقعت ، وإما أن يكون سؤالاً طرح على رسول الله r لاستكشاف حكم في موضوع ، فينزل القرآن إثر الحادثة أو السؤال ، فلن يجد المدرس نفسه في حاجة لمعالجة التمهيد للدرس بشيء يبتكره ويختاره ، إذ أنه إذا ساق بسبب النزول كانت قصته كافية في إثارة انتباه الطلاب ، واجتذاب مشاعرهم ، واستجماع قواهم العقلية ، وتهيئة نفوسهم لتقبل الدرس ، وتشويقهم للاستماع إليه ، وترغيبهم في الحرص عليه ، فهم تصورون الدرس بمعرفة سبب النزول تصوراً عاماً بما فيه من عناصر القصة المثيرة ، فتتوق نفوسهم إلى معرفة ما نزل ملائماً له وما يتضمنه من أسرار تشريعية وأحكام تفصيلية ، تهدي الإنسانية إلى نهج الحياة الأقوم ، وصراطها المستقيم ، وسبيل عزها ومجدها وسعادتها .

وعلى المربين في مجال الحياة التربوية التعليمية الخاصة بمقاعد الدرس أو العامة في التوجيه والإرشاد أن يستفيدوا من سياق أسباب النزول في التأثير على الطلاب الدارسين وجماهير المسترشدين ، فذلك أجدى وأنفع وأهدى سبيلاً لتحقيق الأهداف التربوية بأروع معانيها وأرقى صورها.

المناسبات بين الآيات والسور

كما أن معرفة سبب النزول لها أثرها في فهم المعنى وتفسير الآية فإن معرفة المناسبة بين الآيات تساعد كذلك على حسن التأويل ، ودقة الفهم ، ولذا أفرد بعض العلماء هذا المبحث بالتصنيف [(1)].

والمناسبة في اللغة : المقاربة، يقال فلان يناسب فلاناً أي يقرب منه ويشاكله ومنه المناسبة في العلة في باب القياس وهي الوصف المقارب للحكم .

والمراد بالمناسبة هنا: وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة – أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة ، أو بين السورة والسورة .

ولمعرفة المناسبة فائدتها في إدراك اتساق المعاني ، وإعجاز القرآن البلاغي ، وإحكام بيانه ، وانتظام كلامه ، وروعة أسلوبه ، ﴿ آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ [هود : 1] .

قال الزركشي : " وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء" وقال القاضي أبو بكر بن العربي : " ارتباط آي القرآن بعضها ببعض ، حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعاني ، منتظمة المباني ، علم عظيم " .

ومعرفة المناسبات والربط بين الآيات ليست أمراً توقيفياً ، ولكنها تعتمد على اجتهاد المفسر ومبلغ تذوقه لإعجاز القرآن وأسراره البلاغية وأوجه بيانه الفريد ، فإذا كانت المناسبة دقيقة المعنى ، منسجمة مع السياق ، متفقة مع الأصول اللغوية في علوم العربية ، كانت مقبولة لطيفة .

ولا يعني هذا أن يلتمس المفسر لكل آية مناسبة ، فإن القرآن الكريم نزل منجماً حسب الوقائع والأحداث ، وقد يدرك المفسر ارتباط آياته وقد لايدركها ، فلا ينبغي أن يتعسف المناسبة اعتسافاً ، وإلا كانت تكلفاً ممقوتاً ، قال الشيخ عز الدين بن

---

(1) ممن صنف فيه أبو جعفر بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي النحوي الحافظ المتوفى سنة 807 هـ في كتاب سماه "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن" وللشيخ برهان الدين البقاعي كتاب في هذا سماه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور " وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ، وانظر هذا المبحث في "البرهان" للزركشي، صفحة 35 ج1.

عبد السلام [1] : " بالمناسبة علم حسن ، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر " . ثم قال : " ومن ربط بين ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصان حسن الحديث فضلاً عن أحسنه ، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ، ولأسباب مختلفة ، وما كان لذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض ".

وقد عني بعض المفسرين ببيان المناسبة بين الجمل ، أو بين الآيات ، أو بين السور [2] واستنبطوا وجوه ارتباط دقيقة .

فالجملة قد تأكيداً لما قبلها ، أو بياناً ، أو تفسيراً ، أو اعتراضاً تذليلياً – ولهذا أمثلته الكثيرة .

وللآية تعليقها بما قبلها على وجه من وجوه الارتباط يجمع بينهما ، كالمقابلة بين صفات المؤمنين وصفات المشركين ، ووعيد هؤلاء ووعد أولئك ، وذكر آيات الرحمة بعد آيات العذاب ، وآيات الترغيب بعد آيات الترهيب ، وآيات التوحيد والتنزيه بعد آيات الكونية ، وهكذا ...

وقد تكون المناسبة في مراعاة حال المخاطبين كقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ **[**17**]** وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ **[**18**]** وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ **[**19**]**سورة الغاشية﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**[**20**]**﴾ [الغاشية : 17-20] فجمع بين الإبل والسماء والجبال مراعاة لما جرى عليه الإلف والعادة بالنسبة إلى المخاطبين في البادية ، حيث يعتمدون في معايشهم على الإبل ، فتنصرف عنايتهم إليها ، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بالماء الذي ينبت المرعى وترده الإبل ، وهذا يكون بنزول المطر ،وهو سبب تقلب وجوههم في السماء ، ثم لابد لهم من مأوى يتحصنون به ولا شيء أمنع كالجبال ، وهم يطلبون الكلأ والماء فيرحلون من أرض ويهبطون أخرى ، ويتنقلون من مرعى أجدب إلى مرعى أخصب ، فذا

---

(1) هو عبد العزيز بن عبد السلام المشهور بالعز كان عالماً مجاهداً ورعاً، توفي سنة 660 هـ .

(2) وجه الارتباط بين السور مبني على أن ترتيب السور توقيفي ، وقد اختلف العلماء في ذلك كما سيأتي .

سمع أهل البادية هذه الآيات خالطت شغاف قلوبهم بما هو حاضر لا يغيب عـن أذهانهم .

وقد تكون المناسبة بين السورة والسورة ، كافتتاح سورة " الأنعام " بالحمد ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } [الأنعام: 1] فإنه مناسب لختام سورة "المائدة" في الفصل بين العباد ومجازاتهم ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة : 118] كما قال سبحانه ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر:75] وكافتتاح سورة " الحديد " بالتسبيح ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد : 1] فإنه مناسب لختام سور الواقعة من الأمر به {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:96] وكارتباط سورة "لإيلاف قريش " بسورة "الفيل" فإن هلاك أصحاب الفيل كانت عاقبته تمكين قريش من رحلتيها شتاءً وصيفاً ، حتى قال الأخفش ، اتصالها بها من باب قوله تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص :8] .

وقد تكون المناسبة بين فواتح السور وخواتمها ...ومن ذلك ما في سورة "القصص" فقد بدأت بقصة موسى عليه السلام ، وبيان مبدأ أمره ونصره ، ثم ما كان منه عندما وجد رجلين يقتتلان .

وحكى الله دعاءه﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص : 17] ثم ختم الله السورة بتسلية رسولنا r بخروجه من مكة والوعد بعودته إليها ، ونهيه عن أن يكون ظهيراً للكافرين ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ[85] وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ [86] ﴾ [القصص . : 85-86]

ومن تتبع كتب التفسير وجد كثيراً من وجوه المناسبات .

نزول القرآن

أنزل الله القرآن على رسولنا محمد e لهداية البشرية , فكان نزوله حــدثاً جللاً يؤذن بمكانته لدى أهل السماء وأهل الأرض , فإنزاله الأول في ليلة القــدر أشعر العالم العلوي من ملائكة الله بشرف الأمة المحمدية التي أكرمها الله بهــذه الرسالة الجديدة لتكون خير أمة أخرجت للناس و وتنزيله الثاني مفرقاً على خلاف المعهود في إنزال الكتب السماوية قبله أثار الدهشة التي حملت القوم على المماراة

فيه , حتى أسفر لهم صبح الحقيقة فيما وراء ذلك من أسرار الحكمة الإلهية و فلم يكن الرسول e ليتلقى الرسالة العظمى جمة واحدة ويقنع بها القوم مع ما هم عليه من صلف وعناد , فكان الوحي يتنزل عليه تباعاً تثبيتاً لقلبه , وتسلية له , وتدرجاً مع الأحداث والوقائع حتى أكمل الله الدين , وأتم النعمة .

نزول القرآن جملة

بقول الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 184] ويقول : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1].

ويقول : ﴿{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: 3] .

ولا تعارض بين هذه الآيات الثلاث , فالليلة المباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان , إنما يتعارض ظاهرها مع الواقع العملي في حياة رسول الله e , حيث نزل القرآن عليه في ثلاث وعشرين سنة – وللعلماء في هذا مذهبان أساسيان :

1- المذهب الأول : - وهو الذي قال به ابن عباس وجماعة وعليه جمهور العلماء – أن المراد بنزول القرآن في تلك الآيات الثلاث نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيماً لشأنه عند ملائكته و ثم نزل بعد ذلك منجماً على رسولنا محمد e في ثلاث وعشرين سنة[1] حسب الوقائع والأحداث منذ بعثته إلى أن توفي صلوات الله وسلامه عليه , حيث أقام في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة , وبالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات : فعن ابن عباس قال : (بعث رسول الله e لأربعين سنة , فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه , ثم أمر بالهجرة عشر سنين , ومات وهو ابن ثلاث وستين)[2] .

---

(1) وقدر بعض العلماء مدة نزول القرآن بعشرين سنة , وبعضهما بخمس وعشرين سنة لاختلافهم في مدة إقامته e بعد البعثة –بمكة-, أكانت ثلاث عشرة سنة , أم عشر سنين أم خمس عشرة سنة ؟ اتفاقهم على أن إقامته بالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات –والصواب الأول – انظر الإتقان صفحة (39) ج1 .

(2) رواه البخاري .

وهذا الذهب هو الذي جاءت به الأخبار الصحيحة عن ابن عباس في عـدة روايات ! .

(أ) عن ابن عباس قال : (أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلـة القدر . ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة , ثم قرأ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33] ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء: 106][1] .

(ب) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (فصل القـرآن مـن الـذكر فوضع في بيت العزة من المساء الدنيا , فجعل جبريل ينزل به على النبي e)[2].

(ج) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا وكان بمواقع النجوم , وكان الله ينزله على رسوله e بعضه في إثـر بعض)[3] .

(د) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (أنزل القرآن في ليلة اقدر في شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة ولحدة , ثم أنزل نجوماً)[4] .

2- المذهب الثاني : - وهو الذي روي عن الشعبي[5] – أن المراد بنزول القرآن في الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله e , فقد ابتدأ نزوله في ليلة القدر من شهر رمضان , وهي الليلة المباركة و ثم تتابع نزوله بعد ذلك متـدرجاً مع الوقائع والأحداث في قرابة ثلاث وعشرين سنة , فليس للقرآن سـوى نـزول واحد هو نزوله منجماً على رسول الله e , لأن هذا هو الذي جاء بـه القـرآن ! ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنـزِيلاً﴾ [الإسـراء: 106] وجادل فيه المشركون الذين نقل إليهم نزول الكتب السماوية السابقة جملة واحـدة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّـتَ بِـهِ فُـؤَادَكَ

---

(1) رواه الحاكم البيهقي والنسائي .

(2) رواه الحاكم .

(3) رواه الحاكم والبيهقي .

(4) رواه الطبراني .

(5) الشعبي : هو عامر بن شارحيل . من كبار التابعين – وأكبر شيوخ أبي حنيفة – كان إماماً في الحديث والفقه , وتوفي سنة 109 هجرية .

وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا*﴾ [الفرقان: 32, 33] ولا يظهر للبشر مزية لشهر رمضان وليلة القدر التي هي الليلة المباركة إلا إذا كان المراد بالآيات الثلاث نزول القرآن على رسول الله e , وهذا يوافق ما جاء في قوله تعالى بغزوة بدر ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ*﴾ [الأنفال: 41] وقد كانت غزوة بدر في رمضان . ويؤيد هذا ما عليه المحققون في حديث بدء الوحي , عن عائشة قالت : (أول ما بدئ به رسول الله e من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم , فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح , ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك , ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها و حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ , قال رسول الله e فقلت : ما أنا بقارئ , فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ , فقلت : ما أنا بقارئ , فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ , فقلت : ما أنا بقارئ , فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق , حتى بلغ : ما لم يعلم)(1) فإن المحققين من الشراح على أن الرسول e نبئ أولاً بالرؤيا في شهر مولده شهر ربيع الأول, ثم كانت مدتها ستة أشهر , ثم أوحى إليه يقظة في شهر رمضان باقرأ – وبهذا تتآزر النصوص على معنى واحد .

3- وهناك مذهب ثالث : يرى أن القرآن أنزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر(2) في كل ليلة منها ما يقدر الله إنزاله في كل سنة , وهذا القدر الذي ينزل في ليلة القدر إلى السماء الدنيا لسنة كاملة ينزل بعد ذلك منجماً على رسول الله e في جميع السنة .

وهذا المذهب اجتهاد من بعض المفسرين , ولا دليل عليه .

أما المذهب الثاني روي عن الشعبي فأدلته – مع صحتها والتسليم بها – لا تتعارض مع المذهب الأول الذي روي عن ابن عباس .

---

(1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(2) أو عشرين , أو خمس وعشرين ليلة قدر , بناء على الخلاف السابق في مدة إقامته بمكة .

فالراجع أن القرآن الكريم له تنزلان !

الأول : نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا .

والثاني: نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة.

وقد نقل القرطبي عن مقاتل بن حيان حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا . ونفى ابن عباس التعارض بين الآيات الثلاث في نزول القرآن والواقع العملي في حياة الرسول **e** بنزول القرآن في ثلاث وعشرين سنة بغير شهر رمضان : عن ابن عباس : (أنه سأل عطية بن الأسود فقال : أوقع في قلبي الشك قوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ وقوله : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ *﴾ وهذا أنزل في شوال , وفي ذي القعدة , وفي ذي الحجة , وفي المحرم وصفر وشهر ربيع , فقال ابن عباس : إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم[1] رسلاً[2] في الشهور والأيام)[3] .

وأشار بعض العلماء إلى حكمة ذلك في تعظيم شأن القرآن , وتشريف المنزل عليه , قال السيوطي : (قيل السر في إنزاله جملة إلى السماء تفخيم أمره وأمر من نزل عليه , وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قربناه إليهم لينزله عليهم . ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله , ولكن الله باين بينه وبينها , فجعل له الأمرين ك إنزاله جملة , ثم إنزاله مفرقاً , تشريفاً للمنزل عليه) وقال السخاوي في جمال القراء : (في نزوله إلى السماء جملة تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة وتعريفهم عناية الله بهم , ورحمته لهم , ولهذا المعنى مر سبعين ألفاً من الملائكة

---

(1) على مواقع النجوم : أي على مثل مساقطها في نزوله مفرقا يتلو بعضه بعضاً .

(2) رسلاً : أي على تؤدة ورفق .

(3) أخرجه ابن مردوية والبيهقي في الأسماء والصفات .

أن تشيع سورة الأنعام[1] , وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائـــه على السفرة الكرام , وإنساخهم إياه , وتلاوتهم له)[2] .

نزول القرآن منجماً

يقول تعالى في التنزيل : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِـــهِ الـــرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 192-195] .

ويقول : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُـــدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 102] .

ويقول : ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: 2] .

ويقول : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِـــهِ﴾ [البقرة: 23] .

ويقول : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُـــصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 97] .

فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربية , وأن جبريل نزل به على قلب رسول الله e , وأن هذا النزول الأول إلى سماء الدنيا فـــالمراد به نزوله منجماً , ويدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدرج والتنجيم , فإن علماء اللغة يفرقون بـــين الإنـــزال والتنزيـــل , فالتنزيل لما نزل مفرقاً والإنزال أعم[3] .

وقد نزل القرآن منجماً في ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة بمكة على الرأي الراجح , وعشر بالمدينة , وجاء التصريح بنزوله مفرقاً في قوله تعـــالى : ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً*﴾ [الإسراء: 106] أي

---

(1) المشيع من القرآن : ما نزل منه محفوفاً بالملائكة . أخرج الطبراني وأبو عبيد في فضائل القرآن : عن ابن عباس قال : (نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة حولها سبعون ألف ملك يجأرن بالتسبيح) .

(2) انظر الإتقان , صفحة (40, 41) ج1 .

(3) انظر مفردات الراغب .

جعلنا نزوله مفرقاً كي تقرأه على الناس على مهل وتثبيت , نزلناه تنزيلاً بحسب الوقائع والأحداث .

أما الكتب السماوية الأخرى – كالتوراة والإنجيل والزبور – فكان نزولها جملة , ولم تنزل مفرقة , يدل على هذا قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32] فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة , وهو ما عليه جمهور العلماء , ولو كان نزولها مفرقاً لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجماً , فمعنى قولهم : (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) هلا أنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب ؟ وما له أنزل على التنجيم ؟ ولم أنزل مفرقاً ولم يرد الله عليهم بان هذه سنته في إنزال الكتب السماوية كلها كما ورد عليهم في قولهم : ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 7] بقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 20] وكما ورد عليهم في قولهم : ﴿أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً*﴾ ؟ [الإسراء: 94] بقوله : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: 95] وقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: 7] بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة في تنزيل القرآن منجماً بقوله : ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي كذلك أنزل مفرقاً لحكمة هي تقوية قلب رسول الله ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي قدرناه آية بعد آية بعضه إثر بعض , أو بيناه تبيناً , فإن إنزاله مفرقاً حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم وذلك من أعظم أسباب التثبيت .

والذي استقرى من الأحاديث الصحيحة أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل , وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة و وصح نزول عشر آيات في أول المؤمنين جملة , وصح نزول (غير أولي الضرر) وحدها وهي بعض آية)[1] .

---

(1) نقل هذا السيوطي عن (مكي بن أبي طالب) المتوفي سنة 437 هجرية , في كتاب له يسمى (الناسخ والمنسوخ – انظر الإتقان صفحة (42) ج1 .

حكمة نزول القرآن منجماً

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم منجماً من النصوص الواردة في ذلك . ونجملها فيما يأتي :

1- الحكمة الأولى : **تثبيت فؤاد رسول الله e** :

لقد وجه رسول الله e دعوته إلى الناس , فوجد منهم نفوراً وقسوة , وتصدى له قوم غلاظ الأكباد فطروا على الجفوة , وجبلوا على العناد , يتعرضون له بصنوف الأذى والعنت , مع رغبته الصادقة في إبلاغهم الخير الذي يحمله إليهم , حتى قال الله فيه ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا*﴾ [الكهف: 6] فكان الوحي يتنزل على رسول الله e فترة بعد فترة , بما يثبت قلبه على الحق , ويشحذ عزمه للمضي قدماً في طريق دعوته , لا يبالي بظلمات الجهالة التي يواجهها من قومه , فإنها سحابة صيف عما قريب تقشع .

يبين الله له سنته في الأنبياء السابقين الذين كذبوا وأوذوا فصبروا حتى جاءهم نصر الله , وأن قومه لم يكذبوه إلا علواً واستكباراً , فيجد عليه الصلاة والسلام في ذلك السنة الإلهية في موكب النبوة عبر التاريخ الذي يتأسى بها تسلية له إزاء أذى قومه , وتكذيبهم له , وإعراضهم عنه ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ*﴾ [الأنعام: 33, 34] ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ*﴾ [آل عمران: 184] .

ويأمره القرآن بالصبر كما صبر الرسل من قبله ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35] .

ويطمئن نفسه بما تكفل الله به من كفايته أمر المكذبين ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا*﴾ [المزمل: 10, 11] .

وهذا هو ما جاء في حكمة قصص الأنبياء بالقرآن ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120] .

وكلما اشتد ألم رسول الله e لتكذيب قومه , وداخله الحزن لأذاهـم نـزل القرآن دعماً وتسلية له , يهدد المكذبين بأن الله يعلم أحوالهم , وسيجازيهم على ما كان منهم ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يـس: 76] ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: 65] .

كما يبشره الله تعالى بآيات المنعة والغلبة والنصر ﴿وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: 67] ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: 3] ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21] .

وهكذا كانت آيات القرآن تتنزل على رسول الله e تباعاً تسلية لـه بعـد تسلية, وعزاء بعد عزاء , حتى لا يأخذ منه الحزن مأخذه ولا يستبد به الأسـى , ولا يجد اليأس إلى نفسه سبيلاً , فله في قصص الأنبياء أسـوة , وفـي مـصير المكذبين سلوى , وفي العدة بالنصر بشرى , وكلما عرض له شيء من الحـزن بمقتضى الطبع البشري تكررت التسلية , فثبت قلبه على دعوته , واطمـأن إلـى النصر .

وهذه الحكمة هي التي رد الله بها على اعتراض الكفار في تنجيم القـرآن بقوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32] .

قال أبو شامة[1] : (فإن قيل : ما السر في نزوله منجماً ؟ وهلا أنزل كسائر الكتب جملة ؟ قلنا : هذا سؤال قد تولى الله جوابه , فقال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ يعنون : كما أنزل على من قبله مـن الرسل , فأجابهم تعالى بقوله : ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا*﴾ أي أنزلناه مفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي لنقوي به قلبك , فإن الوحي إذا كان يتجدد في كـل حادثة كان أقوى للقلب , وأشد عناية بالمرسل إليه , ويستلزم ذلك كثـرة نـزول الملك إليه , وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز,

---

(1) أبو شامة : هو عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي , الفقيه الشافعي , له (الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز) و(شرح على الشاطبية المشهورة في القراءات , توفي سنة 665 هجرية.

فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة و ولهذا كان أجود مـا يكـون فـي رمضان لكثرة لقياه جبريل)[1] .

2- الحكمة الثاني : التحدي والإعجاز :

فالمشركون تمادوا في غيهم , وبالغوا في عتوهم , وكانوا يـسألون أسـئلة تعجيز وتحد يمتحنون بها رسول الله في نبوته و ويسوقون له من ذلك كل عجيب من باطلهم , كعلم الساعة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأعراف: 187] , واسـتعجال العذاب ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحـج: 47] فيتنزل القرآن بما يبين وجه الحق لهم , وبما هو أوضح معنى في مؤدي أسئلتهم , كما قال تعالى : ﴿وَلَـا يَأْتُونَـكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا*﴾ [الفرقان: 33] أي ولا يأتونـك بـسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحق , وبما هو أحسن معنـى من تلك الأسئلة التي هي مثل في البطلان .

وحيث عجبوا من نزول القرآن منجماً بين الله لهم الحق في ذلـك , فـإن يحديهم به مفرقاً مع عجزهم عن الإتيا بمثله أدخل في الإعجاز , وأبلغ في الحجة من أن ينزل جملة ويقال لهم : جيئوا بمثله , ولهذا جاءت الآية عقب اعتراضـهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها كنزول القرآن جملة إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وبما هو أبين معنى في إعجازهم , وذلك بنزوله مفرقاً و ويشير إلى هذه الحكمة مـا جـاء بـبعض الروايات في حديث ابن عباس عن نزول القرآن (فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً)[2] .

3- الحكمة الثالثة : تيسير حفظه وفهمه :

لقد نزل القرآن الكريم على أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابـة , سـجلها ذاكرة حافظة , ليس لها دراية بالكتابة والتدوين حتى تكتب وتدون , ثـم تحفـظ وتفهم . ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ*﴾ [الجمعة: 2] ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

---

(1) انظر الإتيان صفحة (41) ج1 .

(2) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: 157] فما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة , وأن تفهم معانيه وتتدبر آياته , فكان نزوله مفرقاً خير عون لها على حفظه في صدورها وفهم آياته , كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة , وتدبروا معانيها , ووقفوا عند أحكامها , واستمر هذا منهجاً للتعليم في حياة التابعين , عن أبي نضرة قال : (كان أبو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة , وخمس آيات بالعشي , ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات)[1] وعن خالد بن دينار قال : (قال لنا أبو العلية : تعلموا القرآن خمس آيات فن النبي e كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً)[2] وعن عمر قال : (تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي e خمساً خمساً)[3] .

4- الحكمة الرابعة : مسايرة الحوادث والتدرج في التشريع . فما كان الناس ليسلس قيادهم طفرة للدين الجديد لولا أن القرآن عجالهم بحكمة , وأعطاهم من دوائه الناجع جرعات يستطبون بها من الفساد والرذيلة , وكلما حدثت حادثة بينهم نزل الحكم فيها يجلي لهم صبحها ويرشدهم إلى الهدى , ويضع لهم أصول التشريع حسب المقتضيات أصلاً بعد آخر فكان هذا طباً لقلوبهم .

لقد كان القرآن الكريم بادئ ذي بدء يتناول أصول الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار, ويقيم على ذلك الحجج والبراهين حتى يستأصل من نفوس المشركين العقائد الوثنية ويغرس فيها عقيدة الإسلام .

وكان يأمر بمحاسن الأخلاق التي تزكو بها النفس ويستقيم عوجها , وينهى عن الفحشاء والمنكر فيقتلع جذور الفساد والشر . ويبين قواعد الحلال والحرام التي يقوم عليها صرح الدين , وترسو دعائمه في المطاعم والمشارب والأموال والأغراض والدماء .

---

(1) أخرجه ابن عساكر .

(2) أخرجه البيهقي .

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان .

ثم تدرج التشريع بالأمة في علاج ما تأصل في النفوس من أمراض اجتماعية . بعد أن تسرع لهم من فرائض الدين وأركان الإسلام ما يجعل قلوبهم عامرة بالإيمان خالصة لله , تعبده وحده لا شريك له .

كما كان القرآن يتنزل وفق الحوادث التي تمر بالمسلمين في جهادهم الطويل لإعلاء كلمة الله .

ولهذا كله أدلته من نصوص القرآن الكريم إذا تتبعنا مكيه ومدنيه وقواعد تشريعه .

ففي مكة شرعت الصلاة , وشرع الأصل العام للزكاة مقارناً بالربا ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: 38, 39] .

ونزلت سورة الأنعام – وهي مكية – تبين أصول الإيمان , وأدلة التوحيد , وتندد بالشرك والمشركين , وتوضح ما يحل وما يحرم من المطاعم , وتدعو إلى صيانة حرمات الأموال والدماء والأعراض : ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ*﴾ [الأنعام: 151, 152] .

ثم نزل بعد ذلك تفصيل هذه الأحكام .

فأصول المعاملات المدنية نزلت بمكة , ولكن تفصيل أحكامها نزل بالمدينة كآية المداينة وآيات تحريم الربا .

وأسس العلاقات الأسرية نزلت بمكة , أما بيان حقوق كل من الزوجين , وواجبات الحياة الزوجية , وما يترتب على ذلك من استمرار العشرة أو انفصامها

بالطلاق , أو انتهائها بالموت ثم الإرث – أما بيان هذا فقد جاء في التشريع المدني.

وأصل الزنى حرم بمكة : ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ [الإسراء: 32] ولكن العقوبات المترتبة عليه نزلت بالمدينة .

وأصل حرمة الدماء نزل بمكة : ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ﴾ [الإسراء: 33] ولكن تفصيل عقوباتها في الاعتداء على النفس والأطراف نزل بالمدينة .

وأوضح مثال لذلك التدرج في التشريع تحريم الخمر .

فقد نزل قوله تعالى : ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: 67] في مقام الامتنان بنعمه سبحانه – وإذا كان المراد بالسكر ما يسكر من الخمر , وبالرزق ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب – وهذا ما عليه جمهور المفسرين – فإن وصف الرزق بأنه حسن دون وصف السكر يشعر بمدح الرزق والثناء عليه وحده دون السكر .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219] فقارنت الآية بين منافع الخمر فيما يصدر عن شربها من طرب ونشوة أو يترتب على الاتجار بها من ربح , ومضارها في إثم تعاطيها وما ينشأ عنه من ضرر في الجسم , وفساد في العقل , وضياع للمال وإثارة لبواعث الفجور والعصيان , ونفرت الآية منها بترجيح المضار على المنافع .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ﴾ [النساء: 43] فاقتضى هذا الامتناع عن شرب الخمر في الأوقات التي يستمر تأثيرها إلى وقت الصلاة , حيث جاء النهي عن قربان الصلاة في حال السكر حتى يزول عنهم أثره ويعلموا ما يقولونه في صلاتهم .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن

يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ*﴾ [المائدة: 90, 91] فكان هذا تحريماً قاطعاً للخمر في الأوقات كلها .

ويوضح هذه الحكمة ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار , حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام و ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) لقالوا : لا ندع الخمر أبداً , ولو نزل (لا تزنوا) لقالوا : (لا ندع الزنى أبداً)[1] .

وهكذا كان التدرج في تربية الأمة وفق ما يمر بها من أحداث , فقد استشار رسول الله e صحابته في أسرى بدر , فقال عمر : اضرب أعناقهم , وقال أبو بكر نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء , وأخذ رسول الله e برأي أبي بكر, فنزل قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 67, 68][2] .

وأعجب المسلمون بكثرتهم يوم حنين حتى قال رجل : لن نغلب من قلة , فتلقوا درساً قاسياً في ذلك , ونزل قوله تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 25-27][3] .

ولما توفي عبد الله بن أبي – رأس المنافقين – (دعي رسول الله e للصلاة عليه , فقام عيه , فلما وقف قال عمر : أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا , والقائل كذا وكذا ؟ يعدد أيامه . ورسول الله e يبتسم , ثم قال له إني قد خيرت , قد قيل لي : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً

---

(1) أخرجه البخاري .

(2) من حديث أخرجه أحمد عن أنس .

(3) أخرجه البيهقي في الدلائل .

فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة : 80] فلو أعلم ني إن زدت على السبعين غفـــر لـــه لزدت عليها و ثم صلى عليه رسول الله e , ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه , قال عمر : فعجبت لي ولجرأتي على رسول الله e , والله ورســـوله أعلم , فو الله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَـــدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُـــمْ كَفَـــرُواْ بِاللّـــهِ وَرَسُـــولِهِ وَمَـــاتُواْ وَهُـــمْ فَاسِقُونَ*....﴾ [التوبة: 84, 85] فما صلى رسول الله e على منافق بعد حتـــى قبضه الله عز وجل)[1] .

وحين تخلف نفر من المؤمنين الصادقين في غزوة تبوك , وأقاموا بالمدينة, ولم يجد رسول الله e لديهم عذراً هجرهم وقاطعهم حتى ضاقوا ذرعاً بالحياة ثـــم نزل القرآن لقبول توبتهم : ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّـــذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّـــهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَـــا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَـــابَ عَلَـــيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *﴾ [التوبة: 117, 118][2] ويشير إلى هذا مـــا روي عن ابن عباس في نزول القرآن : (ونزله جبريـــل بجـــواب كـــلام العبـــاد وأعمالهم)[3] .

5- الحكمة الخامسة: الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل مـــن حكـــيم حميد:

إن هذا القرآن الذي نزل منجماً على رسول الله e في أكثر من عـــشرين عامـــاً تتنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلو ســـوره فيجـــده محكم النسج , دقيق السبك , مترابط المعاني , رصين الأسلوب , متناسق الآيـــات والسور , كأنه عقد فريد نظمت حباته بما لم يعهد له مثيل في كلام البشر : ﴿﴾

(1) أخرجه البخاري وأحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه وغيرهم .

(2) من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما , والثلاثة هم : كعب بن مالك , وهلال بن أميـــة , ومرارة بن الربيع , وكلهم من الأنصار .

(3) أخرجه الطبراني والبزار عن ابن عباس – وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر .

ولو كان هذا القرآن من كلام البشر قيل في مناسبات متعـددة, ووقـائع متتاليـة, وأحداث متعاقبة, لوقع فيه التفكك والانفصام, واستعصى أن يكون بينـه التوافـق والانسجام: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82] .

فأحاديث رسول الله e - وهي في ذروة الفصاحة والبلاغة بعد القـرآن الكريم – لا تنتظم حباتها في كتاب واحد سلس العبارة يأخذ بعضه برقاب بعـض في وحدة وترابط بمثل ما عليه القرآن الكريم أو ما يدانيه اتساقاً وانسجاماً. فكيف بكلام سائر البشر وأحاديثهم: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88][1] .

الاستفادة من نزول القرآن منجماً في التربية والتعليم

تعتمد العملية التعليمية على أمرين أساسيين : مراعاة المـستوى الـذهني للطلاب وتنمية قدراتهم العقلية والنفسية والجسمية بما يوجهها وجهة سديدة إلـى الخير والرشاد.

ونحن نلحظ في حكمة نزول القرآن منجماً ما يفيدنا فـي مراعـاة هـذين الأمرين على النحو الذي ذكرناه آنفاً, فإن نزول القرآن الكريم تدرج فـي تربيـة الأمة الإسلامية تدرجاً فطرياً لإصلاح النفس البشرية, واستقامة سـلوكها, وبنـاء شخصيتها, وتكامل كيانها, حتى استوت على سوقها, وآتت آكلها الطيب بإذن ربها لخير الإنسان كافة.

وكان تنجيم القرآن خير عون لها على حفظه وفهمـه ومدارسـته وتـدبر معانيه, والعمل بما فيه .

وبين نزول القرآن في مطلع الوحي بالقراءة والتعليم بأداة الكتابة : ﴿اقْـرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ , خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ , اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ , الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ , عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : 1-5] ونزول آيات الربا والمواريث في نظام المال, أو نزول آيات القتال في المفاصلة التامة بين الاسلام والشرك – بـين ذاك

(1) انظر هذه الحكمة في مناهل العرفان للزرقاني. صفحة (54) ج1.

وهذا مراحل تربوية كثيرة لها أساليبها التي تلائم مستوى المجتمع الإسلامي في تدرجه من الضعف إلى القوة, ومن القوة إلى شدة البأس .

والمنهج الدراسي الذي لا يراعى فيه المستوى الذهني للطلاب في كل مرحلة من مراحل التعليم وبناء جزئيات العلوم على كلياتها والانتقال من الإجمال إلى التفصيل, أو لا يراعي تنمية جوانب الشخصية العقلية والنفسية والجسيمة منهج فاشل لا تجني منه الأمة ثمرة علمية سوى الجمود والتخلف.

والمدرس الذي لا يعطي طلابه القدر المناسب من المادة العلمية فيثقل كاهلهم ويحملهم ما لا يطيقون حفظاً أو فهماً أو يحدثهم بما لا يدركون, أو لا يراعي حالهم في علاج ما يعرض لهم من شذوذ خلقي أو يفشو من عادات سيئة, فيقسو ويتعسف, ويأخذ الأمر دون أناة وروية, وتدرج وحكمة – المدرس الذي يفعل ذلك مدرس فاشل كذلك. يحول العملية التعليمية إلى متاهات موحشة, ويجعل عرف الدراسة قاعات منفرة.

وقس على هذا الكتاب المدرسي, فالكتاب الذي لا تنتظم موضوعاته وفصوله, ولا تتدرج معلوماته من السهل إلى الصعب, ولا تترتب جزئياته ترتيباً محكماً منسقاً, ولا يكون أسلوبه واضحاً في أداء المعنى المقصود, كتاب ينفر الطالب من قراءته, ويحرمه من الاستفادة منه.

والهدى الإلهي في حكمة نزول القرآن منجماً هو الأسوة الحسنة في صياغة مناهج التعليم, والأخذ بأمثل الطرق في الأساليب التربوية بقاعة الدرس, وتأليف الكتاب المدرسي.

جمع القرآن وترتيبه

يطلق جمع القرآن ويراد به عند العلماء أحد معنيين : - المعنى الأول : - جمعه بمعنى حفظه, وجُمّاع القرآن : حُفّاظه, وهذا المعنى هو الذي ورد في قوله تعالى في خطابه لنبيه e , وقد كان يحرك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا نزل عليه قبل

فراغ جبريل من قراءة الوحي حرصاً على أن يحفظه : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ , إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ , فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ , ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة : 16-19] عن ابن عباس قال : ((كان رسول الله e يعالج من التنزيل شدة, فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه, يريد أن يحفظه, فأنزل ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ , إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ قال: يقول: إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم نقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ يقول : إذا أنزلناه عليك ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أن نبينه بلسانك. وفي لفظ : علينا أن نقرأه, فكان رسول الله e بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق. وفي لفظ : استمع, فإذا ذهب قرأه كما وعد الله))[1] .

المعنى الثاني : جمع القرآن بمعنى كتابته كله, مفرق الآيات والسور, أو مرتب الآيات فقط, وكل سورة, في صحيفة على حدة, أو مرتب الآيات والسور في صحائف مجتمعة تضم السور جميعاً وقد رتب إحداها بعد الأخرى.

1- (أ) **جمع القرآن بمعنى حفظه على عهد النبي e** : -

كان رسول الله e مولعاً بالوحي, يترقب نزوله عليه بشوق, فيحفظه ويفهمه, مصداقاً لوعد الله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 17] فكان بذلك أول الحفاظ, ولصحابته فيه الأسوة الحسنة, شغفاً بأصل الدين ومصدر الرسالة, وقد نزل القرآن في بعض وعشرين سنة, فربما نزلت الآية المفردة, وربما نزلت آيات عدة إلى عشر ' وكلما نزلت آية حفظت في الصدور, ووعتها القلوب, والأمة العربية كانت بسجيتها قوية الذاكرة, تستعيض عن أميتها في كتابة أخبارها وأشعارها وأنسابها بسجل صدورها .

وقد أورد البخاري في صحيحه بثلاث روايات سبعة من الحفاظ, هم: عبد الله بن مسعود, وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة, ومعاذ بن جبل, وأبي كعب, وزيد بن ثابت, وأبو زيد بن السكن, وأبو الدرداء.

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس.

1- عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: ((سمعت رسول الله e خـــذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود, وسالم, ومعاذ, وأبـــي بـــن كعـــب))[1] وهؤلاء الأربعة, اثنان من المهاجرين هما: عبد الله بن مسعود وسالم, واثنان مـــن الأنصار هما: معاذ وأبي.

2- عن قتادة قال: ((سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله e؟ فقال: أربعة, كلهم من الأنصار: أبي بن كعب, ومعاذ بن جبل, وزيد بـــن ثابت, وأبو زيد, قلت من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي))[2] .

3- وروي من طريق ثابت عن أنس كذلك قال: ((مات النبي e ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء, ومعاذ بن جبل, وزيد بن ثابت, وأبو زيد))[3] .

وأبو زيد المذكور في هذه الأحاديث جاء بيانه فيما نقله ابن حجر بإســـناد على شرط البخاري عن أنس: أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه: قيس بن السكن, قال: وكان رجلاً منا من بني عدي بن النجار أحد عمومتي, ومات لم يدع عقبـــاً)) ونحن ورثناه.

وبين ابن حجر في ترجمة سعيد بن عبيد أنه من الحفاظ, وأنه كان يلقـــب بالقارئ[4] .

وذكر هؤلاء الحفاظ السبعة. أو الثمانية, لا يعني الحصر, فإن النـــصوص الواردة في كتب السير والسنن تدل على أن الصحابة كانوا يتنافسون فـــي حفـــظ القرآن, ويحفظونه أزواجهم وأولادهم. ويقرؤون به في صلواتهم بجـــوف الليـــل, حتى يسمع لهم دوي كدوي النحل, وكان رسول الله e يمر على بيوت الأنـــصار, ويستمع إلى ندى أصواتهم بالقرأة في بيوتهم, عن أبـــي موســـى الأشـــعري: ((أن

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه البخاري.

(3) رواه البخاري.

(4) الإصابة, صفحة 28 ج2.

رسول الله e قال له: لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك؟ لقد أعطيت مزماراً من مزامير داود))[1] .

وعند عبد الله بن عمرو قال : ((جمعت القرآن, فقرأت به كل ليلة, فبلغ النبي e فقال: اقرأه في شهر))[2] .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : ((قال رسول الله e : إني لأعرف رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون, وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل, وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار))[3].

ومع حرص الصحابة على مدارسة القرآن واستظهاره فإن رسول الله e كان يشجعهم على ذلك, ويختار لهم من يعلمهم القرآن, عن عبادة بن الصامت قال: ((كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي e إلى رجل منا يعلمه القرآن, وكان يسمع لمسجد رسول الله e ضجة بتلاوة القرآن, حتى أمرهم رسول الله e أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالظوا))[4] .

فهذا الحصر للسبعة المذكورين من البخاري بالروايات الثلاث الآنفة الذكر محمول على أن هؤلاء هم الذين جمعوا القرآن كله في صدورهم, وعرضوه على البني e . واتصلت بنا أسانيدهم, أما غيرهم من حفظة القرآن – وهم كثر – فلم يتوافر فيهم هذه الأمور كلها, لاسيما وأن الصحابة تفرقوا في الأمصار, وحفظ بعضهم عن بعض, ويكفي دليلاً على ذلك أن الذين قتلوا في بئر معونة منن الصحابة كان يقال لهم القراء, وكانوا سبعين رجلاً كما في الصحيح, قال القرطبي: ((قد قتل يوم اليمام سبعون من القراء – وقتل في عهد النبي e ببئر معونة مثل هذا العدد)) وهذا هو ما فهمه العلماء وأولوا به الأحاديث الدالة على حصر الحفاظ

---

(1) رواه البخاري, وفي رواية لمسلم بزيادة((فقلت: لو علمت والله يا رسول الله أنك تسمع لقرائتي لحبرته لك تحبيرا)).

(2) أخرجه النسائي بسند صحيح.

(3) رواه البخاري ومسلم.

(4) مناهل العرفان للزرقاني صفحة(234) ج1.

السبعة المذكورين, قال الماوردي[1] معلقاً على رواية أنس ((لم يجمع القرآن غير أربعة)) : ((لا يلزم من قول أنس لم يجمعه غيرهم أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك, لأن التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه, وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم في البلاد[2] وهذا لا يتم إلا إن كان لقي كل واحد منهم على انفراده, وأخبرهم عن نفسه أنه لم يكمل له جمع في عهد النبي e, وهذا في غاية البعد في العادة, وإذا كان المرجع إلى ما في علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك, وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه, بل إذا حفظ ولو على التوزيع كفى))[3] .

والماوردي بهذا ينفي الشبه التي توهم قلة عدد الحفاظ بأسلوب مقنع, ويبين الاحتمالات الممكنة لصيغة الحصر في حديث أنس بياناً شافياً.

وقد ذكر أبو عبيد[4] في كتاب ((القراءات)) القراء من أصحاب النبي e . فعد من المهاجرين: الخلفاء الأربعة, وطلحة – وسعداً, وابن مسعود, وحديفة, وسالماً, وأبا هريرة, وعبد الله السائب, والعبادلة[5], وعائشة, وحفصة, وأم سلمة, ومن لأنصار: عبادة بن الصامت. ومعاذاً الذي يكنى أبا حليمة, ومجمع بن تجارية, وفضالة بن عبيد, ومسلمة بن مخلد, وصرح بأن بعضهم إنما كمله بعد النبي e))[6] .

---

(1) هو أبو الحسن علي بن حبيب الشافعي, صاحب كتاب ((الأحكام السلطانية)) وكتاب ((أدب الدنيا والدين)) توفي سنة (450) هجرية .

(2) مناهل العرفان للزرقاني صفحة (234) ج1.

(3) يرد الماوردي بالفقرة الأخيرة على الملاحدة الذين يتمسكون برواية أنس الدالة على الحصر في أن القرآن غير متواتر, ونضيف إلى رد الماوردي عليهم أنه بجانب الحفظ كانت الكتابة كما سيأتي, وانظر الإتقان صفحة 72 ج1.

(4) أبو عبيد: هو القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخزاعي, من أئمة الحديث واللغة, صاحب كتاب ((الأموال)) المشهور, توفي سنة 224 هجرية.

(5) العبادلة الأربعة المشهورين بالإفتاء هم : عبد الله بن عباس, وعبد الله بن عمرو بن العاص, وعبد الله بن عمر, وعبد الله بن الزبير.

(6) انظر الإتقان صفحة 72 ج1.

وذكر الحافظ الذهبي[1] في ((طبقات القراء)) أن هذا العدد من القـراء هـم الذين عرضوه على النبي e , واتصلت بنا أسانيدهم, وأما من جمعه منهم لم يتصل بنا سندهم فكثير .

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن حفظة القرآن في عهد الرسـول eكـانوا جمعاً غفيراً, فإن الاعتماد على الحفظ في النقل من خصائص هذه الأمة و قال ابن الجزري[2] شيخ القراء في عصره : (إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور , لا على خط المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهـذى الأمة) .

(ب) جمع القرآن بمعنى كتابته على عهد الرسول e :

اتخذ رسول الله e كتاباً للوحي من أجلاء الصحابة . كعلي , ومعاويـة , وأبي بن كعب , وزيد بن ثابت , تنزل الآية فيأمرهم بكتابتهـا , ويرشـدهم إلـى موضعها من سورتها , حتى تظاهر الكتابة في السطور , الجمع في الصدور .

كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرن ابتداء من أنفسهم , دون أن يأمرهم النبي e , فيخطونه في العسب , واللحاف , والكزانيف , والرقـاع , والأقتاب , وقطع الأديم , والأكتاف[3] , عن زيد بن ثابت قال : (كنا عند رسـول الله e نؤلف القرآن من الرقاع)[4] .

وهذا يدل على مدى المشقة التي كان يتحملها الصحابة في كتابة القـرآن , حيث لم تتيسر لهم أدوات الكتابة إلا بهذه الوسائل , فأضافوا الكتابة إلى الحفظ .

---

(1) اسمه محمد بن أحمد بن عثمان من كبار المحدثين في القرن الثامن, توفي سنة 748 هجرية.

(2) هو محمد بن محمد الشهير بابن الجزري , صاحب كتاب (النشر في القراءات العشر) توفي سنة 833 هجرية .

(3) العسب : جمع عسيب , وهو جريد النخل , كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطـرف العـريض , واللحاف : جمع لخفة , وهي صفائح الحجارة , والكرانيف : جمع كرنافة , وهي أصول الـسعف الغـلاظ , والرقاع : جمع رقعة , وقد تكون من جلد أو ورق . والأقتاب : جمع قتب , وهو الخشب الذي يوضع علـى ظهر البعير ليركب عليه , والأكتاف : جمع كتف , وهو العظم الذي للبعير أو الشاة , كانوا إذا جف كتبـوا عليه .

(4) أخرجه الحاكم في المستدرك بسند على شرط الشيخين , نؤلف القرآن : أي نجمعه لترتيب آياته .

وكان جبريل يعارض رسول الله e بالقرآن كل سنة في ليالي رمــضان , عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (كان رسول الله e أجود الناس , وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل , وكان يلقاه جبريل في كل ليلة مــن رمضان فيدارسه القرآن , فلرسول الله e حيث يلقاه جبريل أجود بـــالخير مــن الريح المرسلة)[1] .

وكان الصحابة يعرضون على رسول الله e ما لديهم من القــرآن حفظــاً وكتابة كذلك .

ولم تكن هذه الكتابة في عهد النبي e مجتمعة في مصحف عام , بل عنــد هذا ما ليس عند ذاك , وقد نقل العلماء أن نفراً منهم : علي بن أبي طالب , ومعاذ بن جبل , وأبي بن كعب و وزيد بن ثابت و وعبد الله بن مسعود – قــد جمعــوا القرآن كله على عهد رسول الله e , وذكر العلماء أن زيد بن ثابت كان عرضـــه متأخراً عن الجميع .

وقبض رسول الله e والقرآن محفوظ في الصدور , ومكتوب في الصحف نحو ما سبق , مفرق الآيات والسور و أو مرتب الآيات فقط وكــل ســورة فـــي صحيفة على حدة , بالأحرف السبعة الواردة[2] , ولم يجمع في مــصحف عــام , حيث كان الوحي يتنزل تباعاً فيحفظه القراء , ويكتبه الكتبة , ولم تدع الحاجة إلى تدوينه في مصحف واحد , لأنه عليه الصلاة والسلام كان يترقب نزول الوحي من حين لآخر , وقد يكون منه الناسخ لشيء نزل من قبل , وكتابة القرآن لــم يكــن ترتيبها بترتيب النزول بل تكتب الآية بعد نزولها حيث يــشير e إلــى موضـــع كتابتها بين آية كذا وآية كذا في سورة كذا , ولو جمع القرآن كلـــه بــين دفتـــي مصحف واحد لأدى هذا إلى التغيير كلما نزل شيء من الوحي . قال الزركشي : (وإنما لم يكتب في عهد النبي e مصحف لئلا يفضي إلى تغييره في كل وقــت , فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته e) وبهذا يفسر ما روي عن زيد بن ثابت , قال (قبض النبي e ولم يكن القرآن جمع في شيء) أي لــم يكــن

---

(1) متفق عليه .

(2) سيأتي بيان الأحرف السبعة .

جمع مرتب الآيات والسور في مصحف واحد , قال الخطابي : (إنما لم يجمع e القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوتـــه , فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك و وفاء بوعـــده الـــصادق بضمان حفظه على هذه الأمة[1] فكان ابتداء ذلك علـــى يـــد الـــصديق بمـــشورة عمر)[2].

ويسمى هذا الجمع في عهد النبي e (أ) حفظـــاً – (ب) وكتابـــة (الجمـــع الأول) .

2- جمع القرآن عهد أبي بكر رضي الله عنه :

قام أبو بكر بأمر الإسلام بعد رسول الله e , وواجهته أحداث جسام فـــي ارتداد جمهرة العرب , فجهز الجيوش وأوفدها لحروب المرتدين , وكانت غـــزوة أهل اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة تضم عدداً كبيراً مـــن الـــصحابة القـــراء , فاستشهد في هذه الغزوة سبعون قارئاً من الصحابة , فهال ذلك عمر بن الخطاب , ودخل على أبي بكر رضي الله عنه وأشار عليه بجمع القـــرآن وكتابتـــه خـــشية الضياع , فإن القتل قد استحر[3] يوم اليمامة بالقراء – ويخشى أن استحر بهم فـــي المواطن الأخرى ن يضيع القرآن وينسى , فنفر أبو بكر من هذه المقالـــة وكبـــر عليه أن يفعل ما لم يفعله رسول الله e و وظل عمر يراوده حتى شرح الله صدر أبي بكر لهذا ألأمر , ثم أرسل إلى زيد بن ثابت لمكانته في القراءة والكتابة والفهم والعقل , وشهوده العرضة الأخيرة , وقص عليه قول عمر – فنفر زيد من ذلـــك كما نفر أبو بكر من قبل , وتراجعا حتى طابت نفس زيد للكتابة , وبدأ زيـــد بـــن ثابت في مهمته الشاقة معتمداً على الحفوظ في صدور القراء و والمكتوب لـــدى الكتبة , وبقيت تلك الصحف عند أبي بكر , حتى إذا توفي ســـنة ثـــلاث عـــشرة للهجرة صارت بعده إلى عمر , وظلت عنده حتى مات – ثم كانت عنـــد حفـــصة ابنته صدرا من ولاية عثمان حتى طلبها عثمان من حفصة :

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9] .

(2) انظر الإتقان . صفحة (57) ج1 .

(3) استحر : اشتد .

عن زيد بن ثابت قال : (أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة , فإذا عمـر بن الخطاب عنده , فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يـوم اليمامة بقراء القرآن , وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيـذهب كثير من القرآن , وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثيـر من القرآن , وإني أريد أن تأمر بجمع القرآن , فقلت لعمر : كيف نفعل شيئاً لـم يفعله رسول الله e ؟ قل عمر ك هو والله خير , فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك , ورأيت في ذلك الذي رأى عمر – قال زيد : قال أبو بكر : إنـك شاب عاقل لا نتهمك , وقد كنت الوحي لرسول الله e , فتتبع القرآن فاجمعه , فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أقل مما أمرني به من جمع القـرآن , قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله e ؟ قال : هو والله خير , فلم يـزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر , فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال , ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري . لم أجدها مع غيره ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُـولٌ مِّـنْ أَنفُسِكُمْ﴾ حتى خاتمة براءة , فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاة الله , ثم عند عمر حياته , ثم عند حفصة بنت عمر) .

وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبيت , فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة, وقوله في الحديث : (ووجدت التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره) لا ينافي هذا , ولا يعني أنها ليست متواترة , وإنما المراد لنه لم يجدها مكتوبة عند غيره , وكان زيد يحفظها , وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك, لأن زيـداً كان يعتمد على الحفظ والكتابة معاً , فكانت هذه الآية محفوظة عند كثير مـنهم , ويشهدون بأنها كتبت , ولكنها لم توجد مكتوبة إلا عند أبي خزيمة الأنصاري .

أخرج ابن أبي داود[1] من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قـال : (قدم عمر فقال : (من كان تلقى من رسول الله e شيئاً من القرآن فليـأت بـه , وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب , وكان لا يقبل من أحد شـيئاً

---

(1) أخرجه البخاري .

حتى يشهد شهيدان) وهذا يدل على أن زيداً لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً , مع كون زيد كان يحفظ و فكان يفعل ذلك مبالغة من الاحتياط , وأخرج ابن أبي داود أيضا من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد ك اقعدا على باب المسجد فمن جاء كما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه) ورجاله ثقات مع انقطاعه , قال ابن حجر : (وكأن المراد بالشاهدين : الحفظ والكتاب) وقال السخاوي[1] في (جمال القراء) المراد بالشاهدين: الحفظ والكتاب) وقال السخاوي[2] في (جمال القراء) المراد أنهما يشهدان على ن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله e و أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن) قال أبو شامة : (وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي e و لا من مجرد الحفظ, ولذلك قال في آخر سورة التوبة : (لم أجدها مع غيره) أي لم أجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان يكتفي بالحفظ دون الكتابة)[3] .

وقد عرفنا أن القرآن كان مكتوباً من قبل في عهد النبي e , ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعسب . فأمر أبو بكر بجمعه في مصحف واحد مرتب الآيات والسور وأن تكون كتابته غاية من التثبيت مشتملة على الأحرف السبعة النى نزل بها القرآن , فكان أبو بكر رضي الله عنه أول من جمع القرآن بهذه الصفة في مصحف , وإن وجدت مصاحف فردية عند بعض الصحابة , كمصحف علي , ومصحف أبي , ومصحف ابن مسعود , فإنها لك تكن على هذا النحو , ولم تنل حظها من التحري والدقة , والجمع والترتيب , والاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته , والإجماع عليها , بمثل م نال مصحف أبي بكر , فهذه الخصائص تميز بها جمع أبي بكر للقرآن , ويرى بعض العلماء أن تسمية القرآن

---

(1) هو عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني , من كبار حفاظ الحديث . له من الكتب : المصاحف , والمسند , والسنن , والتفسير , والقراءات , والناسخ والمنسوخ – انظر الأعلام للزركلي , صفحة 224 ج4 .

(2) هو علي بن محمد بن عبد الصمد المشهور بالسخاوي , له منظومة في القراءات تعرف بالسخاوية , توفي سنة 643 هجرية .

(3) انظر الإتقان صفحة 58 ج1 .

بالمصحف نشأت منذ ذلك الحين في عهد أبي بكر بهذا الجمع , وعن علي قال : (أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر , رحمة الله على أبي بكر , هو أول من جمع كتاب الله) .

وهذا الجمع هو المسمى بالجمع الثاني .

3- جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه :

اتسعت الفتوحات الإسلامية , وتفرق القراء في الأمصار , وأخذ أهل كل مصر عمن وفد إليهم قراءته , ووجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها , فكانوا إذا ضمهم مجمع أو موطن من مواطن الغزو عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف , وقد يقنع بأنها جميعاً مسندة إلى رسول الله e , ولكن هذا لا يحول دون تسرب الشك للناشئة التي لم تدرك الرسول و فيدور الكلام حول فصيحها وأفصحها , وذلك يؤدي إلى الملاحاة إن استفاض أمره ومردوا عليه , ثم إلى اللجاج والتأثيم و وتلك فتنة لابد لها من علاج.

فلما كانت غزوة (أرمينية) وغزوة (أذربيجان) من أهل العراق , كان فيمن غزاهما (حذيفة بن اليمان) فرأى اختلافاً كثيراً في وجوه القراءة , وبعض ذلك مشوب باللحن , مع إلف كل لقراءته , ووقوفه عندها , ومماراته مخالفة لغيره , وتكفير بعضهم الآخر و حينئذ فزع إلى عثمان رضي الله عنه , وأخبره بما رأى, وكان عثمان قد نمى إليه أن شيئاً من ذلك الخلاف يحدث لمن يقرئون الصبية , فينشأ هؤلاء وبينهم من الاختلاف ما بينهم , فأكبر الصحابة هذا الأمر مخافة أن ينجم عنه التحريف والتبديل , واجمعوا أمرهم أن ينسخوا الصحف الأولى التي كانت عند أبي بكر , ويجمعوا الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد و فأرسل عثمان إلى حفصة , فأرسلت إليه بتلك الصحف , ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصاري , وإلى عبد الله بن الزبير , وسعيد بن العاص , وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين , فأمرهم أ، ينسخوها في المصاحف , وأن يكتب ما اختلف فيه زيد مع رهط القرشيين الثلاثة بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم .

عن أنس (أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان , وكان يغازي أهل الشام في أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق , فأفزع حذيفة اختلافهم في القـراءة , فقـال لعثمان أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى , فأرسل إلى حفصة أن أرسلي غلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك – فأرسـلت بهـا حفصة إلى عثمان – فأمر زيد بن ثابت . وعبد الله بن الزبير , وسعيد بن العاص, وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام , فنسخوها في المـصاحف , وقـال عثمـان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شـيء مـن القـرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم , ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فـي المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة , وارسل إلى كل أفق بمـصحف ممـا نسخوا , وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق , قـال زيد : آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله e يقرأ بها , فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23] فألحناها في سورتها في المصحف)[1] .

ودلت الآثار على أن الاختلاف في وجوه القراءة لم يفزع منه حذيفة بـن اليمان وحده بل شاركه غيره من الصحابة في ذلك , عن ابن جرير قال : (حدثني يعقوب بن إبراهيم , قال : حدثنا ابن علية , قال : حدثنا أيوب , عن أبي قلابـة , قال لما كان في خلافة عثمان , جعل المعلم يعلم قراءة الرجل , والمعلم يعلم قراءة الرجل . فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون , حتى ارتفع ذلك إلى المعلمـين – قـال أيثرب : فلا أعلمه إلا قال – حتى كفر بعضهم بقراء بعض , فبلغ ذلك عثمـان . فقام خطيباً فقال : (أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون , فمن نأى عنـي مـن أهـل الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشد لحناً و اجتمعوا يا أصحاب محمد . فاكتبوا للنـاس إماماً) قال أبو قلابة : فحدثني أنس بن مالك قال : كنت فيمن يملي عليهم , قال : فربما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسـول الله e , ولعلـه أن يكون غائباً في بعض البوادي , فيكتبون ما قبلها وما بعدها , ويدعون موضعها ,

---

(1) رواه البخاري .

حتى يجيء أو يرسل إليه , فلما فرع من المصحف كتب عثمان إلى أهل الأمصار: إني قد صنعت كذا وكذا , ومحوت ما عندي , فامحوا ما عندكم)[1] .

وأخرج ابن أشتة[2] من طريق أيوب عن أبي قلابة مثله , وذكر ابن حجر في الفتح أن ابن أبي داود أخرجه في المصاحف من طريق أبي قلابة .

وعند سويد بن غفلة قال : (قال علي : لا تقولوا في عثمان إلا خيراً , فو الله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا . قال : ما تقولون في هذه القراءة ؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك , وهذا يكاد يكون كفراً , قلنا فما ترى . قال أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف و قلنا : فنعم ما رأيت)[3] .

وهذا يدل على أن ما صنعه عثمان قد أجمع عليه الصحابة , كتبت مصاحف حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن . ليجتمع الناس على قراءة واحدة , ورد عثمان الصحف إلى حفصة و وبعث إلى كل أفق بمصحف من المصاحف . واحتبس بالمدينة واحداً هو مصحفه الذي يسمى الإمام. وتسميته بذلك لما جاء في بعض الروايات السابقة من قوله : (اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً) وأمر أن يحرق ما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف و وتلقت الأمة ذلك بالطاعة , وتركت القراءة بالأحرف الستة الأخرى . وضير في ذلك . فإن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة , ولو أوجب رسول الله **e** على الأمة القراءة بها جميعاً لوجب نقل كل حرف منها نقلا متواتراً تقوم به الحجة . ولكنهم لم يفعلوا ذلك فدل هذا على أن القراءة بها من باب الرخصة . وأن الواجب هو تواتر النقل ببعض هذه الأحرف السبعة . وهذا هو ما كان .

---

(1) انظر الجزء الأول من تفسير الطبري , تحقيق وتخريج الأخوين محمد محمد شاكر وأحمد محمد شاكر طبعة دار المعارف صفحة 61 , 62 .

(2) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن أشتة , من المحققين اثقات , الذين اشتغلوا بعلوم القرآن , توفي سنة 360 هجرية .

(3) أخرجه ابن أبي داود بسند صحيح .

قال ابن جرير فيما فعله عثمان : (وجمعهم على مصحف واحد , وحرف واحد , وخرق ماعدا المصحف الذي جمعهم عليه و وعزم على كل من كان عنده مصحف (مخالف) المصحف الذي جمعهم عليه , أن يحرقه[1] , فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة , ورأت أن فيها فعل ذلك الرشل والهداي , فتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها , طاعة منها له , ونظراً منها لأنسفها ولمن بعدها من سائر أهل ملتها , حتى درست من الأمة معرفتها , ونقضت آثارها و فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها , لدثورها وعفو آثارها وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها , دينها , فلا قراءة للمسلمين اليوم إلا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح , دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية .

فإن قال بعض من ضعفت معرفته . وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله e . وأمرهم بقراءتها ؟

قيل : إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض , وإنما كان أمر إباحة ورخصة لأن القراءة بها لو كانت فرضاً عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة , عند من يقوم بنقله الحجة , ويقطع خبره العذر , ويزيل الشك من قرأه[2] الأمة , وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين , بعد أن يكون في نقلة القرآن من الأمة من تجب بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة .

وإذ كان ذلك كذلك , لم يكن القوم بتركهم نقل جميع القراءات السبع و تاركين ما كان عليهم نقله , بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا , إذ كان الذي فعلوا من ذلك و كان هو النظر للإسلام وأهله , فكان القيام بفعل الواجب

---

(1) انظر هذا النص في تفسير ابن جرير الطبري ج1 صفحة 64, 65, وفي التعليق , قال ابن حجر في الفتح 9: 18 في شرح حديث البخاري : (في رواية الأكثر (أن يخرق) بالخاء المعجمة , وللمروزي بالمهملة , ورواه الأصيلي بالوجهين , والمعجمة أثبت) وخرق الكتاب أو الثوب : شققه ومزقه .

(2) (من قرأه الأمة) القرأة : جمع قارئ .

عليهم , بهم أولى من فعل ما لو فعلوه , كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقرب منهم إلى السلام , من ذلك) .

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان :

يتبين من النصوص إن جمع أبي بكر يختلف عن جمع عثمان في الباعث والكيفية .

فالباعث لدى أبي بكر رضي الله عنه لجمع القرآن خشية من ذهابه بذهاب حملته , حين استحر القتل بالقراء .

والباعث لدى عثمان رضي الله عنه كثرة الاختلاف في وجوه القراءة , حين شاهد هذا الاختلاف في الأمصار وخطأ بعضهم بعضاً .

وجمع أبي بكر للقرآن كان نقلاً لما كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعسب . وجمعاً له في مصحف واحد مرتب الآيات والسور . مقتصراً على ما لم تنسخ تلاوته , مشتملاً على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن .

وجمع عثمان للقرآن كان نسخاً له على حرف واحد من الحروف السبعة , حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد . وحرف واحد يقرءون به دون ما عداه من الأحرف الستة الأخرى . قال ابن التين وغيره : (الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان , أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب جملته , لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد , فجمعه في صحائف و مرتباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي e , وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعضه , فخشي من تفاقم الأمر في ذلك , فنسخ بذلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره , واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش و محتجباً بأنه نزل بلغتهم , وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم رفعاً للحرج والمشقة في ابتداء الأمر , فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت , فاقتصر على لغة واحدة) وقال الحارث المحاسبي : (المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان , وليس كذلك , إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد , على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار , لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام

في حروف القراءات , فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف التي أنزل بها القرآن فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق)[1] .

وبهذا قطع عثمان داير الفتنة , وحسم مادة الخلاف , وحصن القرآن من أن يتطرق إليه شيء من الزيادة والتحريف على مر العصور وتعاقب الأزمان .

وقد اختلف العلماء في عدد المصاحف التي أرسل بها عثمان إلى الآفاق .

(أ) فقيل كان عددها سبعة . أرسلت إلى : مكة , والشام , والبصرة , والكوفة , واليمن , والبحرين , والمدينة : قال ابن أبي داود : سمعت أبا حاتم السجستاني يقول : كتب سبعة مصاحف , فأرسل إلى مكة , والى الشام , وإلى اليمن , وإلى البحرين , وإلى البصرة و وإلى الكوفة , وحبس بالمدينة واحداً .

(ب) وقيل كان عددها أربعة , العراقي , والشامي , والمصري , والمصحف الإمام , أو الكوفي والبصري , والشامي , والمصحف الإمام , قال أبو عمرو الداني في المقنع[2] : (أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعلها أربع نسخ , وبعث إلى كل ناحية واحدة الكوفة والبصرة , والشام , وترك واحداً عنده) .

(ج) وقيل كان عددها خمسة , وذهب السيوطي إلى أن هذا هو المشهور .

أما الصحف التي ردت إلى حفصة فقد ظلت عندها حتى ماتت . ثم غسلت غسلاً[3] وقيل أخذها مروان بن الحكم وأحرقها .

والمصاحف التي كتبها عثمان لا يكاد يوجد منها مصحف واحد اليوم . والذي يروى عن ابن كثير[4] في كتابه (فضائل القرآن) أنه رأى واحداً منها بجامع دمشق بالشام , في رق يظنه من جلود الإبل) ويروى أن هذا المصحف الشامي

---

(1) انظر الإتقان , صفحة 59, 60 ج1 .

(2) هو عثمان بن سعيد , من أئمة القراء , له من الكتب : (التيسير في القراءات السبع) و (المقنع في رسم القرآن) و (المحكم في نقط المصاحف) توفي سنة 444 هجرية .

(3) تفسير الطبري صفحة 61 ج1 .

(4) عماد الدين أبو الفداء , إسماعيل بن عمر بن كثير , صاحب تفسير القرآن , والبداية والنهاية في التاريخ , توفي سنة 774 هجرية .

نقل إلى انجلتره بعد أن ظل في حوزة قياصرة الروس في دار الكتب في لينيجراد فترة , وقيل إنه احترق في مسجد دمشق سنة 1310 هجرية .

وجمع عثمان للقرآن هو المسمى بالجمع الثالث و وكان سنة 25 هجرية .

شبه مردودة

هناك شبه يثيرها أهل الأهواء لتوهين الثقة بالقرآن , والتشكيك في دقة جمعه ونحن نورد أهمها ونرد عليها :

1- قالوا : إن الآثار قد دلت على إن القرآن قد سقط منه شيء لم يكتب في المصاحف التي بأيدينا اليوم :

(أ) عن عائشة قالت : (سمع رسول الله e رجلاً يقرأ في المسجد فقال : يرجمه الله , لقد ذكرني كذا وكذا آية من سورة كذا) وفي رواية (أسقطتهن من آية كذا وكذا) وفي رواية (كنت أنسيتها)[1] .

ويجاب عن هذا بأن تذكير الرسول e بآية أو آيات قد أنسيها أو أسقطها نسياناً لا يشكك في جمع القرآن , فإن الرواية التي جاء فيها التعبير بالإسقاط تفسرها الرواية الأخرى (كنت أنسيتها) وهذا يدل على أن المراد بإسقاطها نسيانها, كما يدل عليه لفظ (أذكرني) والنسيان جائز على رسول الله e فيما لا يخل بالتبليغ , وكانت هذه الآيات قد حفظها رسول الله , واستكتبها كتاب الوحي , وحفظها الصحابة في صدورهم و وبلغ حفظها وكتابتها مبلغ التواتر , فنسيان الرسول e لها بعد ذلك لا يؤثر في دقة جمع القرآن , وهذا هو غاية ما يدل عليه الحديث . ولذا كانت قراءة هذا الرجل – وهو أحد الحفظة الذين يبلغ عددهم حد التواتر – مذكرة لرسول الله e (لقد أذكرني كذا وكذا آية) .

(ب) وقال تعالى في سورة الأعلى ﴿سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاء﴾ [الأعلى: 6 , 7] والاستثناء يدل على أن رسول الله e أنسي بعض الآيات .

ويجاب عن ذلك بأن الله تعالى قد وعد رسوله بإقراء القرآن وحفظه , وأمنه من النسيان في قوله : ﴿ سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى *﴾ ولما كانت الآية توهم لزوم

---

(1) الحديث في الصحيحين بألفاظ متقاربة .

ذلك , والله تعالى فاعل مختار ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبيــاء: 23] جاء الاستثناء ﴿إِلَّا مَا شَاء﴾ للدلالة على أن هذا الإخبار بإقراء الرســول القــرآن وتأمينه من النسيان ليس خارجاً عن إرادته تعالى , فإنه سبحانه لا يعجزه شيء . يقول الشيخ محمد عبده في تفسير الآية : (ولما كان الوعد علــى وجــه التأبيــد واللزوم , ربما يوهم أن قدرة الله لا تتسع غيره , وأن ذلك خارج عن إرادته جــل شأنه جاء بالاستثناء في قوله : ﴿إِلَّا مَا شَاء﴾ فإنه إذا أراد أن ينــسيك شــيئاً لــم يعجزه ذلك , فالقصد هو نفي النسيان رأساً , وقالوا : إن ذلك كما يقــول الرجــل لصاحبه : (أنت سهيمي فيما أملك إلا ما شاء الله) لا يقصد استثناء شيء , وهــو من استعمال القلة في معنى النفي و وعلى ذلك جاء الاستثناء ؛ في قوله تعالى في سورة هود ﴿ # وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَــتِ الــسَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ*﴾[1] أي غير مقطوع و فالاســتثناء في مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد , بكرم من الله وسعة جــوده , لا بتحتيم عليه وإيجاب , وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع .

وما ورد من أنه e نسي شيئاً كان يذكره , فذلك إن صح , فهو في غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التي أمر بتبليغها , وكل ما يقال غير ذلك فهو مــن مدخلات الملحدين , التي جازت على عقول المغفلين , فلوثوا بها ما طهره الله, فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة e ويؤمن بكتاب الله أن يتعلق بشيء مــن ذلك) .

2- وقالوا : إن في القرآن ما ليس منه , واستدلوا على ذلك بما روي من أن ابن مسعود أنكر أن المعوذتين من القرآن .

ويجاب عن ذلك بأن ما نقل عن ابن مسعود رضي الله عنه لم يصح و وهو مخالف لإجماع الأمة , قال النووي في شرح المهذب : (واجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن , وأن من جحد شيئاً منها كفر , وما نقل عن ابــن

(1) سورة هود , الآية : 108 .

مسعود باطل ليس صحيح) وقال ابن حزم : (هــذا كــذب علــى ابــن مــسعود وموضوع) .

وعل فرض صحته , فالذي يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين مــن النبي e فتوقف في أمرهما .

وإنكار ابن مسعود لا ينقض إجماع الأمة على أن المعوذتين مــن القــرآن المتواتر .

ومثل هذا يجاب به على ما قيل من أن مصحف ابن مسعود قد اسقطت منه الفاتحة , فإن الفاتحة هي أم القرآن , ولا تخفى قرانيتها على أحد .

3- ويزعم نفر من غلاة الشيعة أن أبا بكر وعمر وعثمــان حرفــوا القــرآن , وأسقطوا بعض آياته وسوره , فحرفوا لفظ ﴿ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: 92] والأصل (أئمة هي أزكى من أئمتكم) , وأسقطوا من ســورة (الأحــزاب) آيــات فضائل أهل البيت وقد كانت في طولها مثل سورة (الأنعام) , وأســقطوا ســورة الولاية بتمامها من القرآن .

ويجاب عن ذلك بأن هذه الأقوال أباطيل لا سند لهــا , ودعــاوى لا بينــة عليها, والكلام فيها حمق وسفاهة , وقد تبرأ بعض علماء الشيعة من هذا السخف, والمنقول عن علي رضي الله عنه الذي يدعون التشيع له يناقضه , ويــدل علــى انعقاد الإجماع بتواتر القرآن الذي بين دفتي المصحف , فقد أثر عنه أنه قال فــي جمع أبي بكر : (أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر , رحمة الله على أبــي بكر و هو أول من جمع كتاب الله) وقال في جمع عثمان : (يا معشر الناس , اتقوا الله , وإياكم والغلو في عثمان وقولكم : حراق مصاحف و فو الله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب رسول الله e) وقال : : (لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان) .

فهذا الذي أثر عن علي نفسه يقطع ألسنة أولئك المفترين الــذين يزعمــون نصرته فيهرقون بما لا يعرفون تشيعاف له و وهو منهم براء[1] .

---

(1) انظر مناهل العرفان صفحة 464 ج1 .

ترتيب الآيات والسور

ترتيب الآيات :

القرآن سور وآيات منها القصار والطوال , والآية : هي الجملة من كـــلام الله المنذرجة في سورة من القرآن و والسورة : هي الجملة من آيات القرآن ذات المطلع والمقطع . وترتيب الآيات في القرآن الكريم توفيقي عن رســول الله **e** و وحكى بعضهم الإجماع على ذلك : منهم : الزركشي في (البرهان) , وأبو جعفــر ابن الزبير[1] في (مناسباته) إذ يقول : (ترتيب ايت في سورها واقع بتوقيفــه **e** وأمره من غير خلاف بين المسلمين) وجزم السيوطي بـــذلك فقـــال : (الأجمـــاع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك) فقــد كـــان جبريل يتنزل بالآيات على رسول الله **e** . ويرشده إلى موضعها من الـــسورة أو الآيات التي نزلت قبل , فيأمر الرسول كتبة الوحي بكتابتها في موضعها ويقـــول لهم : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا أو كذا , أو ضعوا آية كذا في موضع كذا , كما بلغها أصحابه كذلك , عن عثمان بن أبي العاص قال : (كنت جالساً عند رسول الله **e** إذ شخص ببصره ثم صوبه , ثم قال : أتـــاني جبريـــل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة ﴿ **#** إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: 90] إلى آخرها)[2] .

ووقف عثمان في جمع القرآن عند موضع كل آية من سورتها في القرآن , ولو كانت منسوخة الحكم , لا يغيرها . وهذا يدل على أن كتابتها بهـــذا الترتيـــب

---

(1) هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي , كان من النحاة الحفاظ , توفي سنة 807 هجرية .

(2) أخرجه أحمد بإسناد حسن .

توقيفية , عن ابن الزبير قال : (قلت لعثمان : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: 234] قد نسختها الآية الأخرى , فلم تكتبها أو تدعها ؟[1] قال : (يا ابن أخي , لا أغير شيئاً من مكانه)[2] .

وجاءت الأحاديث الدالة على فضل آيات من سور بعينها , ويستلزم هذا أن يكون ترتيبها توقيفياً . إذ لو جاز تغييرها لما صدقت عليها الأحاديث , عن أبي الدرداء مرفوعاً : (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال) وفي لفظ (من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف)[3] كما جاءت الأحاديث الدالة على آية بعينها في موضعها , عن عمر قال : (ما سألت النبي **e** عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة و حتى طعن بإصبعه في صدري وقال : تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء)[4] .

وثبتت قراءة رسول الله **e** لسور عديدة بترتيب آياتها في الصلاة , أو في خطبة الجمعة , كسورة البقرة وآل عمران والنساء و وصح أنه قرأ (الأعراف في المغرب و وأنه كان يقرأ في صبح الجمعة : (ألم تنزيل الكتاب لا ريب فيه) (السجدة) و (هل اتى على الإنسان) (الدهر) وكان يقرأ سورة (ق) في الخطبة , ويقرأ (الجمعة) و (المنافقون) في صلاة الجمعة .

وكان جبريل يعارض رسول الله **e** بالقرآن كل عام مرة في رمضان , وعارضه في العام الأخير من حياته مرتين , وكان ذلك العرض على الترتيب المعروف الآن .

وبهذا يكون ترتيب آيات القرآن كما هو في المصحف المتداول في أيدينا توقيفياً , لا مراء في ذلك , قال السيوطي بعد أن ذكر أحاديث السور المخصوصة (تدل قراءته **e** لها بمشهد من الصحابة على أن ترتيب آياتها توقيفي وما كان

---

(1) أي لماذا تثبيت بالكتابة أو تتركها مكتوبة وأنت تعلم أنها منسوخة ؟

(2) أخرجه البخاري .

(3) رواه مسلم .

(4) رواه مسلم .

الصحابة ليرتبوا ترتيباً سمعوا النبي e يقرأ علــى خلافــه , فبلــغ ذلــك مبلــغ التواتر)[1] .

ترتيب السور :

اختلف العلماء في ترتيب السور :

(أ) فقيل : إنه توقيفي , تولاه النبي e كما أخبر به جبريل عن أمر ربه و فكان القرآن على عهد النبي e مرتب السور , كما كان مرتب الآيات على هــذا الترتيب الذي لدينا اليوم , وهو ترتيب مصحف عثمان الذي لم يتنازع أحــد مــن الصحابة فيه مما يدل على عدم المخالفة والإجماع عليه .

ويؤيد هذا الرأي : أن رسول الله e قرأ بعض السور مرتبة في صلاته , روى ابن أبي شيبة : أنه عليه الصلاة والسلام كان يجمع المفصل فــي ركعــة) وروى البخاري عن ابن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومــريم وطــه الأنبياء : ‘نهن من العتاق الأول , وهن من تلادي) فذكرها نــسقاً كمــا اســتقر ترتيبها.

وروى من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : (ســمعت ربيعــة يسال : لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة مكيــة , وإنما أنزلتا بالمدينة ؟ فقال : قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه به و ثم قال : فهذا مما ينتهي إليه ولا يسأل عنه)[2] .

وقال ابن الحصار : (ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنمــا كــان بالوحي كان رسول الله e يقول : ضعوا آية كذا في موضع كذا , وقــد حــصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رســول الله e , وممــا أجمــع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف)[3] .

(ب) وقيل إن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة بدليل اختلاف مصاحفهم الترتيب .

---

(1) انظر الإتقان صفحة 61 ج1 .

(2) أخرجه ابن أشته في كتاب (المصاحف) والمراد بالتأليف : الجمع .

(3) انظر الإتقان , صفحة 62 ج1 .

فمصحف (علي) كان مرتباً على النزول , أوله اقرأ , ثم المدثر , ثـــم ن , والقلم , ثم المزمل وهكذا ! إلى آخر المكي المدني .

وكان أول مصحف ابن مسعود , البقرة ثم النساء و ثم آل عمران .

وأول مصحف بي , الفاتحة , ثم البقرة , ثم النساء , ثم آل عمران .

وقد روى ابن عباس قال : (قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمـــدتم إلـــى الأنفال وهي من المثاني , والى براءة وهي من المئين , فقرنتم بينهما . ولم تكتبوا بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ووضعتموها في السبع الطوال , فقال : كان رسول الله e تنزل عليه السور ذوات العدد , فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي فيها كذا وكذا , وكانت الأنفال من أوائل ما نل بالمدينة , وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً , وكانت قـــصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها , فقبض رسول الله e ولم يبين لنا أنها منها , فمن أجل ذلك قرنت بينهما , ولم اكتب بينهما ســـطر (بـــسم الله الـــرحمن الـــرحيم) ووضعتها في السبع الطوال)[1] .

(ج) وقيل إن بعض السور ترتيبه توقيفي وبعضها باجتهاد الصحابة حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور في عهد النبوة . فقد ورد مـــا يـــدل علـــى ترتيب السبع الطوال والحواميم والمفصل في حياته عليه الصلاة والسلام .

روي أن رسول الله e قال : (اقرءوا الزهراوين : البقرة وآل عمران)[2] .

وروي (أنه كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما , فقرأ (قل هو الله أحد) و (المعوذتين)[3] .

وقال ابن حجر : (ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفياً) واستدل على ذلك بحديث حذيفة الثقفي حيث جاء فيـــه (فقـــال لنـــا رسول الله e : طرأ على حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتـــى أقـــضيه , فسألنا أصحاب رسول الله e قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثـــلاث

---

(1) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم .

(2) رواه مسلم .

(3) رواه البخاري .

سور , وخمس سور و وسبع سور , وتسع سور , وإحدى عشرة , وثلاث عشرة, وحزب المفصل من (ق) حتى نختم)[1] قال ابن حجر : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله e , قال : ويحتمل أن الذي كان مرتباً حينئذ حزب المفصل خاصة بخلاف ما عداه) .

وإذا ناقشنا هذه الآراء الثلاثة يتبين لنا ك

أن الرأي الثاني يرى أن ترتيب السور باجتهاد الصحابة لم يستند على دليل يعتمد عليه .

فاجتهاد بعض الصحابة في ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختياراً منهم قبل أن يجمع القرآن جمعاً مرتباً , فلما جمع في عهد عثمان بترتيب الآيات والسور على حرف واحد واجتمعت الأمة على ذلك تركوا مصاحفهم , ولو كان الترتيب اجتهادياً لتمسكوا بها .

وحديث سورتي : الأنفال والتوبة الذي روي عن ابن عباس يدور إسناده في كل رواياته على (يزيد الفارسي) الذي يذكره البخاري في الضعفاء , وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور . كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه . ولذا قال فيه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه بمسند الإمام أحمد : إنه حديث لا اصل له) .

وغاية ما فيه أنه يدل على عدن الترتيب بين هاتين السورتين فقط[2] .

أما الرأي الثالث الذي يرى أن بعض السور ترتيبها توقيفي , وبعضها ترتيبه اجتهادي . فإن أدلته ترتكز على ذكر النصوص الدالة على ما هو توقيفي . أما القسم الاجتهادي فإنه لا يستند إلى دليل يدل على أن ترتيبه اجتهادي . إذ أن ثبوت التوقيفي بادلته لا يعني أن ما سواه اجتهادي . مع أنه قليل جداً .

وبهذا يترجح أن ترتيب السور توقيفي كترتيب الآيات و قال أبو بكر بن الأنباري : (أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا , ثم فرقه في بضع وعشرين ,

---

(1) أخرجه أحمد وأبو داود . وانظر الإتقان صفحة 63 ج1 .

(2) وحكي أن البسملة ثابتة لبراءة في مصحف ابن مسعود , وفي المستدرك للحاكم أن علي بن أبي طال سئل : (لم لمْ تكتب في براءة (بسم الله الرحمن الرحيم) ؟ قال : لأنها أمان , وبراءة نزلت بالسيف) .

فكانت السورة تنزل مر يحدث و والآية جواباً لسمتخبر و ويوقف جبريل النبي e على موضع الآية والسورة , فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كلـه عـن النبي e . فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن) وقـال كرمـاني فـي (البرهان) ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ عل هذا الترتيـب , وعليه كان e يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه . وعرضـه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين . وكان آخر الآيات نزولاً ﴿{وَاتَّقُـواْ يَوْمًـا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ﴾ [البقرة: 281] فأمره جبريل أن يعضها بين آيتـي الربـا والدين)[1] .

ومال السيوطي إلى ما ذهب إليه البيهقي قال : (كان القرآن على عهد النبي e مرتباً سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان) .

سور القرآن وآياته

سور القرآن أقسام أربعة : -1- والمئين -3- والمثاني -4- والمفصل . نوجز أرجح الآراء فيها .

1- فالطوال : سبع : البقرة , وآل عمران , والنساء , والمائدة , والأنعام, والأعراف , والسابعة , قيل : هي الأنفال وبراءة معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة وقيل ! هي يونس .

2- والمئون : التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها .

3- والمثاني : هي التي تليها في عدد الآيات , سميت بـذلك لأنهـا فـي القراءة وتكرر أكثر من الطوال والمئين .

4- والمفصل : قيل : من أول سورة (ق) وقيل : مـن أول (الحجـرات) وقيل : غير ذلك – وأقسامه ثلاثة – طواله , وأوساطه , وقصاره .

فطواله : من (ق) أو (الحجرات) إلى (عم) أو (البروج) وأوساطه : مـن (عم) أو (البروج) إلى (الضحى) أو إلى (لم يكن) وقصاره : من (الضحى) أو (لم يكن) إلى آخر القرآن . على خلاف في ذلك .

---

(1) انظر الإتقان صفحة 62 ج1 .

وتسميته بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة .

وتعداد السور ؛ مائة وأربع عشرة سورة و وقيل : وثلاث عـشرة بجعـل الأنفال وبراءة سورة واحدة .

أما تعداد الآيات فستة آلاف ومائتا آية , واختلفوا فيما زاد عن ذلك .

واطول الآيات آية الدين , وأطول السور سورة البقرة .

وهذه التجزئة تيسر على الناس الحفظ , وتحملهم على الدراسة , وتـشعر القارئ لسورة من السور بأنه قد أخذ قسطاً وافياً وطائفة مستقلة من أصول دينـه وأحكام شريعته .

الرسم العثماني

سبق الحديث عن جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه . وقد اتبـع زيد بن ثابت والثلاثة القرشيون معه طريقة خاصة في الكتابة ارتضاها لهم عثمان, ويسمي العلماء هذه الطريقة (بالرسم العثماني للمصحف) نسبة إليـه و واختلـف العلماء في حكمه .

1- فذهب بعضهم إلى أن هذا الرسم العثماني للقرآن توقيفي يجب الأخذ به في كتابة القرآن وبالغوا في تقديسه , ونسبوا التوقيف فيه إلى النبي **e** , فذكروا انه قال لمعاوية : أحد كتبة الوحي : (ألق الدواة , وحرف القلم و وانصب الياء , وفرق السين , ولا تعور الميم , وحسن الله , ومد الرحمن و وجود الرحيم , وضع قلمك على أذنك اليسرى , فإنه أذكر لك) ونقل ابن المبارك عن شيخه عبد العزيز الدباغ أنه قال له : ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شـعرة واحـدة , وإنما هو توقيف من النبي وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدي إليها العقول , وهو سر من الأسرار خـص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية . وكما أن نظم القرىن معجز فرسمه أيضا معجز) .

والتمسوا لذلك الرسم أسراراً تجعل للرسم العثماني دلالة على معان خفيـة دقيقة . كزيادة (الياء و في كتابة كلمة (أيد) من قوله تعالى : ﴿وَالـسَّمَاء بَنَيْنَاهَـا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: 47] إذ كتبت هكذا (بأييد) وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التـي

بنى بها السماء . وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة , وهي : زيـــادة المبنى تدل على زيادة المعنى[1] .

وهذا الرأي لم يرد فيه شيء عن رسول الله e حتى يكون الرسم توقيفياً , وإنما اصطلح الكتبة على هذا الرسم في زمن عثمان برضا منـــه , وجعـــل لهـــم ضابطاً لذلك بقوله للرهط القرشيين الثلاثة : (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابـــت فـــي شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش , فإنه إنما نزل بلسانهم) وحين اختلفوا فـــي كتابة (التابوت) وترافعوا إلى عثمان قال : (اكتبوا (التابوت) فإنما أنـــزل القـــرآن على لسان قريش) .

2- وذهب كثير من العلماء إلى أن الرسم العثماني ليس توقيفياً عن النبـــي e , ولكنه اصطلاح ارتضاه عثمان , وتلقته الأمة بالقبول , فيجب التزامه والأخذ به , ولا تجوز مخالفته . قال أشهب : (سئل مالك : هل يكتب المصحف على مـــا أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا , إلا على الكتبة الأولى) رواه أبـــو عمـــرو الداني في (المقنع) ثم قال : (ولا مخالف له من علماء الأمة) وقال فـــي موضـــع آخر: سئل مالك عن الحروف في القرآن مثل الواو والألف , أترى أن تغير مـــن المصحف إذا وجدا فيه كذلك ؟ قال : لا , قال أبو عمرو : يعني الـــواو والألـــف المزيدتين في الرسم المعدومتين في اللفظ نحو (أولوا) وقال الإمام أحمد : (تحـــرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك)[2] .

3- وذهب جماعة إلى أن الرسم العثماني اصـــطلاحي , ولا مـــانع مـــن مخالفته ! إذا اصطلح الناس على رسم خاص للإملاء واصبح شائعاً بينهم . قـــال القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه (الانتصار) وأما الكتابة فلم يفرض الله علـــى الأمة فيها شيئاً . إن لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رســـماً بعينـــه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه , إذ وجوب ذلك لا يـــدرك إلـــى بالـــسمع والتوقيف , وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القـــرآن وضـــبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه , ولا في نص السنة

---

(1) انظر مناهل العرفان للزرقاني صفحة 370 وما بعدها ج1 .

(2) انزر الإتقان , صفحة 167 ج2 والبرهان للزركشي صفحة 379 ج1 .

ما يوجب ذلك ويدل عليه و ولا في جماع الأمة ما يوجب ذلك و ولا دلت عليه القياسات الشرعية , بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل , لأن رسول الله e كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً ولا نهى أحداً عن كتابته . ولذلك اختلفت خطوط المصاحف , فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ , ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح و وان الناس لا يخفى عليهم الحال, ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول و وأن يجعل الكلام على صورة الكاف , وأن تعوض الألفات , وأن يكتب على غير هذه الوجوه , وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين , وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة و وجاز أن يكتب بين ذلك , وإذا كانت خطوط المصحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة , وكان الناس قد أجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته , وما هو أسهل وأشهر وأولى . من غير تأثيم ولا تناكر , علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حد محدود مخصوص , كما أخذ عليهم في القراءة, والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز . فكل رسم دال على الكلمة مقيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أية صورة كانت .. وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه , وأنى له ذلك) .

وانطلاقاً من هذا الرأي يدعو بعض الناس اليوم إلى كتابة القرآن الكريم وفق القواعد الإملائية الشائعة المصطلح عليها , حتى تسهل قراءته على القارئين من الطلاب والدارسين , ولا يشعر الطالب أثناء قراءته للقرآن باختلاف رسمه عن الرسم الإملائي الاصطلاحي الذي يدرسه .

والذي أراه أن الرأي الثاني هو الرأي الراجح , وأنه يجب كتابة القرآن بالرسم العثماني المعهود في المصحف .

فهو الرسم الاصطلاحي الذي توارثته الأمة منذ عهد عثمان رضي الله عنه, والحفاظ عليه ضمان قوي لصيانة القرآن من التغيير والتديل في حروفه , ولو أبيحت كتابته بالاصطلاح الإملائي لكل عصر لأدى هذا إلى تغيير خط المصحف

من عصر لآخر , بل إن قواعد الإملاء نفسها تختلف فيها وجهات النظر في العصر الواحد , وتتفاوت في بعض الكلمات من بلد لآخر .

واختلاف الخطوط الذي يذكره القاضي أبو بكر الباقلاني شيء والرسم الإملائي شيء آخر , فاختلاف الخط تغير في صورة الحرف لا في رسم الكلمة .

وحجة تيسير القراءة على الطلاب والدارسين بانتفاء التعارض بين رسم القرآن والرسم الإملائي الاصطلاحي لا تكون مبرراً للتغيير الذي يؤدي إلى التهاون في تحري لدقة بكتابة القرآن .

والذي يعتاد القراءة في المصحف يألف ذلك ويفهم الفوارق الإملائية بالإشارات الموضوعة على الكلمات , والذين يمارسون هذا في الحياة التعليمية أو مع أبنائهم يدركون إن الصعوبة التي توجد في القراءة بالمصحف أول الأمر تتحول بالمران بعد فترة قصيرة إلى سهولة تامة .

قال بيهقي في شعب الإيمان : (من يكتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف , ولا يخالفهم فيه , ولا يغير مما كتبوه شيئاً, فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً , وأعظم أمانة منا , فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم)[1] .

تحسين الرسم العثماني

كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط والشكل و واعتماداً على السليقة العربية السليمة التي لا تحتاج إلى الشكل بالحركات ولا إلى الإعجام بالنقط و فلما تطرق إلى اللسان العربي الفساد بكثرة الاختلاط أحس أولوا الأمر بضرورة تحسين كتابة المصحف بالشكل والنقط وغيرهما مما يساعد على القراءة الصحيحة.

واختلف العلماء في أول جهد بذل في ذلك السبيل .

فيرى كثير منهم أن أول من فعل ذلك أبو الأسود الدؤلي الذي ينسب إليه وضع ضوابط للعربية بأمر علي بن أبي طالب , ويروى في ذلك أنه سمع قارئاً

(1) انظر الإتقان صفحة 167 ج2 .

يقرأ قوله تعالى : ﴿أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: 3] فقرأها بجر اللام من كلمة 0رسوله) فأفزع هذا اللحن أبا الأسود وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله , ثم ذهب إلى زياد والي البصرة وقال له ك قد أجبتك إلى ما سألت و وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله , فتباطأ في الجواب حتى راعه هذا الحادث , وهنا جد جده , وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف , وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله , وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف , وجعل علامة السكون نقطتين .

ويذكر السيوطي في الإتقان أن أبا الأسود الدؤلي أول من فعل ذلك بأمر عبد الملك بن مروان لا بأمر زياد , حيث ظل الناس يقرؤون في مصحف عثمان بضعاً واربعين سنة . حتى خلافة عبد الملك حين كثرت التصحيفات وانتشرت في العراق ففكر الولاة في النقط والتشكيل .

وهناك روايات أخرى تنسب هذا الفعل إلى آخرين : منهم : الحسن البصري و ويحيى بن يعمر , ونصر بن عاصم الليثي , وأبو الأسود الدؤلي هو الذي اشتهر عنه ذلك و وربما كان للآخرين المذكورين جهود أخرى بذلت في تحسين الرسم وتيسيره .

وقد تدرج تحسين رسم المصحف و فكان الشكل في الصدر الأول نقطاً , فالفتحة نقطة على أول الحرف , والضمة على آخره , والكسرة تحت أوله .

ثم تكان الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف و وهو الذي أخرجه الخليل , فالفتح شكلة مستطيلة فوق الحرف , والكسر كذلك تحته , والضم واو صغرى فوقه , والتنوين زيادة مثلها و وتكتب الألف المحذوفة والمبدل منها في محلها حمراء , والهمزة المحذوفة تكتب همزة بلا حرف حمراء أيضاً و وعلى النون والتنوين قبل الباء علامة الإقلاب حمراء , وقبل الحلق سكون و وتعرى عند الإدغام والإخفاء , ويسكن كل مسكن , ويعرى المدغم ويشدد ما بعده إلا الطاء قبل التاء فيكتب عليها السكون نحو (فرطت)[1] .

---

(1) انظر الإتقان صفحة 171 ج2 .

ثم كان القرن الثالث الهجري فجاد رسم المصحف وتحسن , وتنافس الناس في اختيار الخطوط الجميلة وابتكر العلامات المميزة و فجعلوا للحرف المشدد علامة كالقوس , ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها . على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة .

ثم تدرج الناس بعد ذلك في وضع أسماء السور وعدد الآيات , والرموز التي تشير إلى رؤوس الآي و وعلامات الوقف اللازم (م) والممنوع (لا) والجائز جوازاً مستوي الطرفين 0ج) والجائز مع كون الوصل أولى (صلى) والجائز مع كون الوقف أولى (قلى) وتعانق الوقف بحيث إذا وقف على أحد الموضعين لا يصح الوقف على الآخر (...) والتجزئة والتحزيب و إلى غير ذلك من وجوه التحسين .

وكان العلماء في بداية الأمر يكرهون ذلك خوفاً من وقوع زيادة في القرآن مستندين إلى قول ابن مسعود : (جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء) ويفرق بعضهم بين النقط الجائز . والأعشار والفواتح التي لا تجوز . قال الحليمي : (تكره كتابة الأعشار والأخماس , وأسماء السور وعدد الآيات فيه لقول ابن مسعود : (جردوا القرآن) وأما النقط فيجوز , لأنه ليس له صورة فيتوهم لأجلها ما ليس بقرآن قرأنا. وإنما هي دلالات على هيئة المقروء فلا يضر إثباتها لمن يحتاج إليها) .

ثم انتهى الأمر في ذلك إلى الإباحة والاستحباب و أخرج ابن أبي داود عن الحسن وابن سيرين أنهما قالا : (لا بأس بنقط المصاحف) وأخرج عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن : أنه قال : (لا بأس بشكله) وقال النووي : (نقط المصحف وشكله مستحب لأنه صيانة له من اللحن والتحريف)[1] .

وصلت العناية بتحسين رسم المصحف اليوم ذروتها في الخط العربي .

الفواصل ورؤوس الآي

---

(1) انظر الإتقان و صفحة 171 ج2 .

تميز القرآن الكريم بمنهج فريد في فواصله ورؤوس آياته , ونعني بالفاصلة : الكلام المنفصل مما بعده , وقد يكون رأس آية وقد لا يكون , وتقع الفاصلة عند نهاية المنقطع الخطابي , سميت بذلك لأن الكلام ينفصل عندها .

ونعني برأس الآية نهايتها التي توضع بعدها علامة الفصل بين آية وآية و ولهذا قالوا[1] : (كل رأس آية فاصلة , وليس كل فاصلة رأس آية , فالفاصلة نعم النوعين و وتجمع الضربين9 , لأن رأس كل آية يفصل بينها وبين ما بعدها .

ومثل هذا قد يسمى في كلام الناس سجعاً على النحو المعروف في علم البديع و ولكن كثيراً من العلماء[2] لا يطلق هذا الوصف على القرآن الكريم سموا به عن كلام الأدباء و وعبارات الأنبياء , وأسلوب البلغاء , وفرقوا بين الفواصل والسجع , بأن الفواصل في القرآن : هي التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة لذاتها .

أما السجع : فهو الذي يقصد في نفسه ثم يحيها المعنى عليه , لأنه : موالاة الكلام على وزن واحد . ورد القاضي أبو بكر الباقلاني على من أثبت السجع في القرآن فقال : 0وهذا الذي يزعمونه غير صحيح و ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم , ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز و ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز , وكيف ؟ والسجع مما كانت كهان العرب تألفه و ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر , لأن الكهانة تخالف النبوات بخلاف الشعر . وما توهموا أنه سجع باطل[3] . لأن مجيئه على صورته لا يقتضي كونه هو , لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي بالسجع , وليس كذلك ما اتفق مما هو في معنى

---

(1) انظر (البرهان) للزركشي صفحة 53 ج1 .

(2) على رأس هؤلاء (الرماني) في كتاب (إعجاز القرآن) والقاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب (إعجاز القرآن) كذلك .

(3) أقوى ما استدل به الذين يثبتون السجع في القرين أن موسى أفضل من هارون و ولما كان السجع بالألف اللينة . قيل في موضع ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طـه: 70] ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: 48] وأجيب بأن التقديم والتأخير لإعادة القصة الواحد بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً وليس للسجع .

السجع من القرآن , لأن اللفظ وقع فيه تابعاً للمعنى , وفرق بين أن ينتظم الكـــلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه , وبين إن يكون المعنى منتظمــاً دون اللفظ)[1] .

والذي أراه أنه إذا كان المراد بالسجع مراعاة موالاة الكلام على وزن واحد دون مراعاة المعنى فإن هذا تكلف ممقوت في كلام الناس تكلف فهذا ضرب مــن ضروب البلاغة , قد يأتي في القرآن كما يأتي في غيره . وإذا سمينا هــذا فــي القرآن بالفواصل دون السجع فذلك لتلافي إطلاق السجع على القــرآن بــالمعنى الأول .

والفواصل في القرآن الكريم أنواع :

(أ) فمنها الفواصل المتماثلة كقوله تعالى : ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ*﴾ [الطور: 1-4] وقوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ*﴾ [الفجر: 1-4] وقوله تعالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَــوَارِ الْكُــنَّسِ * وَاللَّيْــلِ إِذَا عَــسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ*﴾ [التكوير: 15-18] .

(ب) ومنها الفواصل المتقاربة في الحروف , كقوله تعالى : ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 3-4] للتقارب بين الميم والنون فــي المقطــع , وقوله : ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنــذِرٌ مِّــنْهُمْ فَقَــالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ*﴾ [ق: 1-2] بتقارب مقطعي الدال والباء[2] .

(ج) ومنها المتوازي : وهو إن تتفق الكلمتان في الوزن وحروف السجع , كقوله تعالى : ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ*﴾ [الغاشية: 13-14] .

(د) ومنها المتوازن , وهو أن يراعى في مقاطع الكلام الوزن فقــط , كقولــه تعالى : ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ*﴾ [الغاشية: 15-16] .

وقد يراعى في الفواصل زيادة حرف كقوله تعــالى : ﴿وَتَظُنُّــونَ بِاللَّــهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: 10] بإلحاق ألف , لأن مقاطع فواصل هذه الــسورة ألفــات

---

(1) 0البرهان) للزركشي صفحة 58 ج1 .

(2) هذا لا يسمى سجعاً عند القائلين بإطلاق السجع في القرآن و لأن السجع ما تماثلت حروفه .

متقلبة عن تنوين في الوقف و فزيد على النون ألف لتساوي المقـاطع . وتناسـب نهايات الفواصل ؛ أو حذف حرف , كقوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ *﴾ [الفجـر: 4] بحذف الياء , لأن مقاطع الفواصل السابقة واللاحقة بالراء , أو تأخير ما حقـه التقديم لنكتة بلاغية أخرى كتشويق النفس إلى الفاعل في قوله تعالى : ﴿فَـأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾ [طـه: 67] لأن الأصل في الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول و لكن أخر الفاعل هنا وهو (موسى) للنكتة البلاغية السابقة على رعاية الفاصلة .

نزول القرآن على سبعة أحرف

لقد كان للعرب لهجات شتى تنبع من طبيعة قطرتهم في جرسها وأصواتها وحروفها تعرضت لها كتب الأدب بالبيان والمقارنة , فكل قبيلة لها من اللحن في كثير من الكلمات ما ليس للآخرين , إلا أن قريشاً من بين العرب قد تهيأت لهـا عوامل جعلت للغتها الصدارة بين فروع العربية الأخرى من جوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام والإشراف على التجارة , فأنزلها العرب جميعاً لهذه الخصائص وغيرها منزلة الأب للغاتهم , فكان طبيعياً أن يتنزل القرآن بلغة قريش على الرسول القرشي تأليفاً للعرب وتحقيقاً لإعجاز القرآن حين يسقط في أيديهم أن يأتوا بمثله أو بسورة منه .

وإذا كان العرب تتفاوت لهجاتهم في المعنى الواحد بوجه من وجوه التفاوت فالقرآن الذي أوحى الله به لرسوله محمد **e** يكمل له معنـى الإعجـاز إذا كـان مستجمعاً لحروفه وأوجه قراءته للخالص منها و وذلك مما ييسر علـيهم القـراءة والحفظ والفهم .

ونصوص السنة قد تواترت بأحاديث نزول القرآن على سـبعة أحـرف . ومن ذلك :

عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال : (قال رسول الله e : أقرأني جبريل على حرف فراجعته , فلم أزل استزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف)[1] .

وعن أبي بن كعب : (أن النبي e كان عند أضاة[2] بني غفار , قال : فأتاه جبريل فقال : إن الله يأمرك إن تقرئ أمتك القرآن على حرف . فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته , وأن أمتي لا تطيق ذلك , ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين – فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته و وان أمتي لا تطيق ذلك , ثم جاء الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف , فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته , وأن أمتي لا تطيق ذلك , ثم جاء الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف , فأنما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا)[3] .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله e , فاستمعت لقراءته , فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله e , فكدت أساوره في الصلاة , فانتظرته حتى سلم , ثم لببته بردائه فقلت : من اقراك هذه السورة ؟ قال : أقرأنيها رسول الله e . قلت له : كذبت , فو الله إن رسول الله e أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها , فانطلقت أقوده إلى رسول الله , فقلت : يا رسول الله , إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها , وأنت أقرأتني سورة الفرقان , فقال رسول الله e : ارسله يا عمر , اقرأ يا هشام , فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها , فقال رسول الله e : هكذا أنزلت , ثم قال رسول الله e : اقرأ يا عمر , فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله e , فقال رسول الله e :

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

(2) الأضاة : الغدير .

(3) رواه مسلم .

هكذا أنزلت , ثم قال رسول الله e : إن هذا القرآن أنزل على سـبعة أحـرف , فاقرأوا ما تيسر منها)[1] .

والأحاديث في ذلك مستفيضة استقرأ معظمها ابن جرير في مقدمة تفسيره , وذكر السيوطي أنها رويت عن واحد وعشرين صحابياً , وقد نص ابو عبيد القاسم بن سلام على تواتر حديث نزول القرآن على سبعة أحرف[2] .

واختلف العلماء في تفسير هذه الأحرف اختلافاً كثيراً . حتى قال ابن حيان: (اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً[3] وأكثر هذه الآراء متداخل , ونحن نورد هنا ما هو ذو بال منها :

(أ) ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات العرب في المعنى الواحد , على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب في التعبير عن معنى من المعاني يأتي القرآن منزلاً بألفاظ على قدر هذه اللغات لهذا المعنى الواحد , وحيث لا يكون هناك اختلاف فإنه يأتي بلفظ واحد أو أكثر .

واختلفوا في تحديد اللغات السبع .

فقيل : هي لغات : قريش , وهذيل , وثقيف , وهوازن , وكنانة , وتمـيم , واليمن .

وقال أبو حاتم السجستاني : نزل بلغة قريش , وهذيل , وتمـيم , والأزد , وربيعة , وهوازن , وسعد بن بكر .

وروي غير ذلك[4] .

0ب) وقال قوم : إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العـرب نزل عليها القرآن , على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماته عن سبع لغـات هي أفصح لغاتهم , فاكثره بلغة قريش . ومنه ما هو بلغة هذيل , أو ثقيـف , أو

---

(1) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وأحمد وابن جرير .

(2) انظر الإتقان و صفحة 41 ج1 .

(3) وقال السيوطي : اختلف في معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولاً , صفحة 45 ج1 .

(4) انظر الإتقان , صفحة 47 ج1 .

هوازن , أو كنانة , أو تميم , أو اليمن . فهو يشتمل في مجموعة علـــى اللغـــات السبع .

وهذا الرأي يختلف عن سابقه . لأنه يعني أن الأحرف السبعة إنمـــا هـــي أحرف سبعة متفرقة في سور القرآن , لا أنه لغا مختلفة في كلمة واحدة باتفـــاق المعاني .

قال أبو عبيد : (ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات , بل اللغات السبع مفرقة فيه , فبضعه بلغة قريش , وبعضه بلغة هذيل , وبعضه بلغة هوازن, وبعضه بلغة اليمن . وغيرهم , قال : وبعض اللغات أسعد به من بعـــض وأكثـــر نصيباً)[1] .

(ج) وذكر بعضهم أن المراد بالأحرف السبعة أوجه سبعة : من الأمـــر , والنهي , والموعد , والوعيد , والجدل و والقصص , والمثل . أو من : الأمـــر , والنهي , والحلال , والحرام . والمحكم , والمتشابه و والأمثال :

عن ابن مسعود عن النبي e قال : (كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد و وعلى حرف واحد , ونزل القرآن من سبعة أبواب , على سبعة أحرف زجر , وأمر , وحلال , وحرام , ومحكم , ومتشابه , وأمثال)[2] .

(د) وذهب جماعة إلى أن المراد بالأحرف السبعة , وجوه التغاير الـــسبعة التي يقع فيها الاختلاف : وهي :

1- اختلاف الأسماء بالإفراد والتذكير وفروعهـــا : (التثنيـــة , والجمـــع , والتأنيث) كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنـــون: 8] قرئ (لأماناتهم) بالجمع , وقرئ (لأمانتهم) بالأفراد . ورســـمها فـــي المـــصحف (لأمنتهم) يحتمل القراءتين , لخلوها من الألف الساكنة , ومآل الوجهين في المعنى واحد , فيراد الجمع الاستغراق الدال على الجنسية , ويراد بالإفراد الجنس الـــدال على معنى الكثرة , أي جنس الأمانة , وتحت هذا جزئيات كثيرة .

---

(1) الإتقان , صفحة 47 ج1 .

(2) أخرجه الحاكم والبيهقي .

2- الاختلاف في وجوه الإعراب : كقوله تعالى : ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: 31] قرأ الجمهور بالنصب , على أن (ما) عاملة عمل (ليس) وهي لغة أهل الحجاز وبها نزل القرآن , وقرأ ابن مسعود (ما هذا بشر) بالرفع , على لغة بني تميم , فإنهم لا يعملون (ما) عمل (ليس) وكقوله : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: 37] وقرئ بنصب (آدم) ورفع (كلمات) (فتلقى آدم من ربه كلمات) .

3- الاختلاف في التصريف : كقوله تعالى : ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: 19] قرئ بنصب (ربنا) على أنه منادى مضاف , و(باعد) بصيغة الأمر , وقرئ (ربنا) بالرفع , وباعدا) بفتح العين , على أنه فعل ماض , وقرئ (بعد) بفتح العين مشددة مع رفع (ربنا) أيضاً .

ومن ذلك ما يكون بتغيير حرف , مثل 0يعلمون , وتعملون) بالياء والتاء , و(الصراط) و (السراط) في قوله تعالى : ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6].

4- الاختلاف بالتقديم والتأخير : إما في الحرف , كقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ [الرعد: 31] وقرئ (أفلم يأيس) وإما في الكلمة كقوله تعالى : ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: 111] بالبناء للفاعل في الأول , وللمفعول في الثاني , وقرئ بالعكس , أي بالبناء للمفعول في الأول , وللفاعل في الثاني .

أما قراءة (وجاءت سكرة الحق بالموت) [ق: 19] بدلاً من قوله تعالى : ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ فقراءة أحادية أو شاذة , لم تبلغ درجة التواتر .

5- الاختلاف بالابدال و سواء كان إبدال حرف بحرف و كقوله تعالى : ﴿وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: 259] قرئ بالزاي المعجمة مع ضم النون , وقرئ بالراء المهملة مع فتح النون , أو إبدال لفظ بلفظ , كقوله تعالى : ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 5] قرأ ابن مسعود وغيره (كالصوف المنفوش) وقد يكون هذا الإبدال مع التفاوت في المخارج كقوله تعالى : ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ*﴾ [الواقعة: 29] قرئ (طلع) ومخرج الحاء والعين واحد , فهما من حروف الحلق .

6- الاختلاف بالزيادة والنقص : فالزيادة كقوله تعالى : ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ [التوبة: 100] قرئ (من تحتها الأنهار) بزيادة (من) وهما قراءتان متواترتان , والنقصان كقوله تعالى : (وقالوا اتخذ الله ولداً) [البقرة :116]

بدون واو , وقراءة الجمهور , ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا﴾ بالواو , وقد يمثل للزيـــادة في قراءة الآحاد , بقراءة ابن عباس (وكان أمامهم ملك يأخذ كل ســفينة صـــالحة غصباً) [الكهف: 79] بزيادة (صالحة) وإبدال كلمة (أمام) بكلمة (وراء) وقـــراءة الجمهور ﴿وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ كما يمثل للنقصان بقـــراءة (الذكر والأنثى) بدلاً من قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: 3] .

7- اختلاف اللهجات بالتفخيم والترقيـــق : والفـــتح والإمالـــة , الإظهـــار والإدغام , والهمز والتسهيل . والإشمام ونحو ذلك . كالإمالة وعدمها في مثل قوله تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طـــه: 9] قرئ بإمالة (أتـــى) و (موســـى) وترقيق الراء في قوله ﴿﴾ وتفخيم اللام في (الطلاق) وتسهيل الهمزة في قولـــه : ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [المؤمنون: 1] وإشمام الغين ضمة مع الكـــسر فـــي قولـــه تعـــالى : ﴿وَغِيضَ الْمَاء﴾ [هود: 44] وهكذا .

(هــ) وذهب بعضهم إلى أن العدد سبعة لا مفهوم له : : وإنما هو رمـــز إلى ما ألفه العرب من معنى الكمال في هذا العدد , فهو إشارة إلى أن القرآن في لغته وتركيبه كأنه حدود وأبواب لكلام العرب كله مع بلوغ الذروة في الكمـــال , فلفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة والكمال في الآحاد , كما يطلق السبعون فـــي العشرات , والسبعمائة في المئين , ولا يراد العدد المعين[1] .

(و) وقال جماعة : إن المراد بالأحرف السبعة , القراءات السبع : والراجح من هذه الآراء جميعاً هو الرأي الأول . وأن المراد بالأحرف السبعة سبع لغـــات من لغات العرب في المعنى الواحد . نحو أقبل , وتعال , وهلم , وعجل وأسرع , فهي ألفاظ مختلفة لمعنى واحد , واليه ذهب سفيان بن عيينه , وابن جرير , وابن وهب , وخلائق , ونسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء له ما جاء في حديث أبي بكر: (أن جبريل قال : يا محمد , اقرا القرآن على حرف , فقال ميكائيـــل : اســـتزده, فقال! على حرفين , حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف , فقال : كلها شاف كاف , مـــا لم يختم آية عذاب بآية رحمة , أو آية رحمة بآية عذاب و كقولك : هلـــم وتعـــال

---

(1) انظر الإتقان , صفحة 45 ج1 .

واقبل واذهب وأسرع وعجل)[1] قال ابن عبد البر : (إنما اراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها , وأنها معان متفق مفهمها , مختلف مسموعها , لا يكون في شيء منها معنى وضده , ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ينفيه ويضاده كالرحمة التي هي خلاف العذاب)[2] .

ويريده أحاديث كثيرة :

(قرأ رجل عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فغير عليه , فقال : لقد قرأت على رسول الله **e** فلم يغير علي , قال : فاختصما عند النبي **e** و فقال : يا رسول الله ؛ ألم تقرئني آية كذا وكذا ؟ قال : بلى ! قال : فوقع في صدر عمر شيء , فعرف النبي **e** ذلك في وجهه , قال : فضرب صدره وقال : ابعد شيطاناً – قالها ثلاثاً – ثم قال : يا عمر , إن القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة)[3] .

وعن بسر بن سعيد : (أنا أبا جهيم الأنصاري أخبره : أن رجلين اختلفا في آية من القرآن , فقال هذا : تلقيتها من رسول الله **e** , وقال الآخر : تلقيتها من رسول الله **e** , فسالا رسول الله **e** عنها و فقال رسول الله **e** : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف و فلا تماروا في القرآن , فإن المراء فيه كفر)[4] .

وعن الأعمش قال : (قرأ أنس هذه الآية : (إن ناشئة الليل هي اشد وطأ وأصوب قليلاً) [المزمل: 6] فقال له بعض القوم : يا أبا حمزة , إنما هي (وأقوم) فقال : أقوم وأصوب وأهيً واحد)[5] .

ويجاب عن الرأي (ب) الذي يرد أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن و على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماته عنها فهو يشتمل في مجموعه عليها – بان لغات العرب أكثر من سبع , وبأن عمر

---

(1) أخرجه أحمد والطبراني , بإسناد جيد , وهذا اللفظ لأحمد .

(2) انظر الإتقان صفحة 47 ج1 .

(3) أخرجه حمد بإسناد رجاله ثقات و وأخرجه الطبري .

(4) رواه أحمد في المسند , ورواه الطبري , ونقله ابن كثير في الفضائل , والهيثمي في مجمع الزوائد ز وقال رجاله رجال الصحيح) .

(5) رواه الطبري , وأبو يعلى , والبزار , ورجال رجال الصحيح .

بن الخطاب وهشام بن حكيم كلاهما قرشي من لغة واحدة , وقبيلة واحدة و وقـد اختلفت قراءتهما . ومحال أن ينكر عليه عمر لغته , فدل ذلك علـى أن المـراد بالأحرف السبعة غير ما يقصدونه , ولا يكون هذا إلا باختلاف الألفاظ في معنـى واحد , وهو نرجحه .

قال ابن جرير الطبري بعد أن ساق الأدلة و مبطلاً هـذا الـرأي : (بـل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن , هن لغات سبع في حرف واحـد , وكلمـة واحدة , باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني و كقول القائل : هلم , وأقبل , وتعـال , وإلي و وقصدي , ونحوي , وقربي , ونحو ذلك , مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق وتتفق فيه المعاني , وإن اختلفت بالبيان به الألسن و كالذي روينا آنفاً عن رسول الله e , وعمن روينا ذلك عنه من الصحابة , أن ذلك بمنزلة قولـك : (هلم وتعال واقبل) وقوله : (ما ينظرون إلى زقية) و (إلا صيحة).

وأجاب الطبري عن تساؤل مفترض : ففي أي كتاب الله نجد حرفاً واحـداً مقروءاً بلغات سبع مختلفات الألفاظ متفقات المعنى ؟ - أجاب : بأننا لم نـدع أن ذلك موجود اليوم – وعن تساؤل مفترض آخر : فمال بال الأحرف الآخر الـستة غير موجودة ؟ - بأن الأمة أمرت بحفظ القرآن , وخيرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت كما أمرت , ثم دعت الحاجة إلى التزام القراءة بحرف واحد مخافة الفتنة في زمن عثمان ثم اجتمع أمر الأمة على ذلك , وهي معصومة من الضلالة[1] .

ويجاب عن الرأي الثالث (ج) الذي يرد أن المراد بالأحرف السبعة سـبعة أوجه , من الأمر , والنهي , والحلال و والحرام , والمحكم , والمتشابه , والأمثال – بأن ظاهر الأحاديث يدل على أن المراد بالأحرف السبعة أن الكلمة تقرأ علـى وجهين أو ثلاثة إلى سبعة توسعة للأمة , والشيء الواحد لا يكون حلالاً وحرامـاً في آية واحدة , والتوسعة لم تقع في تحريم حلال , ولا تحليل حـرام , ولا فـي تغيير شيء من المعاني المذكورة .

---

(1) انظر تفسير الطبري صفحة 57 وما بعدها , ج1 .

والذي ثبت في الأحاديث السابقة إن الصحابة الذين اختلفوا في القراءة احتكموا إلى النبي e , فاستقرأ كل رجل منهم و ثم صوب جميعهم في قراءتهم على اختلافها , حتى ارتاب بعضهم لصتوبيه إياهم , فقال e للذي ارتاب منهم عند تصوبيه جميعهم (إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف) .

(ومعلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك , لو كان تمارياً واختلافاً فيما دلت عليه تلاواتهم من التحليل والتحريم والوعد والوعيد وما أشبه ذلك و لكان مستحيلاً أن يصوب جميعهم , ويأمر كل قارئ منهم أن يلزم قراءته في ذلك على النحو الذي هو عليه , لأن ذلك لو جاز أن يكون صحيحاً وجب أن يكون الله جل ثناؤه قد أمر بفعل شيء بعينه وفرضه – في تلاوة من دلت تلاوته على فرضه – ونهى عن فعل ذلك الشيء بعينه وزجر عنه – في تلاوة الذي دلت تلاوته على النهي والزجر عنه – وأباح وأطلق فعل ذلك الشيء بعينه و وجعل لمن شاء من عباده أن يفعله فعله و ولمن شاء منهم أن يتركه تركه , في تلاوة دلت تلاوته على التخيير .

وذلك من قائله إن قاله إثبات ما قد نفى الله جل ثناؤه عن تنزيله وحكم كتابه فقال : ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82] .

وفي نفي الله جل ثناؤه ذلك عن محكم كتابه أوضح الدليل على انه لم ينزل كتابه على لسان محمد e إلا بحكم واحد متفق في جميع خلقه لا بأحكام فيهم مختلفة)[1] .

ويجاب عن الرأي الرابع (د) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة وجوه التغاير التي يقع فيها الاختلاف[2] – بأن هذا وإن كان شائعاً مقبولاً كنه لا نهيض أمام أدلة الرأي الأول الذي جاء التصريح فيها باختلاف الألفاظ مع اتفاق المعنى و وبعض وجوه التغاير والاختلاف التي يذكروها ورد بقراءات الآحاد , ولا خلاف

---

(1) تفسير الطبري , صفحة 48 , 49 ج1 .

(2) هذا الرأي هو اقوى الآراء بعد الرأي الذي اخترناه , وغليه ذهب (الرازي) وانتصر له من المتأخرين الشيخ محمد بخيت المطيعي , والشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني .

في أن كل ما هو قرآن يجب أن يكون متواتراً , واكثرها يرجع إلى شكل الكلمة أو كيفية الأداء مما لا يقع به التغاير في اللغظ , كالاختلاف في الإعراب و أو التصريف , أو التفخيم والترقيق والفتح والإمالة والإظهار والإدغام والإشمام فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع في اللفظ والمعنى , لأن هذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً .

وأصحاب هذا الرأي يرون أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها , بمعنى أنها مشتملة على ما يحتمله رسمها من هذه الأحرف, فآية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: 8] التي تقرأ بصيغة الجمع وتقرأ بصيغة الإفراد جاءت في الرسم العثماني (لأمنتهم) موصولة وعليها ألف صغيرة , وآية ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: 19] جاءت في الرسم العثماني (بـٰـعد) موصولة كذلك وعليها ألف صغيرة , وهكذا ...

وهذا لا يسلم لهم في كل وجه من وجوه الاختلاف التي يذكرونها .

كالاختلاف بالزيادة والنقص , في مثل قوله تعالى ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ [التوبة: 100] وقرئ (من تحتها الأنهار) بزيادة (من) وقوله : ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: 3] وقرئ (والذكر والأنثى) بنقص (ما خلق) .

والاختلاف بالتقديم والتأخير في مثل قوله تعالى : ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: 19] وقرئ (وجاءت سكرة الحق بالموت) .

والاختلاف بالإبدال في مثل قوله تعالى : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 5] وقرئ (وتكون الجبال كالصوف المنفوش) .

ولو كانت هذه الأحرف تشتمل عليها المصاحف العثمانية لما كان مصحف عثمان حاسماً للنزاع في اختلاف القراءات , إنما كان حسم هذا النزاع بجمع الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن , ولولا هذا لظل الاختلاف في القراءة قائماً , ولما كان هناك فرق بين جمع عثمان وجمع أبي بكر. والذي دلت عليه الآثار أن جمع عثمان رضي الله عنه للقرآن كان نسخاً له على حرف واحد من الحروف السبعة حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد , حيث رأى أن القراءة بالأحرف السبعة كانت لرفع الحرج والمشقة في بداية الأمر . وقد

انتهت الحاجة إلى ذلك و وترجح عليها حسم مادة الاختلاف في القراءة , بجمع الناس على حرف واحد , ووافقه الصحابة على ذلك . فكان إجماعاً . ولم يحتج الصحابة في أيام أبي بكر وعمر إلى جمع القرآن على وجه ما جمعه عثمان , لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف فيه ما حدث في زمن عثمان , وبهذا يكون عثمان قد وفق لأمر عظيم , رفع الاختلاف , وجمع الكلمة , واراح الأمة .

ويجاب عن الرأي الخامس (هـ) الذي يرى أن العدد سبعة لا مفهوم له – بأن الأحاديث تدل بنصها على حقيقة العدد وانحصاره (أقرأني جبريل على حرف, فراجعته , فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف)[1] (وإن ربي أرسل إي أن أقرأ القرآن على حرف , فرددت عليه أن هون على أمتي – فرسل إلي أن أقرأ على سبعة أحرف[2] فهذا يدل على حقيقة العدد المعين المحصور في سبعة .

ويجاب عن الراي السادس (و) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع – بأن القرآن غير القراءات , فالقرآن : هو الوحي المنزل على محمد **e** للبيان والإعجاز , والقراءات : هي اختلاف في كيفية النطق بألفاظ الوحي , من تخفيف أو تثقيل أو مد أو نحو ذلك , قال أبو شامة : (ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث , وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة , وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل)[3] .

وقال الطبري : (وأما ما كان من اختلاف القراءة في رفع حرف وجره ونصبه وتسكين حرف وتحريكه ونقل حرف إلى خر مع اتفاق الصورة , فمن معنى قول النبي **e** : (أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف) بمعزل , لأنه معلوم أنه لا حرف من حروف القرآن – مما اختلفت القراءة في قراءته بهذا المعنى يوجب المراد به كفر المماري به في قول أحد من علماء الأمة , وقد

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم .

(2) أخرجه مسلم .

(3) انظر الإتقان , صفحة 80 ج1 .

أوجب عليه الصلاة والسلام بالمراء فيه الكفر و من الوجـه الـذي تنـازع فيـه المتنازعون إليه , وتظاهرت عنه بذلك الرواية)[1] .

ولعل الذي أوقعهم في هذا الخطأ الاتفاق في العدد سبعة , فـالتبس علـيهم الأمر . قال ابن عمار : (لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له و وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبـر , وليته إذ اقتصر نقص على السبعة أو زاد ليزيل الشبهة) .

وبهذه المناقشة يتبين لنا أن الرأي الأول (أ) الذي يرى إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد هو الذي يتفق مـع ظـاهر النصوص , وتسانده الأدلة الصحيحة .

عن أبي بن كعب قال : (قال لي رسول الله e : الله أمرني أن أقرأ القرآن على حرف واحد , فقلت : رب خفف عن أمتي , فأمرني , قـال : اقـرأه علـى حرفين , فقلت : رب خفف عن أمتي , فأمرني أن أقرأه على سبعة أحـرف مـن سبعة أبواب الجنة , كلها شاف كاف)[2] .

قال الطبري : (والسبعة الأخرى : هو ما قلنا من أنه الألـسن الـسبعة و والأبواب السبعة من الجنة هي المعاني التي فيها و من الأمر والنهي والترغيـب والترهيب والقصص والمثل , التي إذا عمل بها العامل , وانتهى إلـى حـدودها المنتهي , استوجب به الجنة , وليس والحمد لله في قول من قال ذلك من المتقدمين خلاف لشيء مما قلناه) ومعنى 0كلها شاف كاف) كما قال جل ثناؤه فـي صـفة القرآن : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57] جعله الله للمؤمنين شفاء , يستشفون بمواعظه من الأدواء العارضة لصدورهم من وساوس الشيطان وخطراته , يكفيهم ويغنيهم عن كل ما عداه من المواعظ ببيان آياته)[3] .

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف

---

(1) تفسير الطبري و صفحة 65 , ج1 .

(2) رواه مسلم والطبري .

(3) انظر الطبري صفحة 47, 67 ج1 .

تتلخص حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف في أمور :

1- تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين , لكل قبيل منهم لسان ولا عهد لهم بحفظ الشرائع , فضلاً عن أن يكون ذلك مما ألفوه – وهذه الحكمة نصت عليها الأحاديث في عبارات :

عن أبي قال : (لقى رسول الله e جبريل عند أحجار المراء فقال : إني بعثت إلى أمة أميين و منهم الغلام والخادم والشيخ العاس والعجوز , فقال جبريل: فليقراوا القرآن على سبعة أحرف)[1] (إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على حرف , فقلت : اللهم رب خفف عن أمتي) (إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف , قال : أسأل الله معافاته ومغفرته , وإن أمتي لا تطيق ذلك) .

2- إعجاز القرآن للفطرة اللغوية عند العرب , فتعدد مناحي التأليف الصوتي للقرآن تعدداً يكافئ الفروع اللسانية التي عليه فطرة اللغة في العرب حتى يستطيع كل عربي أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطري ولهجة قومه مع بقاء الإعجاز الذي تحدى به الرسول العرب ومع اليأس من معارضته لا يكون إعجازاً للفطرة اللغوية نفسها عند العرب .

3- إعجاز القرآن في معانيه وأحكامه , فإن تقلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات يتهيأ معه استنباط الأحكام التي تجعل القرآن ملائماً لكل عصر – ولهذا احتج الفقهاء في الاستنباط والاجتهاد بقراءات الأحرف السبعة .

---

(1) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والطبري بإسناد صحيح و وأحجار المراء : موضع بقباء , وعسا الشيخ : كبر وأسن وضعف.

القراءات والقراء

القراءات : جمع قراءة , مصدر قرأ في اللغة , ولكنها فـــي الاصـــطلاح العلمي : مذهب من مذاهب النطق في القرآن يذهب به إمام من الأئمـــة القـــراء مذهباً يخالف غيره .

وهي ثابتة بأسانيدها إلى رسول الله e , ويرجع عهد القراء الذين أقـــاموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة , فقد اشتهر بـــالإقراء مـــنهم : أبي, وعلي , وزيد بن ثابت , وابن مسعود , وابو موسى الأشعري , وغيـــرهم , وعنهم أخذ كثير من الصحابة والتابعين في الأمصار. وكلهم يسند إلـــى رســـول الله e .

وقد ذكر الذهبي في (طبقات القراء) أن المشتهرين بـــإقراء القـــرآن مـــن الصحابة سبعة : عثمان , وعلي , وأبي , وزيد بن ثابت , وأبو الـــدرداء , وأبـــو موسى الأشعري و قال : وقد قرأ على (أبي) جماعة من الصحابة , منهم : أبـــو هريرة وابن عباس وعبد الله بن السائب , وأخذ ابن عباس عن زيد أيضا .

وأخذ عن هؤلاء الصحابة خلق كثير من التابعين فـــي كـــل مـــصر مـــن الأمصار .

كان منهم (بالمدينة) ابن المسيب و وعروة , وسالم , وعمر بن عبد العزيز, وسليمان وعطاء ابنا يسار و معاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القـــارئ , وعبـــد الرحمن بن هرمز الأعرج , وابن شهاب الزهري و ومسلم بن جندب , وزيد بـــن أسلم .

وكان منهم (بمكة) عبيد بن عمير و وعطاء بن أبي رباح , وطاوس , ومجاهد , وعكرمة , وابن أبي ملكية .

وكان منهم (بالكوفة) علقمة , والأسود , ومسروق , وعبيدة , وعمرو بن شرحبيل , والحارث بن قيس , وعمرو بن ميمون , وأبو عبد الرحمن السلمي وسعيد بن جبير , والنخعي , والشعبي .

وكان منهم (بالبصرة) أبو عالية , وأبو رجاء و ونصر بن عاصم , ويحيى بن يعمر و والحسن , وابن سيرين , وقتادة .

وكان منهم (بالشام) المغيرة بن ابي شهاب المخزومي , صاحب عثمان , وخليفة بن سعد , صاحب أبي الدرداء .

وفي عهد التابعين على رأس المائة الأولى تجرد قوم واعتنوا بضبط القراءة عناية تامة , حين دعت الحاجة إلى ذلك و وجعلوها علماً كما فعلوا بعلوم الشريعة الأخرى , وصاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم . واشتهر منهم ومن الطبقة التي تلتهم الأئمة السبعة الذين تنسب إليهم القراءات إلى اليوم , فكان منهم (بالمدينة) أبو جعفر يزيد بن القعقاع , ثم نافع بن عبد الرحمن وكان منهم (بمكة) عبد الله بم كثير , وحميد بن قيس الأعرج , وكان منهم (بالكوفة) عاصم بن أبي النجود , وسليمان الأعمش , ثم حمزة , ثم الكسائي , وكان منهم (بالبصرة) عبد الله بن أبي إسحاق , وعيسى بن عمرو , وأبو عمرو بن العلاء , وعاصم الجحدري , ثم يعقوبا الحضرمي , وكان منهم (بالشام) عبد الله بن عامر , وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر , ثم يحيى بن الحارث , ثم شريح بن يزيد الحضرمي .

والأئمة السبعة الذين اشتهروا من هؤلاء في الآفاق هم : أبو عمرو , ونافع, وعاصم و وحمزة و والكسائي و وابن عامر , وابن كثير[1] .

والقراءات غير الأحرف السبعة – على أصح الآراء – وإن أوهم التوافق العددي الوحدة بينهما , لأن القراءات مذهب أئمة , وهي باقية إجماعاً يقرأ بها

---

(1) انظر الإتقان صفحة 72, 73 ج1 .

الناس و ومنشؤها اختلاف في اللهجات وكيفية النطق وطرق الأداء من تفخيم , وترقيق , وإمالة , وإدغام , وإظهار , وإشباع , ومد , وقصر , وتشديد , وتخفيف ... الخ , وجميعها في حرف واحد هو حرف قريش .

أما الأحرف السبعة فهي بخلاف ذلك على نحو ما سبق لك و وقد انتهى الأمر بها إلى ما كانت عليه العرضة الأخيرة حيث اتسعت الفتوحات , ولم يعد للاختلاف في الأحرف وجه خشية الفتنة والفساد و فحمل الصحابة الناس في عهد عثمان على حرف واحد هو حرف قريش وكتبوا به المصاحف كما تقدم .

كثرة القراء والسبب في الاقتصار على السبعة

قراءات أولئك السبع هي المتفق عليها و وقد اختار العلماء من أئمة القراءة غيرهم ثلاثة صحت قراءتهم وتواترت , وهم : أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني , ويعقوب بن إسحاق الحضرمي , وخلف بن هشام . وهؤلاء وأولئك هم أصحاب القراءات العشر . وما عداها فشاذ , كقراءة : اليزيدي , والحسن . والأعمش , وابن جبير , وغيرهم . ولا تخلو إحدى القراءات العشر حتى السبع المشهورة من شواذ . فإن فيها من ذلك أشياء , واختيار القراء السبع إنما هو للعلماء المتأخرين في المائة الثالثة , وإلا فقد كان الأئمة الموثوق بعلمهم كثيرين و وكان الناس على رأس المائتين بالبصرة على قراءة ابن عمرو , ويعقوب , وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم . وبالشام على قراءة ابن عامر وبمكة على قراءة ابن كثير , وبالمدينة على قراءة نافع و وكان هؤلاء هم السبعة . فلما كان على رأس المائة الثالثة أثبت أبو بكر بن مجاهد[1] اسم الكسائي , وحذف منهم اسم يعقوب .

قال السيوطي : (أول من صنف في القراءات أبو عبيد القاسم بن سلام , ثم أحمد بن جبير الكوفي و ثم إسماعيل بن اسحاق المالكي صاحب فالون , ثم أبو تجعفر بن جرير الطبري و ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الدجوني و ثم أبو بكر بن مجاهد , ثم قام الناس في عصره وبعده بالتأليف في انواعها جامعاً ومفرداً .

---

(1) مقرئ أهل العراق و وممن ألفوا في هذا الفن , وكان من المتقنين , توفي سنة 324 هـ .

وموجزاً ومسهباً , وأئمة القراءات لا تحصى , وقد صنف طباقتهم حافظ الإسـلام أبو عبد الله الذهبي , ثم حافظ القراء أبو الخير بن الجزري)[1] .
وقال الإمام ابن الجزري في (النشر) أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب أبو عبيد القاسم بن سلام , وجعلهم فيما أحسب خمسة وعشرين قارئاً و مـع هـؤلاء السبعة , وتوفي سنة (224) ثم قال : وكان في أثره أبو بكر أحمد بن موسى بـن العباس بن مجاهد أول من اقتصر على قراءات هؤلاء السبعة فقط , وتوفي سـنة (324) ثم قال : وإنما أطلنا في هذا الفصل لما بلغنا عن بعض من لا علم لـه أن القراءات الصحيحة هي التي عن هؤلاء السبعة و بل غلب على كثير من الجهـال أن القراءات الصحيحة هي التي في الشاطبية والتيسير)[2] .

والسبب في الاقتصار على السبعة مع أنه في أئمة القراء من هو أجل منهم قدراً أو مثلهم إلى عدد أكثر من السبعة, هو أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيراً جداً – فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظـه وتنضبط القراءة به, فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة, وطـول العمـر فـي ملازمة القراءة والاتفاق على الأخذ عنه فأفردوا من كل مصر إماماً واجداً, ولـم يتركوا مع ذلك نقل ما كان عليه الأئمة غير هؤلاء من القراءات ولا القراءة بها, كقراءة يعقوب الحضرمي, وأبي جعفر المدني, وشيبة بن نصاع, وغيرهم .

وقد أسهم المؤلفون في القراءات في الاقتصار على عدد معـين. لأنهـم إذ يؤلفون مقتصرين على عدد مخصوص من أئمة القراء يكون ذلك مـن دواعـي شهرتهم وإن كان غيرهم أجل منهم قدراً, فيتوهم الناس بعد أن هؤلاء الذين اقتصر التأليف على قراءاتهم هم الأئمة المعتبرون في القراءات. وقد صنف ابـن جبـر

---

(1) الإتقان , صفحة 73 هجرية .

(2) نقل ابن حجر في الفتح هذا , وأثبته الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على (تفسير الطبري , صفحة 65 ج1 هامش . وابن الجزري : هو محمد بمن محمد بن محمد , أبو الخير شمس الدين الشهير بابن الجزري , شيخ القراء في زمانه , من أشهر كتبه ((النشر في القراءات العشر)) توفي سنة 833هـ - والـشاطبية : هـي المنظومة المنسوبة إلى الامام أبي محمد القاسم الشاطبي المتوفي سنة 590هـ نظم فيها كتاب اليـسير فـي (1173) بيتاً , وسماها ((حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع المثاني – وكتاب ((التيـسير فـي القراءات السبع)) لأبي عمرو الداني , من أئمة القراء , توفي سنة 444 هجرية .

المكي كتاباً في القراءات فاقتصر على خمسة, اختار من كل مصر إماماً, وإنما اقتصر على ذلك لأن المصاحف التي أرسلها عثمان كانت خمسة إلى هذه الأمصار. ويقال : إنه وجه سبعة, هذه الخمسة ومصحفاً إلى اليمن. ومصحفاً إلى البحرين. لكن لما لم يسمع لهذين المصحفين خبر وأراد ابن مجاهد وغيره مراعاة عدد المصاحف استبدلوا من مصحف البحرين ومصحف اليمن قارئين كمل بهما العدد – ولذا قال العلماء : إن التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة. وإنما هو من جمع بعض المتأخرين فانتشر, فلو أن ابن مجاهد مثلاً كتب عن غير هؤلاء السبعة بالإضافة إليهم لاشتهروا. قال أبو بكر بن العربي : (نسيت هذه السبعة متعينة للجواز حتى لا يجوز غيرها كقراءة أبي جعفر وشيبة والأعمش ونحوهم, فإن هؤلاء مثلهم أو فوقهم) وكذا قال غير واحد من أئمة القراء وقال أبو حيان : (ليس في كتاب ابن مجاهد ومن تبعه من القراءات المشهورة إلا النزر اليسير, فهذا أبو عمرو بن العلاء اشتهر عنه سبعة عشر راوياً, ثم ساق أسماءهم, واقتصر في كتاب ابن مجاهد على اليزيدي, واشتهر عن اليزيدي عشرة أنفس. فكيف يقتصر على السوسي, والدوري, وليس لهما مزية على غيرهما, لأن الجميع مشتركون في الضبط والإتقان والاشتراك في الأخذ. قال : ولا أعرف لهذا سبباً إلا ما قضى من نقص العلم)[1] .

أنواع القراءات وَحُكمها وَضوَابطها

ذكر بع العلماء أن القراءات! متواترة, وآحاد, وشاذة, وجعلوا المتواتر السبع, والآحاد الثلاث المتممة لعشرها, ثم ما يكون من قراءات الصحابة, وما بقي فهو شاذ. وقيل: العشر متواترة. وقيل : المعتمد في ذلك الضوابط سواء كانت القراءة من القراءات السبع, أو غيرها : قال أبو شامة في (المرشد الوجيز) لا ينبغي أن يتغير بكل قراءة تعزى إلى أحد السبعة ويطلق عليها لفظ الصحة وأنها أنزلت هكذا إلا إذا دخلت في الضبط, وحينئذ لا لنفرد بنقلها مصنف عن غيره, ولا يختص ذلك بنقلها عنهم, بل إن نقلت عن غيرهم من القراء فذلك لا يخرجها

---

(1) انظر الإتقان صفحة 80, 81 ج1.

عن الصحة – المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم منقسمة إلـى المجمـع عليه والشاذ, غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليـه فـي قراءتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما ينقل عن غيرهم)[1] .

والقياس عندهم في ضوابط القراءة الصحيحة ما يأتي:

1- موافقة القراءة للعربية بوجه من الوجوه, سواء كان أفصح أم فصيحاً, لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها بالإسناد لا بالرأي.

2- وأن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً. لأن الصحابة في كتابة المصاحف العثمانية اجتهدوا في الرسم على حسب ما عرفوا من لغـات القراءة, فكتبوا (الصراط) مثلاً في قوله تعالى : ﴿اهـدِنَا الـصِّرَاطَ المُـستَقِيمَ﴾ [الفاتحة : 6] (بالصاد) المبدلة بالسين – عدلوا عن (السين) التي هـي الأصـل, لتكون قراءة (السين) (السراط) وإن خالفت الرسم من وجه, فقد أتت على الأصل اللغوي المعروف, فيعتدلان, وتكون قراءة الإشمام محتملة لذلك.

والمراد بالموافقة الاحتمالية ما يكون من نحو هذا, كقراءة ﴿{مَلِـكِ يَـوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4] فإن لفظة (مالك) كتبت في جميع المصاحف بحذف الألـف, فتقرأ (ملك) وهي توافق الرسم تحقيقاً, وتقرأ (مالك) وهي توافقه احتمالاً, وهكذا. غير ذلك من الأمثلة.

ومثال ما يوافق اختلاف القراءات الرسم تحقيقاً (تعلمون) بالتـاء واليـاء, (ويغفر لكم) بالياء والنون, ونحو ذلك, مما يدل تجرده عن النقط والشكل في حذفه وإثباته على فضل عظيم للصحابة رضي الله عنهم في علم الهجاء خاصة, وفهـم ثاقب في تحقيق كل علم.

ولا يشترط في القراءة الصحيحة أن تكون موافقة لجميع المصاحف, ويكفي الموافق لما ثبت في بعضها, وذلك كقراءة ابن عامر ﴿وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيـرِ﴾ [آل عمران: 184] بإثبات الباء فيهما, فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي.

---

(1) انظر الإتقان صفحة 75 ج1.

3- وأن تكون القراءة مع ذلك صحيحة الإسناد, لأن القراءة سنة متبعة يعتمد فيها على سلامة النقل وصحة الرواية, وكثيراً ما ينكر أهل العربية قراءة من القراءات لخروجها عن القياس, أو لضغطها في اللغة, ولا يحفل أئمة القراء بإنكارهم شيئاً.

تلك هي ضوابط القراءة الصحيحة, فإن اجتمعت الأركان الثلاثة: -1- موافقة العربية -2- ورسم المصحف -3- وصحة السند, فهي القراءة الصحيحة, ومتى اختل ركن منها أو أكثر أطلق عليها أنه ضعيفة, أو شاذة, أو باطلة.

ومن عجب أن يذهب بعض النحاة بعد ذلك إلى تخطئة القراءة الصحيحة التي تتوافر فيها تلك الضوابط لمجرد مخالفتها لقواعدهم النحوية التي يقيسون عليها صحة اللغة, فإنه ينبغي أن نجعل القراءة الصحيحة – حكماً على القواعد اللغوية والنحوية . لا أن نجعل هذه القواعد حكماً على القرآن. إذ القرآن هو المصدر الأول الأصل لاقتباس قواعد اللغة, والقرآن يعتمد على صحة النقل والرواية فيما استند إليه القراء. على أي وجه من وجوه اللغة. قال ابن الجزري معلقاً على الشرط الأول من ضوابط القراءة الصحيحة : (فقولنا – في الضابط (ولو بوجه) نريد به وجهاً من وجوه النحو, سواء أكان أفصح أم فصيحاً, مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله, إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح, إذ هو الأصل الأعظم, والركن اقوم, ومن من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يعتبر إنكارهم, كإسكان (بارئْكم) و(يأمرْكم) وخفض (والأرحام) ونصب (لِيُجزي قوماً). والفصل بين المضافين في (قتل أولادَهم شركائهم) وغير ذلك[1] وقال أبو عمرو الداني : (وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية , بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل , وإذا ثبتت الرواية لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة , لأن القراءة سنة متبعة , يلزم قبولها والمصير إليها) وعن زيد بن

(1) انظر الإتقان صفحة 75ج1, وراجع كتب التفسير في هذه الآيات ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ [النساء :1], ﴿ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون﴾ [الجاثية: 14], ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم﴾ [الأنعام :137] .

ثابت قال : (القراءة سنة متبعة.)[1] قال البيهقي 0اراد أن اتباع مـن قبلنـا فـي الحروف سنة متبعة , لا يجوز مخالفة المصحف الذي هـو إمـام , ولا مخالفـة القراءات التي هي مشهورة , وإن كان غير ذلك سائغاً في اللغة) .

واستخلص بعض العلماء أنواع القراءات فجعلها ستة أنواع :

الأول : المتواتر : وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكـذب عـن مثلهم إلى منتهاه – وهذا هو الغالب في القراءات .

الثاني : المشهور : وهو ما صح سمده ولم يبلغ درجة المتواتر , ووافـق العربية والرسم , واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط , ولا من الشذوذ – وذكر العلماء في هذا النوع أنه يقرأ به .

الثالث : الآحاد : وهو ما صح سنده وخالف الرسم , أو العربيـة , أو لـم يشتهر الاشتهار المذكور . وهذا لا يقرأ به , ومن أمثلته ما روي عن أبي بكر (أن النبي e قرأ ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 78][2] وما روي عن ابن عباس أنه قرأ ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُـسِكُمْ﴾ [التوبـة: 128] بفـتح الفاء)[3] .

الرابع : الشاذ : وهو ما لم يصح سنده . كقـراءة ﴿مَلِـكِ يَـوْمِ الـدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4] بصيغة الماضي . ونصب (يوم) .

الخامس : الموضوع : وهو ما لا أصل له .

السادس : المدرج : وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير – كقراءة ابن عباس ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في مواسم الحج ﴿فَـإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ [البقرة: 198])[4] فقوله : (في مواسم الحج) تفـسير مـدرج والأنواع الأربعة الأخيرة لا يقرا بها .

---

(1) أخرجه سعيد بن منصور في سننه .

(2) أخرجه الحاكم .

(3) أخرجه الحاكم .

(4) أخرجها البخاري .

والجمهور على أن القراءات السبع متواترة . وأن غير المتواتر المشهور لا تجوز القراءة به في الصلاة ولا في غيرها : قال (النووي) في (شرح المهذب) لا تجوز القراءة في الصلاة ولا غيرها بالقراءة الشاذة , لأنها ليست قرآناً , لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والقراءة الشاذة ليست متواترة , ومن قال غيره فغالط أو جاهل , فلو خالف وقرأ بالشاذ انكر عليه قراءته في الصلاة وغيرها و وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة من قرأ بالشواذ , ونقل ابن عبد البر إجماع المسلمين على أنه لا يجوز القراءة بالشواذ , ولا يصلي خلف من يقرا بها) .

فوائد الاختلاف في القراءات الصحيحة

ولاختلاف القراءات الصحيحة فوائد منها :

1- الدلالة على صيانة كتاب الله وحفظه من التبديل والتحريف مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة .

2- التخفيف عن الأمة وتسهيل القراءة عليها .

3- إعجاز القرآن في إيجازه , حيث تدل كل قراءة على حكم شرعي دون تكرر اللفظ كقراءة ﴿وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾ [المائدة : 6] بالنصب والخفض في ﴿أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ*﴾ ففي قراءة النصب بيان لحكم غسل الرجل , حيث يكون العطف على معمول فعل الغسل ﴿وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ﴾ وقراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين عند وجود ما يقتضيه و حيث يكون العطف على معمول فعل المسح ﴿بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى﴾ فنستفيد الحكمين من غير تطويل , وهذا من معاني الإعجاز في الإيجاز بالقرآن .

4- بيان ما يحتمل أن يكون مجملاً في قراءة أخرى كقراءة ﴿يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ في قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ ﴾ [البقرة: 222] قرئ بالتشديد والتخفيف , فقراءة التشديد مبينة لمعنى قراءة التخفيف , عند الجمهور , فالحائض لا يحل وطؤها لزوجها بالطهر من الحيض , أي بانقطاع الدم , حتى تتطهر بالماء – وقراءة (فامضوا إلى ذكر الله) فإنها تبين إن المراد بقراءة ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ

اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الذهاب لا المشي السريع في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 9] – وقراءة (فالسارق والسارقة فاقطعوا إيمانهم) [المائدة: 38] بدلاً من ﴿أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقد بينت ما يقطع – وقراءة (وله أخ أو أخت من أم فلكل واحدة منهما السدس) [النساء: 12] فقد بينت أن المراد الإخوة لأم , ولذا قال العلماء : (باختلاف القراءات يظهر الاختلاف في الأحكام) .

قال أبو عبيدة في (فضائل القرآن) المقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة وتبين معانيها , كقراءة عائشة وحفصة . (والصلاة الوسطى صلاة العصر) [البقرة : 238] قراءة ابن مسعود (فاطعموا أيمانهم) [المائدة : 38] وقراءة جابر (فإن الله بعد إكراههن غفور رحيم) [النور: 33] قال : فهذه الحروف وما شاكلها قد صارت مفسرة للقرآن , وقد كان يروى مثل هذا عن التابعين في التفسير فيستحسن و فكيف إذا روي عن كبار الصحابة , ثم صار في نفس القراءة, فهو أكثر من التفسير وأقوى , فأدنى ما يستنبط من هذه الحروف معرفة صحة التأويل)[1] .

والقراء السبعة المشهورون الذين ذكرهم ابو بكر بن مجاهد وخصهم بالذكر لما اشتهروا به عنده من الضبط والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة واتفاق الآراء على الأخذ عنهم هم :

1- أبو عمرو بن العلاء شيخ الرواة , وهو زيان من العلاء بن عمار المازني البضري , وقيل اسمه كنيته , وتوفي بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة - 154هـ- وراوياه !

الدوري , والسوسي : فأما الدوري : فهو أبو عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز الدوري النحوي , والدور : موضع ببغداد و توفي سنة ست وأربعين ومائتين -246هـ- .

---

(1) انظر الإتقان صفحة 82 ج1 .

وأما السوسي : فهو أبو شعيب صالح بن زياد بن عبد الله السوسي , توفي سنة إحدى وستين ومائتين -261هـ- .

2- ابن كثير : هو عبد الله بن كثير المكي , وهو من التابعين , وتوفي بمكة سنة عشرين ومائة -120هـ- وراوياه :

البزي و وقنبل ! أما البزي ! فهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المؤذن المكي , ويكنى أبا الحسن , وتوفي بمكة سنة خمسين ومائتين -250هـ.

وأما قنبل : فهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن خالد بن سعيد المكي المخزومي , ويكنى أبا عمرو , ويلقب قنبلاً و ويقال : هم اهل البيت بمكة , يعرفون بالقنابلة , وتوفي بمكة سنة إحدى وتسعين ومائتين -291هـ- .

3- نافع المدني : هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي , أصله من اصفهان , وتوفي بالمدينة سنة تسع وستين ومائة -169هـ- وراوياه !

قالون , وورش : أما قالون : فهو عيسى بن منيا (بالمد والقصر) المدني , معلم العربية , ويكنى أبا موسى , وقالون لقب له أيضاً و يروى أن نافعاً لقبه به لجودة قراءته , لأن قالون بلسان الروم جيد . وتوفي بالمدينة سنة عشرين ومائتين -220هـ- وأما ورش : فهو عثمان بن سعيد المصري و ويكنى أبا سعيد , وورش لقب له و لقب به فيما يقال لشدة بياضه , وتوفي بمصر سنة سبع وتسعين ومائة -197هـ- .

4- ابن عامر الشامي : هو عبد الله بن عامر اليحصبي قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك . ويكنى أبا عمران , وهو من التابعين , وتوفي بدمشق سنة ثمان عشرة ومائة -118هـ- وراوياه :

هشام و وابن ذكوان : فأما هشام فهو هشام بن عمار بن نصير القاضي الدمشقي , ويكنى أبا الوليد , وتوفي بها سنة خمس وأربعين ومائتين -245هـ-.

وأما ابن ذكوان فهو عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي, ويكنى أبا عمرو , ولد سنة ثلاث وسبعين ومائة -173هـ- وتوفي بدمشق سنة اثنتين وأربعين ومائتين -242هـ- .

5- عاصم الطوفي : هو عاصم بن أبي النجود , ويقال له ابن بهدلة , أبـــا بكر , وهو من التابعين و وتوفي بالكوفة سنة ثمان وعشرين ومائة -128هـــــ- وراوياه :

شعبة , وحفص : فاما شعبة فهو أبو بكر شعبة بن عباس بن سالم الكوفي , وتوفي بالكوفة سنة ثلاث وتسعين ومائة -193هـــ- .

وأما حفص فهو حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز الكوفي , ويكنى أبـــا عمرو و وكان ثقة , قال ابن معين : هو اقرأ من أبي بكر , وتوفي سنة ثمـــانين ومائة -180هـــ- .

6- حمزة الكوفي : هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الفرضي التيمي ويكنى أبا عمارة وتوفي بحلوان في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ست وخمسين ومائة -156هـــ- وراوياه :

خلف , وخلاد : فأما خلف فهو خلف بن هشام البزاز , ويكنى ابا محمد و توفي ببغداد سنة تسع وعشرين ومائتين -229هـــ- .

وأما خلاد فهو خلاد بن خالد , ويقال ابن خليد , الصيرفي الكوفي , ويكنى أبا عيسى , وتوفي بها سنة عشرين ومائتين -220هـــ- .

7- الكسائي الكوفي : هو علي بن حمزة إمام النحاة الكوفيين , ويكنى أبـــا الحسن , وقيل له الكسائي من أجل أنه أحرم في كساء – توفي 0برنبوية) قرية من قرى الري حين توجه إلى خراسان مـــع الرشـــيد ســـنة تـــسع وثمـــانين ومائـــة -189هـــ- وراوياه :

أبو الحارث , وحفص الدوري : فأما أبو الحارث فهو الليـــث بـــن خالـــد البغدادي و توفي سنة أربعين ومائتين -240هـــ- .

وأما حفص الدوري فهو الراوي عن أبي عمرو , وقد سبق ذكره .

أما الثلاثة تكملة العشرة فهم :

8- ابو جعفر المدني : هو زيد بن القعقاع و وتوفي بالمدينة ســـنة ثمـــان وعشرين ومائة -128هـــ- وقيل -132هـــ- وراوياه :

ابن وردان و وابن جماز : فأما ابن وردان فهو أبو الحارث عيــسى بــن وردان المدني , وتوفي بالمدينة في حدود الستين ومائة -160هــ- .

وأما ابن جماز فهو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جماز المدني , توفي بها بعيد السبعين ومائة -170هــ- .

9- يعقوب البصري : هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي, وتوفي بالبصرة سنة خمس ومائتين -205هــ- وقيل -185هــ- وراوياه :

رويس , وروح : فاما رويس : فهو أبو عبد الله محمد بن المتوكل اللؤلؤي البصري و ورويس لقب له و وتوفي بالبصرة ســنة ثمــان وثلاثــين ومــائتين -238هــ- .

وأما روح : فهو أبو الحسن روح بن عبد المــؤمن البــصري النحــوي , وتوفي سنة أربع أو خمس وثلاثين ومائتين -234هــ- أو -235هــ- .

10- خلف : هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البــزار البغــدادي , وتوفي سنة تسع وعشرين ومائتين -229هــ- وقيل لم يوقف على تاريخ وفاتــه وراوياه !-

إسحاق وإدريس : أما إسحاق : فهو أبو يعقوب إسحاق بن إبــراهيم بــن عثمان الوراق المروزي ثم البغدادي و توفي سنة سنة ســت وثمــانين ومــائتين -286هــ- .

وأما إدريس : فهو أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم البغــدادي الحــداد و توفي يوم الأضحى سنة اثنتين وتسعين ومائتين -292هــ- ويزيد بعضهم أربــع قراءات على هاتيك العشر , وهن :

1- قراءة الحسن البصري , مولى الأنصار , أحد كبار التابعين المشهورين بالزهد و توفي سنة 110 هجرية .

2- وقراءة محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن محيصن , تــوفي ســنة 123 هجرية , وكان شيخاً لأبي عمرو .

3- وقراءة يحيى بن المبارك اليزيدي النحوي , من بغداد , أخذ عن أبــي عمرو وحمزة , وكان شيخاً للدوري والسوسي . توفي سنة 202 هجرية .

4- وقراءة أبي الفرج محمد بن احمد الشنبوذي و توفي سنة 388 هجرية.

الوقف والابتداء[1]

لمعرفة الوقف والابتداء أهمية كبرى في كيفية أداء القرآن حفاظاً على سلامة معاني الآيات . وبعداً عن اللبس والوقوع في الخطأ , وهذا يحتاج إلى دراسة بعلوم العربية , وعلم القراءات , وتفسير القرآن و حتى لا يفسد المعنى . ولهذا أمثلته :

فيجب الوقف مثلاً على قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا﴾ [الكهف: 1] ثم يبتدئ ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: 2] لئلا يتوهم أن قوله ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا*﴾ صفة لقوله ﴿الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ إذ العوج لا يكون قيماً .

وعلى ما آخره هاء سكت في مثل قوله تعالى : ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ [الحاقة: 28-29] فإنك في غير القرىن تثبت هذه الهاء إذا وقفت , وتحذفها إذا وصلت , وهي مكتوبة في المصحف بالهاء , فلا يوصل , لأنه يلزم في حكم العربية إسقاط الهاء في الوصل . فإثباتها إذا وصلت مخالفة للعربية , وحذفها مخالفة للمصحف , وفي الوقف عليها اتباع للمصحف والعربية معاً . وجواز الوصل بالهاء إنما يكون على نية الوقف .

ويجب الوقف مثلاً على قوله : ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يونس: 65] ثم يبتدئ ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا﴾ وليس كذلك .

ولاشك أن معرفة الوقف والابتداء لها فائدتها في فهم المعاني وتدبر الأحكام, عن ابن عمر قال : (لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن , ولقد رأينا اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان , فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته , ما يدري ما أمره ولا زاجره , ولا ما ينبغي إن يوقف عنده , وكل حرف منه ينادي : أنا رسول الله إليك لتعمل بي . وتتعظ بمواعظي)[2] .

---

(1) افرده بالتأليف جماعة و منهم ابن النحاس و وابن عباد و والداني . وانظر (البرهان) للزركشي صفحة 342 ج1.

(2) انظر هامش البرهان صفحة 342 ج1 .

أقسام الوقف : اختلف العلماء في أقسام الوقف .

فقيل ينقسم الوقف إلى ثمانية أضرب : تام , وشبيه به و وناقص و وشبيه به , وحسن , وشبيه به , وقبيح , وشبيه به .

وقيل ينقسم إلى ثلاثة : تام و وجائز , وقبيح .

وقيل ينقسم إلى قسمين : تام , وقبيح .

والمشهور أنه ينقسم إلى اربعة أقسام : تام مختار , وكاف جائز , وحسن مفهوم , وقبيح متروك .

1- فالتام : هو الذي لا يتعلق بشيء مما بعده , وأكثر ما يوجد عند رؤوس الآي , كقوله تعالى : ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5] ثم يبتدى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: 6] وقد يوجد قبل انقضاء الفاصلة , كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: 34] حيث انتهى بهذا كلام بلقيس و ثم قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وهو رأس الآية .

2- والكافي الجائز : هو الذي يكون اللفظ فيه منقطعاً , ويكون المعنى متصلاً . ومن أمثلته , كل رأس آية بعدها لام كي : كقوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[يس:69-70].

3- والحسن : هو الذي يحسن الوقوف عليه ولا يحسن الابتداء بما بعده لتعلقه به في اللفظ والمعنى كقوله تعالى : ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 1-2] .

4- والقبيح : هو الذي لا يفهم منه المراد , كالوقف على قوله تعالى : ﴿{لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ﴾ [المائدة: 17] والابتداء بقوله : ﴿إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ﴾ [المائدة: 17] لأن المعنى على الابتداء يكون كفراً , ونظيره قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾ [المائدة : 73] فلا يقف على ﴿قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ*﴾ وهكذا ...

التجويد وآداب التلاوة

كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قارئاً ندي الصوت , يجيد تلاوة القرآن , وللتلاوة الجيدة أثرها لدى القارئ والمستمع في فهم معاني القرآن وإدراك أسرار إعجازه , في خشوع وضراعة , وقد قال e فيه : (من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد) يعني ابن مسعود , وذلك لما أعطيه من حسن الصوت وتجويد القرآن .

وللعلماء قديماً وحديثاً عناية بتلاوة القرآن حتى يكون النطق صحيحاً , ويعرف هذا عندهم بتجويد القرآن , وأفرده جماعة بالتصنيف نظماً ونثراً , وعرفوا التجويد بأنه : (إعطاء الحروف حقوقهما وترتبيها و ورد الحرف إلى مخرجه واصله , وتلطيف النطق به على كمال هيئته من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف) .

والتجويد وإن كان صناعة علمية لها قواعدها التي تعتمد على إخراج الحروف من مخارجها مع مراعاة صلة كل حرف بما قبله وما بعده في كيفية الآداء فإنه لا يكتسب بالدراسة بقدر ما يكتسب بالممارسة والمران ومحاكاة من يجيد القراءة , قال ابن الجزري : (ولا أعلم لبلوغ النهاية في التجويد مثل رياضة الألسن والتكرار على اللفظ المتلقى من فم المحسن , وقاعدته ترجع إلى كيفية الوقف والإمالة والإدغام وإحكام الهمز والترقيق والتفخيم ومخارج الحروف)[1] .

وقد عد العلماء القراءة بغير تجويد لحناً و واللحن : خلل يطرأ على الألفاظ, ومنه الجلي والخفي , فالجلي ك هو الذي يخل باللفظ إخلالاً ظاهراً يشترك في معرفته علماء القراءة وغيرهم , وذلك كالخطأ الإعرابي أو الصرفي والخفي : هو الذي يخل باللفظ إخلالاً يختص بمعرفته علماء القراءة وأئمة الأداء الذين تلقوه من أفواه العلماء ضبطوه من ألفاظ أهل الأداء .

والمبالغة في التجويد إلى حد الإفراط والتكلف ليست أقل من اللحن , لأنها يادة للحروف في غير موضعها , كأولئك الذين يقرأون القرىن اليوم بنغم شجي

---

(1) انظر الإتقان , صفحة 100 ج1 .

تردد فيه الصوت تردد الوقع الموسيقي والعزف على آلات الطرب و وقد نبه العلماء على ما ابتدعه الناس من ذلك . بما يسمى : بالترعيد , أو الترقيص , أو التطريب , أو التحزين و أو الترديد , ونقل ذلك السيوطي في الإتقان , وعبر عنه الرافعي في (إعجاز القرآن) بقوله : (ومما ابتدع في القراءة والأداء هذا التلحين الذي بقي إلى اليوم يتناقله المفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم و ويقرأون به على ما يشبه الإيقاع , وهو الغناء!... ومن أنواعه عندهم في اقسام النغم (الترعيد) وهو أن يرعد القارئ صوته , قالوا : كأنه يرعد من البرد أو الألم... و(الترقيص) وهو أن يروم السكوت على الساكن ثم ينقر مع الحركة كأنه في عدو أو هرولة , (التطريب) وهو إن يترنم بالقرآن ويتنغم به فيمد في غير مواضع المد, ويزيد في المد إن أصاب موضعه , و(التخزين) وهو أن يأتي القراءة على وجه حزين يكاد يبكي مع خشوع وخضوع , ثم (الترديد) وهو رد الجماعة على القارئ في ختام قراءته بلحن واحد على وجه من تلك الوجوه .

وإنما كانت القراءة – تحقيقاً – وهو إعطاء كل حرف حقه على مقتضى ما قرره العلماء مع ترتيل وتؤدة – أو حدراً – وهو إدراج القراءة وسرعتها مع مراعاة شروط الداء الصحيحة – أو تدويراً – وهو التوسط بين التحقيق والحدر) .

وقراءة القرآن سنة من سنن الإسلام , والإكثار منها مستحب حتى يكون المسلم حي القلب مستنير الفؤاد بما يقرأ من كتاب الله , عن ابن عمر قال : (قال رسول الله e : لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في آناء الليل وآناء النهار , ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناه الليل وآناه النهار)[1] .

والتلاوة مع إخلاص النية وحسن القصد عبادة يؤجر عليها المسلم , عن ابن مسعود : (أن رسول الله e قال : (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة , والحسنة بعشر أمثالها)[2] وجاء في حديث أبي أمامة : (اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه)[3] .

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم .

(2) رواه الترمذي .

(3) رواه مسلم .

وكان السلف رضوان الله عليهم يحافظون على تلاوة القرآن , ومنهم من كان يختم في اليوم والليلة , ومنهم من كان يختم في أكثر , عن عبد الله بن عمرو قال : (قال لي رسول الله e : اقرأ القرآن في شهر , قلت : إني أجد قوة , قال : اقرأه في عشر , قلت : إني أجد قوة , قال : اقرأه في سبع ولا تزد على ذلك)(1) .

وحذر رسول الله e من نسيان القرآن , فقال : (تعاهدوا القرآن , فو الذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها)(2) .

والأمر في كثرة القراءة وختم القرآن يختلف باحتلاف الأشخاص لاختلاف قدراتهم , وتفاوت المصالح العامة التي تناط بهم . قال النووي في (الأذكار) (المختار أن ذلك مختلف باختلاف الأشخاص , فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ و وكذلك من كان مشغولاً بنشر العلم أو فصل الحكومات أو غير ذلك من مهمات الدين والمصالح العامة , فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له , ولا فوات كماله – وإن لك يكن من هؤلاء المذكورين فليكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل أو الهذرمة في القراءة) .

آداب التلاوة ويستحب لقارئ القرآن :

1- أن يكون على وضوء , لأن ذلك من أفضل الذكر . وإن كانت القراءة للمحدث جائزة .

2- وأن يكون في مكان نظيف طاهر , مراعاة لجلال لقراءة .

3- وأن يقرأ بخشوع وسكينة ووقار .

4- ون يتعوذ في بدايتها , لقوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98] وأوجب الاستعاذة بعض العلماء .

5- وأن يحافظ على البسملة في مطلع كل سورة سوى (براءة) لأنها آية على الرأي الراجح .

---

(1) رواه البخاري ومسلم .

(2) رواه البخاري ومسلم .

6- وأن تكون قراءته ترتيلاً , يعطي الحروف حقها من المد والإدغـــام , قال تعالى : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: 4] وعن أنس أنه سئل عن قـــراءة رسول الله e فقال : (كانت مداً , ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد الله و ويمد الرحمن , ويمد الرحيم)[1] وعن ابن مسعود (أن رجلاً قال له : إني أقرأ المفصل في ركعة في ركعة واحدة , فقال : أهذا كهذا الشعر ؟[2] . إن يقرأون القـــرآن لا يجاوز تراقيهم , ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع)[3] وقال الزركـــشي فـــي (البرهان) كمال الترتيل تفخيم ألفاظه , والإبانة عن حروفه , وأن لا يدغم حـــرف في حرف , وقيل : هذا أقله , وأكمله أن يقرأه على منازله , فإن قرأ تهديداً لفظ به لفظ التهديد , وتعظيماً لفظ به على التعظيم) .

7- وأن يتدبر ما يقرأ , لأن هذا هو المقصود الأعظم , والمطلوب الأهم . وذلك بأن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يقر , ويتجاوب مع كل آيـــة بمـــشاعره وعواطفه , دعاء واستغفاراً , ورحمة , وعذاباً . قال تعالى : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا﴾ [ص : 29] وعن حذيفة قال : (صليت مع النبي e ذات ليلـــة , فافتتح البقرة فقراها و ثم النساء فقرأها , ثم آل عمران فقرأها , يقرأ مترسلاً , إذا مر بآية فيها تسبيح سبح و وإذا مر بسؤال سأل , وإذا مر بتعوذ تعوذ)[4] .

8- أن يتأثر بآيات القرآن وعداً ووعيداً , فيحزن ويبكي لآيات الوعيد فزعاً ورهبة وهولاً , قال تعالى : ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَـــانِ يَبْكُـــونَ وَيَزِيـــدُهُمْ خُـــشُوعًا﴾ [الإسراء: 109] وفي حديث ابن مسعود : (قال : (قال : قال لي رســـول الله e : (اقرأ علي القرآن . قلت : يا رسول الله ؛ اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم إني أحب أن أسمعه من غيري , فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَـــهِيدًا﴾ [النـــساء: 41] قـــال :

---

1) رواه البخاري .

(2) الهذ والهذذ : سرعة القراءة .

(3) أخرجه البخاري ومسلم .

(4) أخرجه مسلم .

حسبك الآن فالتفت فإذا عيناه تذرفان)[1] قال في شرح المهذب ! وطريقه في تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود , ثم يفكر في تقصيره فيها فإن لم يحضره عند ذلك حزن وبكاء فلبيك على العهود , ثم يفكر في تقصيره فيها فإن لم يحضره عند ذلك حزن وبكاء فلبيك على فقد ذلك فإنه من المصائب وروى ابن ماجه عن أنس قال : قال رسول الله **e** :

(يخرج قوم في آخر الزمان – أو في هذه الأمة – يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم – أو حلوقهم – إذا رأيتموهم – أو إذا لقيتموهم – فاقتلوهم) .

9- وأن يحسن صوته بالقراءة , فإن القرآن زينة للصوت , والصوت الحسن أوقع في النفس , وفي الحديث (يزنوا القرآن بأصواتكم)[2] .

10- وان يجهر بالقراءة حيث يكون الجهر أفضل . لما فيه من إيقاظ القلب, وتجديد النشاط , وانصراف السمع إلى القراءة , وتعدي نفعها إلى السامعين, واستجماع المشاعر للتفكير والنظر والتدبر . أما إذا خشي بذلك الرياء, أو كان فيه أذى للناس كإيذاء المصلين فإن الأسرار يكون أفضل , قال **e** : (ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به)[3] .

11- واختلفوا في القراءة في المصحف والقراءة على ظهر قلب , أيهما أفضل ؟ على ثلاثة أقوال[4] .

أحدهما : أن القراءة في المصحف أفضل , لأن النظر فيه عبادة , فتجتمع القراءة والنظر .

وثانيها : أن القراءة على ظهر القلب أفضل , لأنها أدعى إلى حسن التدبر, وهو الذي اختاره العز بن عبد السلام وقال : (قيل القراءة في المصحف أفضل , لأنه يجمع فعل الجارحتين : وهما اللسان والعين , والأجر على قدر المشقة , وهذا

---

(1) أخرجه البخاري وغيره .

(2) رواه ابن حيان وغيره .

(3) أخرجه البخاري ومسلم .

(4) انظر (البرهان) للزركشي صفحة 461 ج1 .

باطل , لأن المقصود من القراءة التدبر , لقوله تعالى : ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: 29] والعادة تشهد أن النظر في المصحف يخل بهذا المقصود فكان مرجوحاً) .

وثالثها : أن الأمر يختلف باختلاف الأحوال و فإن كان القارئ من حفظه يحصل له من التدبر والتفكر وجمع القلب أكثر مما يحصل له من المصحف فالقراءة من الحفظ أفضل , وإن استويا فمن المصحف أفضل .

تعليم القرآن والأجرة عليه

تعليم القرآن فرض كفاية , وحفظه واجب على الأمة , حتى لا ينقطع عدد التواتر فيه حفظاً , ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف , فإن قام بذلك قوم سقط عن الباقين , وإلا أثموا بأسرهم , وفي حديث عثمان (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[1] .

وسبيل تعلمه حفظ آيات يتلوها آيات , وهذا هو المعروف اليوم في وسائل التربية الحديثة و أو يحفظ الدارس شيئاً قليلاً , ثم يتبعه بقليل آخر , ثم يضع هذا إلى ذاك , وهكذا . عن أبي العالية قال : تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات , فإن النبي e كان يأخذه من جبريل عليه السلام خمساً خمساً) .

وقد اختلف العلماء في جواز أخذ الأجر على تعليم القرءن , ورجح المحققون الجواز , لقوله e : (إن أحق ما أخذتم عليه أجراً عليه أجراً كتاب الله)[2] وقوله : (زوجتكها بما معك من القرآن)[3] .

وقسم بعض العلماء تعليم القرآن تقسيماً جيداً للحالات المختلفة , وبينوا حكم كل حالة منها : قال أبو الليث في كتاب (البستان)[4] : (التعليم على ثلاثة أوجه : أحدها للحسبة ولا يأخذ به عوضاً و والثاني أن يعلم بالأجرة , والثالث أن يعلم بغير شرط فإذا أهدي إليه قبل .

---

(1) رواه البخاري .

(2) رواه البخاري في كتاب الطب من حديث ابن عباس .

(3) رواه الشيخان في باب النكاح .

(4) هو أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي المتوفى سنة 375 هـ , وكتابه (بستان العارفين) في الأحاديث الواردة في الاداب الشرعية والخصال والأخلاق وبعض الأحكام الفرعية , وانظر (البرهان) للزركشي صفحة 457 ج1 .

فالأول : مأجور عليه , وهو عمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

والثاني : مختلف فيه و فقيل لا يجوز , لقوله e : (بلغوا عني ولو آيـــة) وقيل يجوز , والأفضل للمعلم أن يشارط الأجرة للحفظ وتعليم الكتابة , فإن شارط لتعليم القرآن أرجو أنه لا بأس به , لأن المسلمين قد توارثوا ذلك واحتاجوا له .

وأما الثالث : فيجوز في قولهم جميعاً , لأن النبي e كان معلماً للخلـــق و وكان يقبل الهدية , ولحديث اللديغ لما رقوه بالفاتحة وجعلوا له جعلاً , وقال النبي e (واضربوا لي معكم فيها بسهم)[1] .

القواعد التي يحتاج إليها المفسر

لابد في تناول أي علم من العلوم من معرفة أسسه العامة ومميزاً الخاصـــة حتى يكون الطالب له على بصيرة , وبقدر ما يتمكن الإنسان من آلة العلم بقدر ما يحرز من نصر فيه , حيث يلج فصوله من أبوابها وقد اعطي مفاتيحها , وإذا كان القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُـــونَ﴾ [يوسف : 2] فإن القواعد التي يحتاج إليها المفسر في فهم القرآن ترتكـــز علـــى قواعد العربية , وفهم أسسها , وتذوق أسلوبها , وإدراك أسرارها , ولـــذلك كلـــه فصول متناثرة , ومباحث مستفيضة في فروع العربية وعلومها و إلا أننا نستطيع أن نجمع موجزاً لأهم ما يجب معرفته في الأمور الآتية :

1- الضمائر

للضمائر قواعدها اللغوية التي استنبطها علماء اللغة , من القرآن الكريم , ومن مصادر العربية الأصيلة , ومن الحديث النبوي , ومن كلام العـــرب الـــذين يستشهد بكلامهم نظماً ونثراً و وقد ألف ابن الأنباري[2] في بيان الضمائر الواقعة في القرآن مجلدين[3] .

وأصل وضع الضمير للاختصار فهو يغني عن ذكر ألفاظ كثيرة , ويحـــل محلها مع سلامة المعنى وعدم التكرار و فقد قام في قوله تعالى : ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُـــم

(1) رواه البخاري في كتاب الطب من حديث ابن عباس .

(2) هو ابو بكر محمد بن القاسم الأنباري و كان له عناية باللغة وبعلوم القرىن , توفي سنة 328 هــ .

(3) انظر الإتقان صفحة 18 ج1 .

مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ مقام عشرين كلمة لو أتى بها مظهرة , هي المذكورة في صدر الآية ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:35].

والأصل تقديم مفسر لضمير الغائب .. ويعلل النحاة هذا الأصل بأن ضمير المتكلم والمخاطب يفسرهما المشاهدة , وضمير الغائب عار عن هذا الوجه من التفسير و فكان الأصل تقديم معاده ليعلم المراد بالضمير قبل ذكره . ولذلك قالوا يمتنع عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة , واستثنوا من هذه القاعدة مسائل يرجع فيها الضمير إلى ما استغنى عن ذكره بما يدل عليه من قراءن في نفس اللفظ , أو أحوال أخرى تحف بمقام الخطاب[1] , قال ابن مالك في (التسهيل) : الأصل تقديم مفسر ضمير الغائب و ولا يكون غير القرب إلا بدليل , وهو إما مصرح به بلفظه , أو مستغنى عنه بحضور مدلوله حساً أو علماً و أو بذكر ما هو له جزء أو كل أو نظير أو مصاحب بوجه ما) .

وعلى هذا فالمرجع الذي يعود إليه ضمير الغيبة و يكون ملفوظاً به سابقاً عليه مطابقاً له – وهذا هو الكثير الغالب – كقوله تعالى : ﴿وَنَادَى نُوحٌ﴾ [هود:42] أو يكون ما سبق متضمناً له , كقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ﴾ [المائدة: 8] فإن ضمير (هو) يعود على العدل الذي يتضمنه لفظ (اعدلوا) أي أن العدل أقرب للتقوى أو دالاً عليه بالتزام كقوله) ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ

(1) ألقى الدكتور طه حسين في مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة اكسفورد سنة 1347 هجرية محاضرة بعنوانها 0ضمير الغائب واستعماله اسم إشارة في القرآن) نشرت مجلة الرابطة الشرقية أن ضمير الغائب يجب ا يعود إلى مذكور يتقدمه لفظاً ورتبة – يطابق هذا المذكور في التذكير والتأنيث وفي الأفراد والتثنية والجمع و وأن ما ورد على خلاف ذلك تأولوه بتكليف وأوضح هذا بأمثلة من القرآن , وقد ورد عليه الأستاذ محمد الخضر حسين و انظر : بلاغة القرآن , صفحة 64 وما بعدها .

أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 178] فالضمير في (اليه9 يعود على العافي الذي يستلزمه (عفى) .

وقد يكون المرجع متاخراً لفظاً لا رتبة كقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: 67] أو لفظاً ورتبة كما في باب ضمير الشأن والقصة ونعم وبئس كقوله : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1] وقوله : ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ﴾ [الأنبياء: 97] وقوله : ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا*﴾ [الكهف: 50] وقوله : ﴿سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ*﴾ [الأعراف: 177] أو متأخراً دالاً عليه كقوله ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ*﴾ فضمير الرفع يدل عليه (الحلقوم) , والتقدير : فلولا إذا بلغت الروح الحلقوم و أو مفهوماً من السياق كقوله : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: 26] أي على الأرض . وقوله : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1] أي القرآن , وقوله : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس : 1] أي النبي **e** . وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [هود: 13] فالواو في (يقولون) للمشركين و وفاعل افترى للنبي **e** , ومفعوله للقرآن .

وربما عاد الضمير على اللفظ دون المعنى كقوله : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: 11] فالضمير في (عمره) المراد به عمر معمر آخر , قال الفراء : يريد أخر غير الأول , فكنى عنه بالضمير كأنه الأول , لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول , كأنه قال : ولا ينقص من عمر معمر , فالكناية في عمره ترجع إلى آخر غير الأول و ومثله قولك : عندي درهم ونصفه , أي نصف آخر)[1] .

وربما عاد الضمير على المعنى فقط كقوله : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ [النساء: 176] بالضمير في (كانتا) يم يتقدم لفظ تثنية يعود عليه , لأن الكلالة تقع على الواحد والاثنين والجمع , فثنى الضمير

---

(1) راجع كتب التفسير في ذلك .

الراجع إليها حملا على المعنى , وقوله : ﴿وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: 4] فالضمير في (منه) يعود على معنى الصدقات و لأنه في معنى الصداق , أو ما أصدق , كأنه قيل : وأتوا النساء صداقهن أو ما أصدقتموهن .

وقد يؤتى بالضمير أولاً ثم يخبر عنه بما يفسره , كقوله : ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: 29] .

وقد يثنى الضمير ويعود على أحد المذكورين كقوله : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 22] وإنما يخرج من أحدهما , وهو الملح دون العذب , لأنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما . وبهذا قال الزجاج وغيره .

وقد يعود على ملابس ما هو له كقوله ﴿يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 46] أي ضحى يومها لا ضحى العشية , لأن العشية لا ضحى لها .

وقد يراعى في الضمير اللفظ أولاً , ثم يراعى المعنى ثانياً و كقوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8] أفرد الضمير في (يقول باعتبار لفظ (من) ثم جمع في (وما هم) باعتبار معناه .

2- التعريف والتنكير

للتنكير مقامات : منها : إرادة الوحدة كقوله : ﴿وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص: 29] أي رجل واحد , أو إرادة النوع كقوله : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: 96] أي نوع من الحياة , وهو طلب الزيادة في المستقبل و لأن الحرص لا يكون على الماضي ولا على الحاضر – أو هما معاف كقوله : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ [النور: 45] أي كل نوع من أنواع الدواب من أنواع الماء , وكل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف – أو التعظيم كقوله : ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ﴾ [البقرة: 279] أي حرب عظيمة – أو التكثير كقوله : ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن﴾ [الشعراء: 42] أي أجراً وافراً و أو هما معاً كقوله : ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: 4] أي رسل عظام ذوو عدد كثير و أو التحقير كقوله : ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [عبس: 18] أي من شيء هين حقير مهين , أو التقليل كقوله : ﴿وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي

مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ﴾ [التوبة: 72] أي رضوان قلل منه أكبر من الجناب لأنه رأس كل سعادة .

وأما التعريف فله مقامات تختلف باختلاف كل نوع من أنواع التعريف .

ويكون بالإضمار لأن المقام مقام المتكلم و أو الخطاب , أو الغيبة وبالعلمية لإحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداء باسم يخصه – أو لتعظيمه كقوله : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: 29] و أو إهانته كقوله : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:1], وبالإشارة لبيان حاله في القرب كقوله : ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: 11] أو لبيان حاله في البعد كقوله : ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5] أو لقصد تحقيره بالقرب كقوله : ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: 64] , أو لقصد تعظيمه بالبعد كقوله : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2] أو التنبيه على أن المشار إليه المعقب بأوصاف جدير بما يرد بعده من أجلها كقوله : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:1-5] . وبالوصول لكراهة ذكره باسمه سترا عليه و أو غير ذلك كقوله : ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ [الأحقاف: 17] وقوله : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف ك 23] أو لإرادة العموم كقوله : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69] و أو الاختصار كقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب: 69] إذ لو عدد أسماء القائلين لطال الكلام – وبالألف واللام للإشارة إلى معهود ذكرى , كقوله : ﴿ # اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور: 35] أو معهود ذهني كقوله : ﴿ # لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18] أو معهود حضري كقوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3] أو لاستغراق خصائص الأفراد كقوله : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: 2] أي الكتاب الكامل في الهداية

الجامع لجميع صفات الكتب المنزلة بخصائصها , لو تعريف الماهيـة والحقيقـة والجنس , كقوله : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30] .

وإذا ذكر الاسم مرتين فله أربعة أحوال : لأنه إما أن يكونا معـرفتين , أو نكرتين , أو الأول نظرة والثاني معرفة , أو بالعكس .

1- فإن كانا معرفتين فالثاني هو الأول غالباً كقوله : ﴿اهـدِنَا الـصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغـضُوبِ عَلَـيهِمْ وَلاَ الـضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 6-7] .

2- وإن كانا نكرتين فالثاني غير الأول غالباً كقوله : ﴿# اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْـدِ قُـوَّةٍ ضَـعْفًا وَشَـيْبَةً﴾ [الروم:54] فإن المراد بالضعف الأول النطفة و وبالثاني الطفوليـة , وبالثالـث الشيخوخة , وقد اجتمع القسمان في قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَـعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: 5-6] ولذلك روي عن ابن عباس : لن يغلب عسر يسرين, لأن العسر الثاني أعاده بأل , فكان عين الأول , ولما كان اليسر الثاني غير الأول لم يعده بأل .

3- وإن كان الأول نكرة , والثاني معرفة , فالثاني هو الأول حملاً علـى العهد . كقوله : ﴿عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَـوْنَ رَسُـولًا * فَعَـصَى فِرْعَـوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل: 15-16] .

4- وإن كان الأول معرفة , والثاني نكرة , توقف المراد على القـرائن , فتارة تقوم قرينة على التغاير , كقوله : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَـا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: 55] , وتارة تقوم قرينة على الاتحاد , كقوله : ﴿وَلَقَـدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُـمْ يَتَـذَكَّرُونَ * قُرآنًـا عَرَبِيًّـا﴾ [الزمر:27-28] .

3- الإفراد والجمع

بعض ألفاظ القرآن يكون إفراده لمعنى خاص , وجمعه لإشارة معينة , أو يؤثر جمعه على إفراده أو العكس .

فمن ذلك أننا نرى بعض الألفاظ لم يأت في القرآن إلا مجموعاً , وعند الاحتياج إلى صيغة المفرد , يستعمل مرادفة كلفظة (اللب) فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 21] , ولم يجئ في القرآن مفرده , بل جاء مكانه (القلب) كقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] ولفظة (الكوب) لم تأت مفردة وقد أتى الجمع ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ [الغاشية: 14] .

وعكس هذا النوع ألفاظ لم تأت إلا مفردة في كل موضع من مواضع القرآن . ولما أريد جمعها جمعت في صورة من الروعة ليس لها مثال و كقوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 12] ولم يقل سبحانه وسبع أرضين لما في ذلك من الخشونة واختلال النظم .

ومن ذلك لفظة (السماء) ذكرت تارة بصيغة الجمع وتارة بصيغة الإفراد , لنكت مناسبة , فحيث أريد العدد , أتي بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة والكثرة , كقوله : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحشر: 1] وحيث أريد الجهة أتى بصيغة الإفراد كقوله : ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ*﴾ [الملك: 16] .

ومن ذلك (الريح) ذكرت مجموعة ومفردة و فتذكر مجموعة في سياق الرحمة وتفرد في سياق العذاب , وذكر في حكمة ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمنافع و ويقابل بعضها الاخر أحياناً , لينشأ ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات . فكانت في الرحمة رياحاً . وأما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد , ولا معارض لها ولا دافع , وقد أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن أبي كعب قال : كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة , وكل شيء من الريح فهو عذاب . ولهذا وقد في الحديث (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) وما خرج عن ذلك فهو لنكتة أخرى[1] .

---

(1) فقد أفردت في قوله تعالى : ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: 22] بوجهين : لفظي و وهو المقابلة في قوله : ﴿جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ومعنوي وهو أن تمام الرحمة هنا , إنما يحصل بوحدة الريح لا باختلافها , فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد وإلا تعرضت للهلاك .

ومن ذلك إفراد (النور) وجمع (الظلمات) وإفراد (سبيل الحق) وجمع (سبل الباطل) لأن طريق الحق واحدة , وطرق الباطل متشعبة متعددة . ولهذا وحد (ولي المؤمنين) وجمع (أولياء الكافرين) لتعددهم كما في قوله تعالى : ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: 257] وقوله : ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153] .

ومن ذلك (المشرق والمغرب) بالإفراد والتثنية والجمع . فالإفراد باعتبار الجهة والإشارة إلى ناحيتي الشرق والغرب قوله : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: 9] . والتثنية باعتبار مطلعي ومغربي الشتاء والصيف كقوله : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: 17] . والجمع باعتبار مطلع كل يوم ومغربه . أو مطلع كل فصل ومغربه . كقوله : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: 40][1] .

4- مقابلة الجمع بالجمع أو بالفرد

مقابلة الجمع بالجمع تارة تقتضي مقابلة كل فرد من هذا , بكل فرد من هذا, كقوله : ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ [نوح: 7] أي استغشى كل منهم ثوبه . وقوله: ﴿ # وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ*﴾ [البقرة: 233] أي كل واحدة ترضع ولدها . وتارة يقتضي ثبوت الجمع لكل فرد من افراد المحكوم عليه كقوله : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: 4] أي اجلدوا كل واحد منهم ذلك العدد. وتارة يحتمل الأمرين فيحتاج إلى دليل يعين أحدهما .

---

(1) ألف أبو الحسين الأخفش كتاباً في الإفراد والجمع ذكر فيه جميع ما وقع في القرآن مفرداً , ومفرد ما وقع جمعاً و انظر الإتقان صفحة 193 ج1 .

أما مقابلة الجمع بالمفرد. فالغالب ألا يقتضي تعميم المفرد وقد يقتضيه كما في قوله تعالى : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: 184] أي على كل واحد لكل يوم طعام مسكين.

5- ما يظن أنه مترادف وليس من المترادف

من ذلك (الخوف والخشية) فالخشية أعلى من الخوف. وهي أشد منه لأنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشبة. أي يابسة. وهو فوات بالكلية. والخوف من قولهم ناقة خوفاء أي بها داء. وهو نقص ليس بفوات. كما أن الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قوياً. فهي خوف يشوبه تعظيم. والخوف من ضعف الخائف. وإن كان المخوف أمراً يسيراً. ومادة الخشية: الخاء والشين والياء, في تصاريفها تدل على العظمة, فالشيخ: السيد الكبير . والخيش : الغليظ من اللباس. ولذا وردت الخشية غالباً في حق الله تعالى. كقوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ فاطر:28] وقوله : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 39] وأما قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:50] فقد جاء في وصف الملائكة بعد ذكر قوتهم وشدة خلقهم, فالتعبير عنهم بالخوف لبيان أنهم وإن كانوا غلاظاً شداداً فهم بين يديه تعالى ضعفاء, ثم أردفه بالفوقية الدالة على العظمة, فجمع بين الأمرين اللذين تتضمنهما الخشية دون إخلال بقوة بأسهم, وهما خوفهم,من ربهم مع تعظيمه سبحانه.

ومن ذلك (الشح والبخل) فالشح أشد من البخل لأنه بخل مع حرص, وذلك فيما يكون عادة.

ومن ذلك (السبيل والطريق) فالسبيل أغلب وقوعاً في الخير, أما الطريق فلا يكاد يراد به الخير إلا مقترناً بما يدل على ذلك من وصف أو إضافة كقوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الأحقاف: 30 قال الراغب في مفرداته: السبيل: الطريق الذي فيه سهولة فهو أخص.

ومن ذلك (مد وأمد) قال الراغب: أكثر ما جاء الإمداد في المحبوب كقوله: ﴿{وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ﴾ [الطور:22] والمد في المكروه كقوله: ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: 79] .

6- السؤال والجواب

الأصل في الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال, وقد يعدل في الجــواب عمــا يقتضيه السؤال تنبيهاً على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك, وهو المــسمى بأسلوب الحكيم, ويمثلون له بقوله تعالى: ﴿ #يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189]فقد سألوا رسول الله e عن الهلال: لم يبــدو دقيقــاً مثل الخيط ثم يزيد قليلاً قليلاً حتى يمتلئ, ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بــدأ؟ فأجيبوا ببيان حكمة ذلك تنبيهاً على أن الأهم السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه.

وقد يجيء الجواب أعم من السؤال للحاجة إليه كقوله تعالى: ﴿قُــلِ اللّــهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: 64].

وقد يجيء أنقص لاقتضاء الحال ذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِــي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي﴾ [يونس: 15] في جواب ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ لأن التبديل أسهل من الاختراع, وقد نفى إمكانه فالاختراع أولى .

والسؤال إذا كان لطلب معرفة تعدى إلى المفعول الثاني تارة بنفسه وتــارة بعن وهو أكثر كقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: 85] وإذا كان لاستدعاء مال ونحوه فإنه يتعدى بنفسه أو بمن وبنفسه أكثر كقوله: ﴿وَاسْأَلُوا مَــا أَنفَقْــتُمْ﴾ [الممتحنة: 10] وقوله: ﴿وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: 32].

7- الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل

الاسم يدل على الثبوت والاستمرار. والفعل يدل على التجــدد والحــدوث. ولكل منهما موضعه الذي لا يصلح له الآخر, فيأتي التعبير مثلاً في النفقة بالفعل كقوله: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالــضَّرَّاء﴾ [آل عمــران: 134] ولــم يقــل (المنفقون) ويأتي التعبير في الإيمان بالاسم كقوله: : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُــوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: 15] لأن النفقة أمر فعلي شــأنه الحــدوث والتجــدد, بخلاف الإيمان فإنه له حقيقة تقوم بدوام مقتضاها, والمراد بالتجدد فــي الماضــي

الحصول مرة بعد أخرى, وفي المضارع أن من شأنه أن يتكرر ويقع مـــرة بعـــد أخرى, ومضمر الفعل في ذلك كمظهره ولهذا قالوا: إن سلام إبراهيم عليه السلام أبلغ من سلام الملائكة في قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ [الـــذاريات: 25] فالنصب على أنه مصدر سد مسد الفعل, وأصله نسلم عليك ســـلاماً, وهـــذه العبارة مؤذنة بحدوث التسليم منهم, بخلاف رده (قال سلام) فإنه معدول به إلـــى الرفع على الابتداء, وخبره محذوف والمعنى: عليكم سلام. للدلالة علـــى إثبـــات السلام, كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به, أخذاً بأدب الله تعـــالى[1] وهـــو أيضاً من إكرامه لهم .

8- العطف

وهو ثلاثة أقسام:

1- عطف على الفظ, وهو الأصل.

2- وعطف على المحل, وجعل من الكسائي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ﴾ [المائدة: 69] فجعل (الصابئون) عطفاً على محـــل إن واسمها, ومحلها الرفع بالابتداء.

3- وعطف على المعنى , ومنه قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [المنافقون: 10] في قراءة غير أبي عمرو بجزم (أكن) وخرجـــه الخليلي وسيبويه على أنه عطف على التوهم[2] , لأن معنى لولا أخرتني فاصـــدق ومعنى أخرني أصدق واحد , كأنه قيل : إن أخرتين أصدق وأكن و كمـــا خـــرج الفارسي عله قراءة قنبل ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: 90] بسكون الراء, لأن من الموصولة فيها معنى الشرط .

واختلف في جواز عطف الخبر على الإنشاء وعكسه , فمنعه الأكثـــرون , وأجازه جماعة مستدلين بقوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: 13] عطـــف

---

(1) في قوله تعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ [النساء: 86].

(2) هذه العبارة هي التي حكاها سيبويه عن الخليل , وهي المنقولة في كتب التفسير : إنه جزم على تـــوهم الشرط الذي يدل عليه التمني , ولفظ (التوهم) غير لائق في تفسير القرن والأولى أن يقال : عطـــف علـــى المعنى . كما هو صريح العبارة بعد .

على (تؤمنون) في الآية ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الصف: 10-11] وخرجه الآخرون على أن (تؤمنون) بمعنى آمنوا , فهو خبر بمعنى الإنشاء , فصح عطف الإنشاء عليه . (وبشر) كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبتكم الله وينصركم . وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك . وفائدة التعبير بالخبر في موضع الأمر الإيذان بوجوب الامتثال , أي كأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين .

واختلف أيضاً في جواز العطف على معمولي عاملين , واستدل المجيرون بقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية:3-5] فقوله : ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ...... آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ من العطف على معمولي عاملين سواء نصبت أو رفعت , فالعاملان إذا نصبت : (إن) و(في) أقيمت الواو مقامهما , فعملت الواو الجر في (اختلاف الليل والنهار) والنصب في (آيات) وإذا رفعت فالعاملان (الابتداء) و(في) عملت الواو الرفع في (آيات) والجر في (اختلاف) ذكر هذا الزمخشري[1] .

واختلف أيضا في جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار و وخرج عليه المجيزون قراءة حمزة ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء: 1] يجر الأرحام عطفاً على الضمير , وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 217] على أن (المسجد) معطوف على ضمير (به) .

الفرق بين الإيتاء والإعطاء

وهناك فرق بين الإيتان والأعطاء في القرآن , قال الجويني[2] : (إن الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله , لأن الإعطاء له مطاوع , يقال : أعطاني فعطوت , ولا يقال في الإيتال : آتاني فأتيت , وغنما يقال ك آتاني فأخذت ,

---

(1) انظر تفسير الآية في (الكشاف) للزمخشري .

(2) انظر (البرهان) للزركشي صفحة 85 ج4 .

والفعل الذي له مطاوع أضعف , في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له , لأنك تقول : قطعته فانقطع , فيدل على أن فعل الفاعل كان موقوفاً على قبول المحل , لولاه لما ثبت المفعول , ولهذا يصح قطعته فما انقطع , ولا يصح فيما لا مطاوع له ذلك و فلا يجوز أن يقال : ضربته فانضرب أو ما انضرب , ولا قتلته فانقتل أو ما انقتل , لأن هذه أفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعول في المحل , والفاعل مستقل بالأفعال التي لا مطاوع لها , فالإيتاء إذن أقوى من الإعطاء) .

ولهذا شواهده و فقد قال تعالى : ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269] لأن الحكمة إذا ثبتت في المحل دامت , وهي عظيمة الشأن , وقال : ﴿آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر:87] , وقال : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1] لأن بعد الكوثر منازل أعلى , حيث يكون الانتقال إلى ما هو أعظم منه في الجنة . وقال : ﴿حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29] لأن الجزية موقوفة على قبول منا , وهم لا يؤتونها إيتاء عن طيب قلب . وإنما عن كره , وقد عبر بالإيتاء في جانب المسلمين بالنسبة إلى الزكاة , وفي ذلك ! إشارة إلى أن المؤمن ينبغي أن يكون إعطاؤه للزكاة بقوة , لا يكون كإعطاء الجزية .

لفظ (فعل)

يجيء لفظ (فعل) كناية عن أفعال متعددة لا للدلالة على فعل واحد . فيفيد بهذا الاختصار , كقوله تعالى : ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ*﴾ [المائدة: 79] فإنها تشمل كل منكر لا يتناهون عنه , وقوله : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة:24] أي فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله .

وحيث أطلقت في كلام الله فهي محمولة على الوعيد الشديد كقوله تعالى ﴿الْفِيلِ*﴾ [الفيل: 1] وقوله : ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: 45] .

لفظ (كان)[1]

---

(1) انظر (البرهان) صفحة 121 ج4 .

وردت (كان) في الإخبار عن ذات الله وصفاته بالقرآن كثيراً وقد اختلفت النحاة وغيرهم في أنها تدل على الانقطاع , على مذاهب :

أحدها : أنها تفيد الانقطاع لأنها فعل يشعر بالتجديد .

والثاني : لا تفيده و بل تقتضي الدوام والاستمرار , به جزم ابن معط[1] في ألفيته , حيث قال :

(وكان للماضي الذي ما انقطعا)

وقال الراغب في قوله تعالى : ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا*﴾ [الإسراء:27] نبه بقوله : 0كان على أنه لم يزل منذ أوجد منطوياً على الكفر .

والثالث : أنه عبارة عن وجود شيء في زمان ماض على سبيل الإبهام . وليس فيه دليل على عدم سابق , ولا على انقطاع طارئ , ومنه تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 50] قاله الزمخشري في قوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [عمران: 110] عند تفسير للآية في (الكشاف) .

وذكر ابن عطية في سورة الفتح أنها حيث وقعت في صفات الله فهي مسلوبة الدلالة على الزمان.

والصواب من هذه المقالات مقالة الزمخشري, وأنها تفيد اقتران معنى الجملة التي تليها بالزمن الماضي لا غير, ولا دلالة لها نفسها على انقطاع ذلك المعنى ولا بقائه, بل إن أفاد الكلام شيئاً من ذلك كان لدليل آخر.

وعلى هذا يحمل معناها فيما وقع في القرآن من إخبار الله تعالى عن صفاته وغيرها بلفظ (كان) كثيراً, مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 148] ﴿وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ النساء: 130] ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الأحزاب: 59] ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 81] ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: 78] .

---

(1) هو الشيخ زين الدين يحيى بن عبد المعطي المتوفى سنة 628 هـ سماها ك (الدرة الأليفة) وأولها

يقول راجي ربه الغفور   يحيى بن معط بن عبد النور

وإليها أشار ابن مالك بقوله : فائقة أليفة ابن معطى .

وحيث أخبر الله بها عن صفات الآدميين فالمراد التنبيه علـــى أنهـــا فـــيهم غريزة وطبيعة مركوزة في النفس كقوله تعالى: وكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: 11] وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72].

وقد تتبع أبو بكر الرازي استعمال (كان) في القـــرآن, واســـتنبط وجـــوه استعمالها فقال: (كان) في القرآن على خمسة أوجه:

بمعنى الأزل والأبد, كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًـــا حَكِيمًـــا﴾ [النـــساء: 170].

وبمعنى المعنى المنقطع, كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِـــسْعَةُ رَهْـــطٍ﴾ [النمل: 48] وهو الأصل في معاني (كان) كما تقول: كان زيد صالحاً أو فقيراً أو مريضاً أو نحوه.

وبمعنى الحال, كقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: 110] وقولـــه: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: 103] وبمعنى الاستقبال, كقوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الدهر: 7].

وبمعنى (صار) كقوله : ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ*﴾ [البقرة: 34][(1)] .

وتأتي (كان) في النفي ويكون المراد بها نفي صحة الخبر لا نفي قوعـــه , ولذا تؤول بمعنى (ما صح وما استقام) كقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَـــهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ [الأنفال: 67] وقوله : ﴿مَا كَـــانَ لِلْمُـــشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله﴾ [التوبة: 17] وقوله : ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ [النـــــور: 16] .

لفظ (كاد)

وللعلماء في (كاد) مذاهب :

أحدهما : أنها كسائر الأفعال نفياً وإثباتاً . فإثباتها ونفيها نفي , لأن معناهـــا المقاربة , فمعنى كاد يفعل : قارب الفعل , ومعنى ما كاد يفعـــل : لـــم يقاربـــه , فخبرها منفي دائماً , ولكن النفي في الإثبات مستفاد من معاها , لأن الإخبار بقرب

---

(1) (البرهان) للزركشي صفحة 127 ج4 .

الشيء يقتضي عرفاً عدم حصوله , وإلا لم يتجه الإخبار بقربه , أما إذا كانت منفية فلأنه إذا انتفت مقاربة الفعل اقتضى عقلاً عدم حصوله , ويدل له قوله تعالى: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور: 40] ولهذا كان أبلغ من قوله : (لم يرها) لأن من لم ير قد يقارب الرؤية .

والثاني : أنها تختلف عن سائر الأفعال إثباتاً ونفياً فإثباتها نفي ونفيها إثبات ولذا قالوا : إنها إذا أثبتت نفت وإذا نفت أثبتت فإذا قيل : كاد يفعل فمعناه أنه لم يفعله بدليل قوله تعالى : ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: 73] لأنهم لم يفتتوه وإذا قيل لم يكد يفعل أنه فعل بدليل قوله تعالى : ﴿بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ﴾ [البقرة: 71] لأنهم فعلوا الذبح .

والثالث : أنها في النفي تدل على وقوع الفعل بعسر وشدة كقوله : ﴿بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ﴾ .

والرابع : التفصيل في النفي بين المضارع والماضي ففي المضارع نفي ونفي الماضي إثبات يدل على الأول قوله : ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ مع أنه لم ير شيئاً ويدل على الثاني قوله : ﴿بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ﴾ مع أنهم فعلوا .

والخامس : أنها في لنفي تكون للإثبات إذا كان ما بعدها متصلاً با قبلها ومتعلقاً به كذلك كقولك : ما كدت أصل إلى مكة حتى طفت بالبيت الحرام ومنه قوله تعالى :﴿بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ﴾ .

لفظ " جعل "

تاتي " جعل" في القرآن لعدة معان :

أحدها : بمنى " سمّى " كقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: 91] أي سموه كذباً وقوله : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: 19] على قول ويشهد له قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى*﴾ [النجم: 27] .

الثاني : بمعنى " أوجد" وتتعدى إلى مفعول واحد والفرق بينهما وبين لخلق أن الخلق فيه معنى التقدير ويكون عن عدم سابق حيث لا يتقدم مادة ولا سبب محسوس بخلاف الجعل بمعنى الإيجاد قال تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: 1] وإنما الظلمات والنور تنشأ عن إجرام توجد بوجودها وتعدم بعدمها .

الثالث : بمعنى النقل من حال إلى حال والتصيير فتتعدى إلى مفعولين : إما حساً كقوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً﴾ [البقرة: 22] وإما عقلاً كقوله : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: 5] .

الرابع : بمعنى الاعتقاد كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ﴾ [الأنعام:100] .

الخامس : بمعنى الحكم بالشيء حقاً كان أو باطلاً فالحق كقوله تعالى : ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ*﴾ [القصص: 7] والباطل كقوله : ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: 136] .

" لعل " و " عسى "

تستعمل " لعل " و " عسى " للرجاء والطمع في كلام المخلوقين حيث يشك الخلق في الأمور الممكنة ولا يقطعون على الكائن منها أما بالنسبة إلى الله تعالى :

(أ) فقيل : هما يدلان على الحصول والوجوب لأن نسبة الأمور إلى الله نسبة قطع ويقين .

(ب) وقيل إنهما للترجي على بابهما ولكن الترجي يكون بالنسبة إلى المخاطبين .

قال تعالى : ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا*﴾ [الإسراء: 79] وقال سبحانه : ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ*﴾ [المائدة: 100] .

الفرق بين المحكم والمتشابه [1]

أنزل الله الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً فرسم للخلق العقيدة السليمة والمبادئ القويمة في آيات بينات واضحة المعالم وذلك من فضل الله على الناس حيث أحكم لهم أصول الدين لتسلم لهم عقائدهم ويتبين لهم الصراط المستقيم

---

1 راجع هذا الفصل فيما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية عن المحكم والمتشابه والتأويل في التدمر وغيرها من رسائله .

وتلك الآيات هي أم لكتاب التي لا يفع الاختلاف في فهمها سلامة لوحدة الأمة الإسلامية وصيانة لكيانها : ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ*﴾ [فصلت: 3] .

وقد تأتي هذه الأصول الدينية في أكثر من موضع بالقرآن مع اختلاف اللفظ والعبارة والأسلوب إلا أن معناه يكون واحداً فيشبه بعضها الآخر ويوافقه معنى دون تناقص أما ما عدا تلك الأصول من فروع الدين فإن في آياتها من العموم والاشتباه ما يفسح المجال أما المجتهدين الراسخين في العلم حتى يردوها إلى المحكم ببناء الفروع على الأصول والجزئيات على الكليات – وإن زاغت بها قلوب أصحاب الهوى- وبهذا الإحكام في الأصول والعموم في الفروع كان الإسلام دين الإنسانية الخالد لذي يكفل لها خير الدنيا والآخرة على مر العصور والأزمان .

الإحكام العام والتشابه العام

المحكم لغة : مأخوذ من حكمت الدابة وأحكمت : بمعنى منعت , والحكم : هو الفصل بين الشيئين , فالحاكم يمنع الظالم ويفصل بين الخصمين , ويميز بين الحق والباطل , والصدق والكذب , ويقال : حكمت السفيه وأحكمته : إذا أخذت على يديه , وحكمت الدابة وأحكمتها : إذا جعلت لها حكمة : وهي ما أحاط بالحنك من اللجام لأنها تمنع الفرس عن الاضطراب و ومنه الحكمة : لأنها تمنع صاحبها عما لا يليق و وإحكام الشيء : إتقانه : والمحكم : المتقن .

فإحكام الكلام : إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره , والرشد من الغي في أوامره : والمحك منه : ما كان كذلك .

وقد وصف الله القرآن كله بانه محكم على هذا المعنى فقال ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1] وقال : ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: 1] فالقرآن كله محكم : أي أنه كلام متقن فصيح يميز بين الحق والباطل والصدق والكذب . وهذا هو الإحكام العام .

والمتشابه لغة : مأخوذ من التشابه : وهو أن يشبه أحد الشيئين الآخر , والشبهة : هي ألا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عيناً كان أو

معنى , قال تعالى : ﴿وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ [البقرة: 25] أي يشبه بعضه بعضاً لوناً لا طعماً وحقيقة , وقيل متماثلاً في الكلام والجودة .

وتشابه الكلام : هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضاً , وقد وصف الله القرآن كله بأنه متشابه على هذا المعنى فقال : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: 23] فالقرآن كله متشابه : أي أنه يشبه بعضه بعضاً في الكمال والجودة و ويصدق بعضه بعضاً في المعنى ويماثله و وهذا هو التشابه العام .

وكل من المحكم والمتشابه بمعناه المطلق المتقدم لا ينافي الآخر , فالقرآن كله محكم بمعنى الإتقان , وهو متماثل يصدق بعضه بعضاً , فإن الكلام المحكم المتقن تتفق معانيه إن اختلفت ألفاظه , فإذا أمر القرآن بامر لم يأمر به أو بنظيره, وكذلك الشأن في نواهيه وأخباره . فلا تضاد فيه ولا اختلاف ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا*﴾ [النساء : 82] .

الإحكام الخاص والتشابه الخاص

وهناك إحكام وتشابه خاص ذكرهما في قوله : ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:7] وفي معناهما وقع الاختلاف على أقوال أهمها :

(أ) المحكم : ما عرف المراد منه – والمتشابه ما استأثر الله بعلمه .

(ب) المحكم : ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً – والمتشابه : ما احتمل أوجهاً .

(ج) المحكم : ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان – والمتشابه : ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره .

ويمثلون للمحكم في القرآن بناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ووعده ووعيده , وللمتشابه : بمنسوخه وكيفيات أسماء وصفاته التي في قوله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:5] وقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ

لَهُ﴾ [القصص:88] وقوله : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح:10] وقوله : ﴿وَهُــوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:18] وقوله : ﴿وَجَاء رَبُّكَ﴾ [سورة الفجر:22] وقوله: ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح :6] وقوله : ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة:8] وقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾ [آل عمران:31] إلى غير ذلك , وأوائل السور المفتتحــة بحروف المعجم وحقائق اليوم الآخر وعلم الساعة .

الاختلافُ في مَعرفةِ المتشابَه

وكما وقع الاختلاف في معنى كل من المحكم والمتشابه الخاصين وقع الاختلاف في إمكان معرفة المتشابه، ومنشأ هذا الاختلاف اختلافهم في الوقف في قوله تعالى: **(**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ**)** هل هو مبتدأ خبره **(**آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ**)** والواو للاستئناف، والوقف على قوله: **(**زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ**)**؟ أو هو معطوف (ويقولون) حال، والوقف على قوله: **(**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ**)**.

فذهب إلى الأول (الاستئناف) طائفة منهم أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، مستدلين بمثل ما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ ((وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به)).

وبقراءة ابن مسعود ((وإن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به)).

وبما دلت عليه الآية من ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة. وعن عائشة قالت: تلا رسول الله **r** هذه الآية **(**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ**)** - إلى قوله تعالى- **(** الألْبَابِ**)** قال رسول الله **r**: ((فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم))[1].

وذهب إلى الرأي الثاني (العطف) طائفة على رأسهم مجاهد، فقد روي عنه أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أقفه عند كل آية وأسأله عن تفسيرها. واختار هذا القول النووي، فقال في شرح مسلم: إنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته.

---

1 أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

التوفيق بَين الرأيين بفهم مَعنى التأويل

بالرجوع إلى معنى (التأويل) يتبين أنه لا منافاة بين الرأيين، فإن لفظ التأويل ورد لثلاثة معان:

(الأول) صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو اصطلاح أكثر المتأخرين.

(الثاني) التأويل بمعنى التفسير، فهو الكلام الذي يفسر به اللفظ حتى يفهم معناه.

(الثالث) التأويل: هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فتأويل ما أخبر الله به عن ذاته وصفاته هو حقيقة ذاته المقدسة وما لها من حقائق الصفات، وتأويل ما أخبر الله به عن اليوم الآخر هو نفس ما يكون في اليوم الآخر. وعلى هذا المعنى جاء قول عائشة: كان رسول الله r يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)) يتأول القرآن. تعني قوله تعالى: **(**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**)** [النصر:3][1].

فالذين يقولون بالوقف على قوله: **(**زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ**)** ويجعلون **(**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ **)** استئنافاً، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثالث، أي الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فحقيقة ذات الله وكنهها وكيفية أسمائه وصفاته وحقيقة المعاد لا يعلمها إلا الله.

والذين يقولون بالوقف على قوله: **(**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ **)** على أن الواو للعطف وليست للاستئناف، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثاني أي التفسير، ومجاهد إمام المفسرين، قال الثوري فيه: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، فإذا ذكر أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به أنه يعرف تفسيره.

وبهذا يتضح أنه لا منافاة بين المذهبين في النهاية، وإنما الأمر يرجع إلى الاختلاف في معنى التأويل.

---

1 رواه البخاري ومسلم.

ففي القرآن ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما نعلمه في الدنيا، ولكن الحقيقة ليست كالحقيقة، فأسماء الله وصفاته وإن كان بينها وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه في اللفظ والمعنى الكلي إلا أن حقيقة الخالق وصفاته ليست كحقيقة المخلوق وصفاته، والعلماء المحققون يفهمون معانيها ويميزون الفرق بينها، وأما نفس الحقيقة فهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله. ولهذا لما سُئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى: **(**{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**)** قالوا: ((الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)) وكذلك قال ربيعة بن عبد الرحمن شيخ مالك قبله: ((الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ومن الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا الإيمان)) فبين أن الاستواء معلوم، وأن كيفية ذلك مجهولة.

وكذلك الشأن بالنسبة إلى أخبار الله عن اليوم الآخر، ففيها ألفاظ تشبه معانيها ما هو معروف لدينا إلا أن الحقيقة غير الحقيقة. ففي الآخرة ميزان، وجنة نار. وفي الجنة **(**أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى**)**[محمد:15]. **(**فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ~ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ~ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ~ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**)** [الغاشية:13-16]. وذلك نعلمه ونؤمن به، وندرك أن الغائب أعظم من الشاهد، وما في الآخرة يمتاز عما في الدنيا، ولكن حقيقة هذا الامتياز غير معلومة لنا، وهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله.

التأويل المذموم

والتأويل المذموم بمعنى: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، إنما لجأ إليه كثير من المتأخرين مبالغة منهم في تنزيه الله تعالى عن مماثلته للمخلوقين كما يزعمون. وهذا زعم باطل أوقعهم في مثل ما هربوا منه أو أشد، فهم حين يؤولون اليد بالقدرة مثلاً إنما قصدوا الفرار من أن يثبتوا للخالق يداً لأن للمخلوقين يداً فاشتبه عليهم لفظ اليد فأولوها بالقدرة. ولك تناقض منهم. لأنهم يلزمهم في المعنى الذي أثبتوه نظير ما زعموا أنه يلزم في المعنى الذي نفوه، لأن العباد لهم قدرة أيضاً. فإن كان ما أثبتوه من القدرة حقاً

ممكناً كان إثبات اليد لله حقاً ممكناً أيضاً، وإن كان إثبات اليد باطلاً ممتنعـــاً لمـــا يلزمه من التشبيه في زعمهم كان إثبات القدرة باطلاً ممتنعاً كذلك. فلا يجـــوز أن يقال: إن هذا اللفظ مؤول بمعنى أنه مصروف عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح.

وما جاء عن أئمة السلف وغيرهم من ذم للمتأولين إنما هو لمثل هؤلاء الذين تأولوا ما يشتبه عليهم معناه على غير تأويله وإن كان لا يشتبه على غيرهم.

العَامّ وَالخاصّ

للنظم التشريعة والأحكام الدينية مقاصد تهدف إليهـا، وقـد يجتمـع للحكـم التشريعي خصائص تجعله عاماً يشمل كل الأفراد، أو ينطبق على جميع الحالات، وقد يكون لذلك القصد غاية خاصة فالتعبير عنه يتناول بعمومه الحكم ثم يأتي مـا يبين حده أو يحصر نطاقه، والبيان العربي في تلوين الخطـاب وبيـان المقاصـد والغايات مظهر من مظاهر قوة اللغة واتساع مادتها. فإذا ورد هذا في كـلام الله المعجز كان وقعه في النفس عنوان إعجاز تشريعي مع الإعجاز اللغوي.

تعريف العام وصيغ العموم

العام: هو اللفظ المستغرق لما يصلح له من غير حصر[1].

وقد اختلف العلماء في معنى العموم، أنه في اللغة صيغة موضوعة له خاصة به تدل عليه أم لا؟

فذهب أكثر العلماء إلى أن هناك صيغاً وضعت في اللغة للدلالة حقيقة علـى العموم، وتستعمل مجازاً فيما عداه، واستدلوا على ذلك بأدلة نـصية، وإجماعيـة ومعنوية.

(أ) فمن الأدلة النصية قوله تعالى: **(**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِـكَ**)** [هـود:45، 46] ووجه الدلالة أن نوحاً عليه السلام توجه بهذا النداء تمسكاً منـه بقولـه تعالى: **(**إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ**)** [العنكبوت:33] وأقره الله تعالى على هذا النداء، وأجابه بما دل على أنه ليس من أهله، ولولا أن إضافة الأهل إلى نوح للعموم لما صح ذلك.

ومنها قوله تعالى: **(**أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ**)** [العنكبوت: 31،32] ووجه الدلالـة أن إبراهيم فهم من قول الملائكة **(**الم**)** العموم، حيث ذكر ((لوطاً)) فأقره الملائكـة

---

1 انتقد الآمدي هذا التعريف- ولم أجد تعريفاً أتم منه، كما انتقد تعريف الخاص الذي سيأتي- انظر ((الإحكام في أصول الأحكام- صفحة181 ج2 ط الحلبي.

على ذلك، وأجابوه بتخصيص لوط وأهله بالاستثناء، واستثناء امرأته من الناجين، وذلك كله يدل على العموم.

(ب) ومن الأدلة الإجماعية إجماع الصحابة على إجراء قوله تعالى: **(**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ**)** [النور:2][1] وقوله: **(**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا**)** [المائدة:38][2] ونحو ذلك على العموم في كل زان وسارق.

(ج) ومن الأدلة المعنوية، أن العموم يفهم من استعمال ألفاظه، ولو لم تكن هذه الألفاظ موضوعة له لما تبادر إلى الذهن فهمه منها، كألفاظ الشرط والاستفهام والموصول.

وأننا ندرك الفرق بين ((كل)) و((بعض)) ولو كان ((كل)) غير مفيد للعموم لما تحقق الفرق.

ولو قال قائل في النكرة المنفية ((لا رجل في الدار)) فإنه يعد كاذباً إذا قدر أنه رأى رجلاً ما، كما ورد قوله تعالى: **(** قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى**)** [الأنعام:91] تكذيباً لمن قال: **(**مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ**)** [الأنعام:91] وهذا يدل على أن النكرة بعد النفي للعموم، ولو لم تكن للعموم لما كان قولنا ((لا إله إلا الله)) توحيداً لعدم دلالته على نفي كل إله سوى الله تعالى[3].

وبناءً على هذا فللعموم صيغة التي تدل عليه.

منها ((كل)) كقوله تعالى: **(**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**)** [آل عمران:185] وقوله: **(**خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**)** [الأنعام:102] ومثلها جميع.

ومنها: المعروف بأل التي ليست للعهد كقوله: **(**وَالْعَصْرِ ~ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ~ **)** [العصر:1، 2] أي كل إنسان، بدليل قوله بعد **(**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**)** [العصر:3] وقوله: **(**وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ**)** [البقرة:275] وقوله: **(** وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا**)** [المائدة:5].

---

1 تخصيص الآية بغير المحصن جاء بأدلة مخصصة هي التي وردت في رجم المحصن الحر.

2 تخصيص الآية باعتبار الحرز ومقدار المسروق جاء بأدلة مخصصة كذلك.

3 أغفلنا آراء الآخرين فلم نذكرها حيث لا نرى حاجة إليها.

ومنها: النكرة في سياق النفي والنهي كقوله: (فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ) [البقرة:197] وقوله: (فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا) [الإسراء:23] أو في سياق الشرط كقوله: (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ) [براءة:6].

ومنها: الذي والتي وفروعهما كقوله: (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا) [الأحقاف:17] أي كل من قال ذلك بدليل قوله بعد بصيغة الجمع (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) [الأحقاف:18] وقوله: (وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا) [النساء:16] وقوله: (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) [الطلاق:4].

وأسماء الشرط كقوله تعالى: (فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا) [البقرة:158] للعموم في العاقل، وقوله: (وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ) [البقرة:197] للعموم في غير العاقل، وقوله: (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) [البقرة:150] للعموم في المكان، وقوله: (أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى) [الإسراء: 110].

أقسام العام

والعام على ثلاثة أقسام:

الأول: الباقي على عمومه، وقد قال القاضي جلال الدين البلقيني[1]:

((ومثاله عزيز، إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص، وذكر الزركشي في (البرهان) أنه كثير في القرآن. وأورد منه قوله تعالى: (وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [النساء:176] وقوله: (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [الكهف:49] وقوله: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي

---

1 هو عبد الرحمن بن رسلان، أبو الفضل جلال الدين البلقيني، كان عالماً بارعاً في الفقه والتفسير وأصول العربية، وله تعليق على البخاري سماه: ((الإفهام لما في صحيح البخاري من الإبهام)) تولى القضاء في مصر، وتوفي سنة 824هـ وانظر الإتقان، صفحة 16ج2.

حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**)** [النساء:23] فإنه لا خصوص فيها.

الثاني: العام المراد به الخصوص- كقوله تعالى: **(**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ**)** [آل عمران: 173] فالمراد بالناس الأولى نعيم ابن مسعود، والمراد بالناس الثانية أبو سفيان لا العموم في كل منهما، يدل على هذا قوله تعالى بعد: **(**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ**)** فوقعت الإشارة بقوله: **(**ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**)** إلى واحد بعينه، ولو كان المعنى به جمعاً لقال: (إنما أولئكم الشيطان) وكقوله تعالى: **(**فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ**)** [آل عمران: 39] والمنادي جبرائيل كما في قراءة ابن مسعود وقوله: **(**ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ**)** [البقرة: 199] والمراد بالناس إبراهيم، أو سائر العرب غير قريش.

الثالث: العام المخصوص- وأمثلته في القرآن كثيرة جداً وستأتي.

ومنه قوله تعالى: **(**وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**)** [البقرة:187] وقوله: **(**وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**)** [آل عمران: 97].

الفرق بين العام المراد به الخصوصي والعام المخصوص

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص من وجوه، أهمها:

1- أن العام المراد به الخصوص لا يراد شموله لجميع الأفراد من أول الأمر، لا من جهة تناول اللفظ، ولا من جهة الحكم، بل هو ذو أفراد استعمل في فرد واحد منها أو أكثر.

أما العام المخصوص فأريد عمومه وشموله لجميع الأفراد من جهة تناول اللفظ لا من جهة الحكم، فالناس في قوله: **(** الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ**)** وإن كان عاماً إلا أنه لم يرد به لفظاً وحكماً سوى فرد واحد، أما لفظ الناس في قوله: **(** وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ**)** فهو عام أُريد به ما يتناوله اللفظ من الأفراد. وإن كان حكم وجوب الحج لا يتناول إلا المستطيع منهم خاصة.

2- والأول مجاز قطعاً، لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلي واستعماله في بعض أفراده، بخلاف الثاني فالأصح فيه أنه حقيقة، وعليه أكثر الشافعية، وكثير من الحنفية، وجميع الحنابلة، ونقله إمام الحرمين[1] عن جميع الفقهاء، وقال الشيخ أبو حامد الغزالي: إنه مذهب الشافعي وأصحابه، وصححه السبكي، لأن تناول اللفظ للبعض الباقي بعد التخصيص كتناوله له بلا تخصيص، وذلك لتناول حقيقي اتفاقاً، فليكن هذا التناول حقيقياً أيضاً.

3- وقرينة الأول عقلية غالباً ولا تنفك عنه، وقرينة الثاني لفظية وقد تنفك.

تعريفُ الخاصّ وبَيان المخصِّص

والخاص: يقابل العام، فهو الذي لا يستغرق الصالح له من غير حصر والتخصيص: هو إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام، والمخصص: إما متصل: وهو الذي لم يفصل فيه بين العام والمخصص له بفاصل، وإما منفصل: وهو بخلافه، والمتصل خمسة: أحدها: الاستثناء، كقوله تعالى: **(**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ~ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا**)** [النور:4، 5] وقوله: **(**إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ~ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ**)** [المائدة:33، 34].

الثاني: الصفة: كقوله تعالى: **(**وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ**)** [النساء:23] فقوله: **(**كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**)** صفة لنسائكم، والمعنى أن الربيبة من المرأة المدخول بها محرمة على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها.

الثالث: الشرط: كقوله: **(**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**)** [البقرة:180] فقوله: **(**الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا**)** أي مالاً، شرط في الوصية، وقوله: **(**وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا**)** [النور:33] أي قدرة على

---

1 إمام الحرمين، هو عبد الملك بن أبي عبد الله بن محمد الجويني الشافعي العراقي، أبو المعالي، كان شيخ الإمام الغزالي، ومن أعلم أصحاب الشافعي، توفي سنة 478 هجرية.

الأداء، أو أمانة وكسباً.

الرابع: الغاية: كقوله: ﴿ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ﴾ [البقرة: 196] وقوله: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة:222].

الخامس: بدل البعض من الكل: كقوله تعالى: ﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: 97] فقوله: ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ﴾ بدل من الناس، فيكون وجوب الحج خاصاً بالمستطيع.

والمخصص المنفصل: ما كان في موضع آخر من آية أو حديث أو إجماع أو قياس. فما خص بالقرآن كقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ﴾ [البقرة:228] فهو عام في كل مطلقة حاملاً كانت أو غير حامل، مدخولاً بها أو غير مدخول بها، خص بقوله: ﴿ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:4] وبقوله: ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ [الأحزاب:49].

وما خص بالحديث كقوله تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275] خص من البيع البيوع الفاسدة التي ذكرت في الحديث، كما في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه قال: ((نهى رسول الله r عن عسب الفحل)) وفي الصحيحين عن ابن عمر: ((أن رسول الله r نهى عن بيع حبل الحبلة)) وكان بيعاً تبتاعه الجاهلية، كان الرجل يبتاع الجزور إلى أن تُنْتَج الناقة ثم تنتج التي في بطنها))- واللفظ للبخاري، إلى غير ذلك من الأحاديث.

ورخص من الربا العرايا بالسنة فإنها مباحة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ((أن رسول الله r رخص في بيع العرايا بخرصها فيما دون خمسة أوسق أو في خمسة أوسق))[1].

وما خص بالإجماع آية المواريث ﴿يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:11] خص منها بالإجماع الرقيق لأن الرق مانع من الإرث.

وما خص بالقياس آية الزنا ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ

---

1 متفق عليه.

جَلْدَةٍ**)** [النور:2] خص منها العبد بالقياس على الأمة التي نص على تخصيصها عموم الآية في قوله تعالى: **(** فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ**)** [النساء:25].

تخصيصُ السُّنّة بالقرآن

وقد يخصص القرآن السنة، ويمثلون لذلك بما روي عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميت[1])) فهذا الحديث خص بقوله تعالى: **(**وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ**)** [النحل:80].

صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقي

اختلف العلماء في صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقي، والمختار عند المحققين صحة الاحتجاج به فيما وراء صور التخصيص[2]، واستدلوا على ذلك بأدلة إجماعية، وأدلة عقلية.

(أ) فمن أدلة الإجماع: أن فاطمة رضي الله عنها احتجت على أبي بكر رضي الله عنه في ميراثها من أبيها بعموم قوله تعالى: **(** يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**)** [النساء:11] مع أنه مخصص بالكافر والقاتل، ولم ينكر أحد من الصحابة صحة احتجاجها مع ظهوره وشهرته، فكان إجماعاً على صحة احتجاجها، ولذا عدل أبو بكر رضي الله عنه في حرمانها إلى الاحتجاج بقوله ﷺ: ((نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة))[3].

(ب) ومن الأدلة العقلية:أن العام قبل التخصيص حجة في كل واحد من أقسامه إجماعاً، والأصل بقاء ما كان قبل التخصيص بعده، إلا أن يوجد له معارض، وليس هناك معارض فيما وراء صور التخصيص، فيظل العام بعد التخصيص حجة فيما بقي.

---

1 أخرجه أبو داود، والترمذي وحسنه واللفظ له.

2 أنكر الاحتجاج به عيسى بن أبان وأبو ثور مطلقاً، وقال البلخي: إن خص بدليل متصل كالشرط والصفة والاستثناء فهو حجة، وإن خص بدليل منفصل فليس بحجة- انظر الآمدي ص213 ج2.

3 الحديث في الصحيحين وغيرهما.

ما يشمله الخِطَاب

اختلف في الخطاب الخاص بالرسول r كقوله تعالى: **(**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**)** [الأحزاب:1] وقوله: **(** يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**)** [المائدة:41] هل يشمل الأمة أم لا يشملها؟

(أ) فذهب قوم إلى أنه يشملها باعتباره قدوة لها.

(ب) وذهب آخرون إلى أنه لا يشملها لأن الصيغة تدل على اختصاصه بها.

واختلفوا أيضاً في الخطاب من الله تعالى بيأيها الناس كقوله: **(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**)** [النساء:1] هل يشمل الرسول أم لا؟ والصحيح في ذلك أنه يشمله لعمومه وإن كان الخطاب قد ورد على لسانه ليبلغ غيره.

وقد فصل بعضهم فقال: إن اقترن الخطاب بقل لم يشمله لأن ظاهره البلاغ كقوله: **(** قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**)** [الأعراف: 158] وإلا شمله.

وما ورد من الخطاب مضافاً إلى الناس أو المؤمنين كقوله: **(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**)** [الحجرات:13] وقوله: **(** يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**)** [المائدة:90].

فالمختار في الأول إنه يشمل الكافر والعبد والأنثى.

والمختار في الثاني أنه يشمل الأخيرين فقط لمراعاة التكليف بالنسبة إلى الجميع، وخروج العبد عن بعض الأحكام كوجوب الحج والجهاد إنما هو لأمر عارض كفقره واشتغاله بخدمة سيده.

ومتى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير. وأكثر خطاب الله تعالى في القرآن بلفظ التذكير، والنساء يدخلن في جملته. وقد يأتي ذكرهن بلفظ مفرد تبييناً وإيضاحاً. وهذا لا يمنع دخولهن في اللفظ العام الصالح لهن، كما جاء في قوله تعالى: **(** وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى**)** [النساء:124].

النَاسِخ والمنسُوخ[1]

تنزل التشريعات السماوية من الله تعالى على رسله لإصلاح الناس في العقيدة والعبادة والمعاملة. وحيث كانت العقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها على توحيد الألوهية والربوبية فقد اتفقت دعوة الرسل جميعاً إليها **(** وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ **)** [الأنبياء:25] – أما العبادات والمعاملات فإنها تتفق في الأسس العامة التي تهدف إلى تهذيب النفس والمحافظة على سلامة المجتمع وربطه برباط التعاون الإخاء، إلا أن مطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها، وما يلائم قوماً في عصر قد لا يلائمهم في آخر، ومسلك الدعوة في طور النشأة والتأسيس يختلف عن شرعتها بعد التكوين والبناء، فحكمة التشريع في هذه غيرها في تلك، ولا شك أن المشرع سبحانه وتعالى يسع كل شيء رحمة وعلماً، ولله الأمر والنهي **(**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**)** [الأنبياء:23] فلا غرابة في أن يرفع تشريع بآخر مراعاة لمصلحة لعباد عن علم سابق بالأول والآخر.

تعريف النسخ وشروطه

والنسخ لغة: يطلق بمعنى الإزالة، ومنه يقال: نسخت الشمس الظل: أي أزالته. ونسخت الريح أثر المشي- ويطلق بمعنى نقل الشيء من موضع إلى موضع، ومنه نسخت الكتاب: إذا نقلت ما فيه. وفي القرآن **(** إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**)** [الجاثية:29] والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف.

والنسخ في الاصطلاح: رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي- فخرج بالحكم رفع البراءة الأصلية، وخرج بقولنا: بخطاب شرعي: رفع الحكم بموت أو جنون أو إجماع أو قياس.

---

1 أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون: منهم أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو داود السجستاني، وأبو جعفر النحاس، وابن الأنباري، ومكي، وابن العربي، وآخرون، انظر الإتقان صفحة 20ج2. ومن المعاصرين: الدكتور مصطفى زيد ((النسخ في القرآن)).

ويطلق الناسخ على الله تعالى كقوله: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة:106] وعلى الآية وما يعرف به النسخ، فيقال: هذه الآية ناسخة لآية كذا، وعلى الحكم الناسخ لحكم آخر.

والمنسوخ هو الحكم المرتفع، فآية المواريث مثلاً أو ما فيها من حكم ناسخ لحكم الوصية الوالدين والأقربين كما سيأتي، ومقتضى ما سبق أنه يشترط في النسخ:

1- أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً.
2- أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطاباً شرعياً متراخياً عن الخطاب المنسوخ حكمه.
3- وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين. وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته ولا يعد هذا نسخاً. قال ((مكي))[1]:

((ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مشعراً بالتوقيت والغاية مثل قوله في البقرة ﴿ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ﴾[2] محكم غير منسوخ، لأنه مؤجل بأجل، والمؤجل بأجل لا نسخ فيه.

ما يقع فيه النسخ

ومن هنا يعلم أن النسخ لا يكون إلا في الأوامر والنواهي- سواء كانت صريحة في الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر أو النهي على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التي ترجع إلى ذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر، أو الآداب الخلقية، أو أصول العبادات والمعاملات لأن الشرائع كلها لا تخلو عن هذه الأصول. وهي متفقة فيها، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ

---

1 هو مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي المقرئ يكنى أبا محمد، وأصله من القيروان، كثير التأليف في علوم القرآن والعربية، له كتاب في ((الناسخ والمنسوخ، سكن قرطبة، ورحل إلى مصر مرتين، توفي سنة437هـ.

2 سورة البقرة، الآية:109.

أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) [الشورى: 13] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ) [البقرة:183] وقال: ({وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا) [الحج:27] وقال في القصاص: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ) [المائدة:45] وقال في الجهاد (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ) [آل عمران: 145] وفي الأخلاق ({وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) [لقمان:18].

كما لا يدخل لنسخ الخبر الصريح الذي ليس بمعنى الطلب كالوعد والوعيد.

ما به يعرف النسخ وأهميته

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمفسرين حتى لا تختلط الأحكام، ولذلك وردت آثار كثيرة في الحث على معرفته، فقد روي أن علياً رضي الله عنه مرَّ على قاض فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، فقال: هلكت وأهلكت، وعن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: (يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) [البقرة:269] قال ((ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره، وحرامه وحلاله))[1].

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ طرق:

1- النقل الصريح عن النبي r أو عن صحابي كحديث ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها)) رواه الحاكم. وقول أنس في قصة أصحاب بئر معونة كما سيأتي: ونزل فيهم قرأناه حتى رفع[2].

2- إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ.

3- معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ.

---

1 أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

2 هم بعث من أصحاب رسول الله بعثهم إلى أهل نجد، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل من بني سليم من عصية ورحل وذكوان- وأحاطوا بهم وقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم.

ولا يعتمد في النسخ على الاجتهاد، أو قول المفسرين، أو التعارض بين الأدلة ظاهراً، أو تأخر إسلام أحد الراويين.

الآراء في النسخ وأدلة ثبوته

والناس في النسخ على أربعة أقسام:

1- اليهود: وهؤلاء ينكرونه لأنه يستلزم في زعمهم البداء، وهو الظهور بعد الخفاء، وهم يعنون بذلك: أن النسخ إما أن يكون لغير حكمة، وهذا عبث محال على الله، وإما أن يكون لحكمة ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل، وهذا يستلزم البداء وسبق الجهل، وهو محال على الله تعالى.

واستدلالهم هذا فاسد، لأن كلاً من حكمة الناسخ وحكمة المنسوخ معلوم لله تعالى من قبل، فلم يتجدد علمه بها. وهو سبحانه ينقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة معلومة له من قبل بمقتضى حكمته وتصرفه المطلق في ملكه.

واليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها. وجاء في نصوص التوراة النسخ، كتحريم كثير من الحيوان على بني إسرائيل بعد حله، قال تعالى في إخباره عنهم **(** كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ **)** [آل عمران:93] وقال: **(** وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ **)** [الأنعام:146] الآية. وثبت في التوراة أن آدم كان يزوج من الأخت. وقد حرم الله ذلك على موسى، وأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف عنهم.

2- الروافض: وهؤلاء غالوا في إثبات النسخ وتوسعوا فيه، وأجازوا البداء على الله تعالى، فهم مع اليهود على طرفي نقيض، واستدلوا على ذلك بأقوال نسبوها إلى علي رضي الله عنه زوراً وبهتاناً، وبقوله تعالى: **(** يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ **)** [الرعد:39] على معنى أنه يظهر له المحو والإثبات.

وذلك إغراق في الضلال، وتحريف للقرآن. فإن معنى الآية: ينسخ الله ما يستصوب نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته، وكلٌّ من المحو والإثبات موجود في كثير من الحالات، كمحو السيئات بالحسنات **(** إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

السَّيِّئَاتِ) [هود:114] ومحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة وإثبات إيمانهم وطاعتهم. ولا يلزم من ذلك الظهور بعد الخفاء، بل يفعل الله هذا مع علمه به قبل كونه.

3- أبو مسلم الأصفهاني[1]: وهو يجوز النسخ عقلاً ويمنع وقوعه شرعاً، وقيل يمنعه في القرآن خاصة محتجاً بقوله تعالى: **(**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**)** [فصلت:42] على معنى أن أحكامه لا تبطل أبداً. ويحمل آيات النسخ على التخصيص.

ورد عليه بأن معنى الآية أن القرآن لم يتقدمه ما يبطله من الكتب ولا يأتي بعده ما يبطله.

4- وجمهور العلماء: على جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً لأدلة:

1- لأن أفعال الله لا تعلل بالأغراض، فله أن يأمر بالشيء في وقت وينسخه بالنهي عنه في وقت، وهو أعلم بمصالح العباد.

2- ولأن نصوص الكتاب والسنة دالة على جواز النسخ ووقوعه:

(أ) قال تعالى: **(** وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ**)** [النحل:101] وقال: **(** مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**)** [البقرة:106].

(ب) وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنه: قال: قال عمر رضي الله عنه: أقرؤنا أبيّ، وأقضانا، وإنا لندع من قول أبيّ، وذاك أن أبياً يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله **r**، وقد قال الله عز وجل: **(** مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا**)**.

أقسام النسخ

والنسخ أربعة أقسام:

القسم الأول: نسخ القرآن بالقرآن: وهذا القسم متفق على جوازه ووقوعه من القائلين بالنسخ، فآية الاعتداد بالحول مثلاً نسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشراً، كما سيأتي في الأمثلة.

---

1 هو محمد بن بحر، المشهور بأبي مسلم الأصفهاني، معتزلي، من كبار المفسرين. أهم كتبه ((جامع التأويل)) في التفسير، توفي سنة322هـ.

القسم الثاني: نسخ القرآن بالسنة: وتحت هذا نوعان:

(أ) نسخ القرآن بالنسة الآحادية. والجمهور على عدم جوازه. لأن القرآن متـواتر يفيد اليقين، والآحادي مظنون، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون.

(ب) ونسخ القرآن بالسنة المتواترة. وقد أجاز مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية، لأن الكل وحي. قال تعالى: **(**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ~ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**)** [النجم:3، 4]. وقال: **(**بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**)** [النحل:44] والنسخ نوع من البيان- ومنعه الشافعي وأهـل الظـاهر وأحمد في الرواية الأخرى، لقوله تعالى: **(**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**)** [البقرة:106] والسنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله.

القسم الثالث: نسخ السنة بالقرآن، ويجيزه الجمهور، فالتوجه إلى بيت المقدس كان ثابتاً بالسنة، وليس في القرآن ما يدل عليه، وقد نسخ بالقرآن في قوله: **(** فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**)** [البقرة:144] ووجوب صوم يوم عاشـوراء، كـان ثابتاً بالسنة ونسخ بقوله: **(**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**)** [البقرة:185][1] ومنـع هذا القسم الشافعي في إحدى روايتيه، وقال: ((وحيث وقع بالسنة فمعها قرآن، أو بالقرآن فمعه سنة عاضده تبين توافق الكتاب والسنة))[2].

القسم الرابع: نسخ السنة بالسنة: وتحت هذا أربعة أنواع:

1- نسخ متواترة بمتواترة.

2- ونسخ آحاد بآحاد.

3- ونسخ آحاد بمتواترة.

4- ونسخ متواترة بآحاد.

والثلاثة الأولى جائزة، أما النوع الرابع ففيه الخلاف الوارد في نسخ القـرآن بالسنة الآحادية، والجمهور على عدم جوازه.

أما النسخ كلٍّ من الإجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه.

---

1 أخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت: ((كان عاشوراء صياماً، فلما أنزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر)).

2 انظر الإتقان صفحة 21ج2.

أنواع النسخ في القرآن

والنسخ في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: نسخ التلاوة والكم معاً، ومثاله: ما رواه مسلم وغيره عن عائشة قالت: ((كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن فنسخن بخمس معلومات)) فتوفي رسول الله **r** ((وهن مما يقرأ من القرآن)) وقولها: ((وهن مما يقرأ في القرآن)) ظاهرة بقاء التلاوة، وليس كذلك، فإنه غير موجود في المصحف العثماني. وأجيب بأن المراد قارب الوفاة[1].

والأظهر أن التلاوة نسخت ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله **r**، فتوفي وبعض الناس يقرؤها.

وحكى القاضي أبو بكر في ((الانتصار)) عن قوم إنكار هذا القسم لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال القرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها تفيد القطع، ولكنها ظنية.

ويجاب على ذلك بأن ثبوت النسخ شيء، وثبوت نزول القرآن شيء آخر، فثبوت النسخ يكفي فيه الدليل الظني بخبر الآحاد، أما ثبوت نزول القرآن فهو الذي يشترط فيه الدليل الظني بخبر الآحاد، أما ثبوت نزول القرآن فهو الذي يشترط فيه الدليل القطعي بالخبر المتواتر، والذي معنا ثبوت النسخ لا ثبوت القرآن فيكفي فيه أخبار الآحاد. ولو قيل إن هذه القراءة لم تثبت بالتواتر لصح ذلك.

النوع الثاني: نسخ الحكم وبقاء التلاوة: ومثاله: نسخ حكم آية العدة بالحول مع بقاء تلاوتها- وهذا النوع هو الذي ألفت فيه الكتب وذكر المؤلفون فيه الآيات المتعددة. والتحقيق أنها قليلة، كما بين ذلك القاضي أبو بكر بن العربي[2].

وقد يقال ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟

والجواب من وجهين: أحدهما: أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه، والعمل به، فإنه يتلى كذلك لكونه كلام الله تعالى فيثاب عليه، فتركت التلاوة لهذه الحكمة.

---

1 هو أبو بكر محمد ب عبد الله بن محمد بن عبد الله المعافري، أحد فقهاء أشبيلية وعلمائها رحل إلى المشرق، ثم عاد إلى المغرب، وتوفي سنة544هـ.

2 رواه البخاري تعليقاً عن عمر.

وثانيهما: أن النسخ غالباً يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيراً بالنعمة في رفع المشقة.

وأما حكمة النسخ قبل العمل، كالصداقة عند النجوى، فيثاب على الإيمان به، وعلى نية طاعة الأمر.

النوع الثالث: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم: وقد ذكروا له أمثلة كثيرة، منها آية الرجم ((الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم)) ومنها ما روي في الصحيحين عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا وقنت الرسول يدعو على قاتليهم، قال أنس: ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع ((أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا، ثم نسخت تلاوته- وبعض أهل العلم ينكر هذا النوع من النسخ. لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد قال ابن الحصار: ((إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله r ، أو عن صحابي يقول: آية كذا نسخت كذا، قال: وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر، قال ولا يعتمد في النسخ على قول عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صريح، ولا معارضة بينه، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر في عهده r ، والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد، قال: والناس في هذا بين طرفي نقيض، فمن قائل لا يقبل في النسخ أخبار الآحاد الدول، ومن متساهل يكتفي فيه بقول مفسر أو مجتهد، والصواب خلاف قولهما))[1].

وقد يقال: إن الآية والحكم لمستفاد منها متلازمتان، لأن الآية دليل على الحكم. فإذا نسخت الآية نسخ حكمها. وإلا وقع الناس في لبس.

ويجاب عن ذلك بأن هذا التلازم يسلم لو لم ينصب الشارع دليلاً على نسخ التلاوة، وعلى إبقاء الحكم، أما وقد نصب الدليل على نسخ التلاوة وحدها، وعلى

1 انظر الإتقان، صفحة 24ج2.

إبقاء الحكم واستمراره فإن التلازم يكون باطلاً، وينتفى اللبس بهذا الدليل الشرعي الذي يدل على نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

حكمة النسخ

1- مراعاة مصالح العباد.

2- تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس.

3- ابتلاء المكلف واختباره بالامتثال وعدمه.

4- إرادة الخير للأمة والتيسير عليها، لأن النسخ إن كان إلى أش ففيه زيادة الثواب، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويسر.

النسخ إلى بدل وإلى غير بدل

والنسخ يكون إلى بدل وإلى غير بدل- والنسخ إلى بدل: إما إلى بدل أخف، وإما إلى بدل مماثل، وإما إلى بدل أثقل:

1- فالنسخ إلى غير بدل: كنسخ الصدقة بين يدي نجوى رسول الله **r** في قوله تعالى: **(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً**)** [المجادلة:12]. نسخت بقوله: **(**أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**)** [المجادلة: 13].

وأنكر بعض المعتزلية والظاهرية ذلك، وقالوا: إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعاً، لأن الله تعالى يقول: **(**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**)** [البقرة:106]. حيث أفادت الآية أنه لابد أن يؤتى مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر خير منه أو مثله.

ويجاب عن ذلك بأن الله تعالى إذا نسخ حكم الآية بغير بدل فإن هذا يكون بمقتضى حكمته، رعاية لمصلحة عباده، فيكون عدم الحكم خيراً من ذلك الحكم المنسوخ في نفعه للناس، ويصح حينئذ أن يقال: إن الله نسخ حكم الآية السابقة بما هو خير منها حيث كان عدم الحكم خيراً للناس.

2- والنسخ إلى بدل أخف: يمثلون له بقوله تعالى: **(**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ**)** [البقرة:187] الآية فهي ناسخة لقوله: **(**كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ

مِن قَبْلِكُمْ) [البقرة:183] لأن مقتضاها الموافقة لما كان عليه السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء إذا صلوا العتمة أو ناموا إلى الليلة التالية، كما ذكروا ذلك، فقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: أنزلت (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ) كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة أو نام حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها، وروى مثله أحمد والحاكم وغيرهما، وفقه ((فأنزل الله عز وجل: (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ) الآية)).

3- **النسخ إلى بدل مماثل**: كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة في قوله: (تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ) [البقرة:144].

4- **والنسخ إلى بدل أثقل**: كنسخ الحبس في البيوت في قوله: (وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ) [النساء:15] الآية، بالجلد في قوله: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي) [النور:2] الآية. أو الرجم في قوله: ((الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة..))[1].

شبه النسخ

وللناسخ والمنسوخ أمثلة كثيرة، إلا أن العلماء في هذا:

(أ) منهم المكثر الذي اشتبه عليه الأمر فأدخل في النسخ ما ليس منه.

(ب) ومنهم المتحري الذي يعتمد على النقل الصحيح في النسخ.

ومنشأ الاشتباه عند المكثرين أمور أهمها:

1- اعتبار التخصيص نسخاً (انظر مبحث العام والخاص).

2- اعتبار البيان نسخاً (انظر مبحث المطلق والمقيد الآتي).

3- اعتبار ما شرع لسبب ثم زال السبب من المنسوخ، كالحث على الصبر وتحمل أذى الكفار في مبدأ الدعوة حين الضعف القلة، قالوا إنه منسوخ بآيات القتال، والحقيقة أن الأول- وهو وجوب الصبر والتحمل- كان ويكون لحالة

---

1 اعترض بعض العلماء على هذا النوع محتجين بقوله تعالى: (يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) وقوله: (يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ) ويجاب عن ذلك بأن البدل إلى أثقل يكون ميسراً على المكلفين دون مشقة أو إرهاق مع ما فيه من زيادة النفع وعظيم الثواب، وثقله وصف له بالنسبة إلى ما قبله.

الضعف والقلة. وإذا وجدت الكثرة والقوة وجب الدفاع عن العقيدة بالقتـــال، وهو الحكم الثاني.

4- اعتبار ما أبطله الإسلام من أمر الجاهلية أو من شرائع الأمم السابقة نـــسخاً: كتحديد عدد الزوجات بأربع، ومشروعية القصاص والدية، وقد كان عند بني إسرائيل القصاص فقط كما قال ابن عباس رواه البخاري[1]، ومثل هذا لـــيس نسخاً، وإنما هو رفع للبراءة الأصلية.

أمثلة للنسخ

وقد ذكر السيوطي في الإتقان إحدى وعشرين آية اعتبرها من قبيـــل النـــسخ تذكر منها ما يأتي ونعلق عليه:

1- قال تعالى: **(**وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَـــا تُوَلُّـــواْ فَـــثَمَّ وَجْـــهُ اللّـــهِ**)** [البقرة:115] منسوخة بقوله: **(**تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ**)** [البقرة:144] وقد قيل – وهو الحق- إن الأولى غير منسوخة لأنها في صلاة التطوع في السفر على الراحلة وكذا في حال الخوف والاضـــطرار، وحكمهـــا بـــاق، كمـــا فـــي الصحيحين، والثانية في الصلوات الخمس، والصحيح أنها ناسخة لما ثبت في السنة استقبال بيت المقدس.

2- قوله تعالى: **(**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ**)** [البقرة:180] قيل منسوخه بآية المواريث، وقيل بحديث ((إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث))[2]!

3- قوله: **(** وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ**)** [البقرة:184] نسخت بقوله: **(** فَمَـــن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**)** [البقرة:185] لما في الصحيحين من حديث سلمة بـــن

---

1 أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن الدية فيهم، فقال الله لهذه الأمة **(** كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى**)** [البقرة:178] إلى قوله **(** فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ**)** فـــالعفو أن تقبل الدية في العمد **(** فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ**)** مما كتب على من كان قبلكم **(** فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ **)** قيل قبول الدية **(** فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**)**.

2 رواه أبو داود والترمذي، وقال: حسن صحيح.

الأكوع أنه قال: لما نزلت (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ) كان من أراد أن يفطر يفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها)).

وذهب ابن عباس إلى أنها محكمة غير منسوخة: روى البخاري عن عطاء أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ: (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ) قال ابن عباس: ليست بمنسوخة. هي للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان كل يوم مسكيناً)) وليس بمعنى (يطيقونه) على هذا يستطيعونه، وإنما معناه يتحملونه بمشقة وكلفة.

وبعضهم جعل الكلام على تقدير لا النافية، أو وعلى الذين لا يطيقونه.

4- قوله: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) [البقرة:217] نسخت بقوله: (وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [التوبة:36] وقيل يحمل عموم الأمر بالقتال على غير الأشهر الحرم فلا نسخ.

5- قوله: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ) [البقرة:240] نسخت بقوله: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) [البقرة:234].

وقيل إن الآية الأولى محكمة لأنها في مقام الوصية للزوجة إذا لم تخرج ولم تتزوج، أما الثانية فهي لبيان العدة، ولا تنافي بينهما.

6- قوله: (لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ) [البقرة:284] نسخت بقوله: (لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا) [البقرة:286].

7- قوله: (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ) [النساء:8] نسخت بآية المواريث وقيل- وهو الصواب- إنها غير منسوخة، وحكمها باق على الندب.

8- قوله: (وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ~ وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا) [النساء:15، 16]

نسختا بآية الجلد للبكر في سورة النور **(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ)** [النور:2] وبالجلد للبكر وبالرجم للثيب الوارد في السنة: ((...البكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم))[1].

9- قوله: **(إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ)** [الأنفال:65] نسخت بقوله: **(الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ)** [الأنفال:66].

10- قوله: **(انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً)** [التوبة:41] نسخت بقوله: **(لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى)** [التوبة:91] الآية، وبقوله: **(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً)** [التوبة:122] الآية.

وقيل إنه من باب التخصيص لا النسخ. وقد مرّ ذكر أمثلة أخرى.

---

1 رواه مسلم من حديث عبادة بن الصامت.

المطلق والمقيد[1]

بعض الأحكام التشريعية يرد تارة مطلقاً في فرد شـائع لا يتقيـد بـصفة أو شرط، ويرد تارة أخرى متناولاً له مع أمر زائد على حقيقته الشاملة لجنسه مـن صفة أو شرط، وإطلاق اللفظ مرة وتقييده أخرى من البيان العربـي، وهـو مـا يعرف في كتاب الله المعجز ((بمطلق القرآن ومقيده)).

تعريف المطلق والمقيد

والمطلـق: هو ما دل على الحقيقة بلا قيد، فهو يتناول واحداً لا بعينـه مـن الحقيقة، وأكثر مواضعه النكرة في الإثبات كلفظ (رقبة) في مثل (فتحرير رقبـة) فإنه يتناول عتق إنسان مملوك – وهو شائع في جنس العبيد مؤمنهم وكافرهم على السواء- وهو نكرة في الإثبات، لأن المعنى: فعليه تحرير رقبة، وكقولـه عليـه الصلاة والسلام: ((لا نكاح إلا بولي)) رواه أحمد والأربعة. وهو مطلق في جنس الأولياء سواء كان رشيداً أو غير رشيد، ولهذا عرفه بعض الأصوليين بأنه عبارة عن الكرة في سياق الإثبات، فقولنا ((نكرة)) احتراز عن أسماء المعـارف ومـا مدلوله واحد معين، وقولنا ((في سياق الإثبات)) احتراز عن النكرة في سياق النفي فإنها تعمّ جميع ما هو من جنسها.

والمقيد: هو ما دلَّ على الحقيقة بقيد، كالرقبة المقيدة بالإيمـان فـي قولـه: **(**فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ**)**.

أقسام المطلق والمقيد وحكم كل منها:

وللمطلق والمقيد صور عقلية نذكر منها الأقسام الواقعية فيما يلي:

1- أن يتحد السبب والحكم: كالصيام في كفارة اليمين: جاء مطلقاً في القراءة المتواترة بالمصحف **(**فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْـتُمْ**)** [المائدة:89] ومقيداً بالتتابع في قراءة ابن مسعود ((فصيام ثلاثة أيام متتابعات)) –

---

1 رواه مسلم من حديث عبادة بن الصامت.

فمثل هذا يحمل المطلق فيه على المقيد لأن السبب الواحد لا يوجب المتنافيين- ولهذا قال قوم بالتتابع[1]، وخالفهم من يرى أن القراءة غير المتواترة- وإن كانت مشهورة- ليست حجة، فليس هنا مقيد حتى يحمل عليه المطلق.

2- أن يتحد السبب ويختلف الحكم: كالأيدي في الوضوء والتيمم. قيد غسل الأيدي في الوضوء بأنه إلى المرافق، قال تعالى: **(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)** [المائدة:6] وأطلق المسح في التيمم قال تعالى: **(** فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ**)** [المائدة:6] فقيل لا يحمل المطلق على المقيد لاختلاف الحكم. ونقل الغزالي عن أكثر الشافعية حمل المطلق على المقيد هنا لاتحاد السبب وإن اختلف الحكم.

3- أن يختلف السبب ويتحد الحكم: وفي هذا صورتان:

(أ) **الأولى**: أن يكون التقييد واحداً. كعتق الرقبة في الكفارة، ورد اشتراط لإيمان في الرقبة بتقييدها بالرقبة المؤمنة في كفارة القتل الخطأ، قال تعالى: **(**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ**)** [النساء:92] وأطلقت في كفارة الظهار، قال تعالى: **(** فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا**)** [المجادلة:3] وفي كفارة اليمين، قال تعالى: **(**لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ**)** [المائدة:89] فقال جماعة منهم المالكية وكثير من الشافعية يحمل المطلق على المقيد من غير دليل، فلا تجزئ الرقبة الكافرة في كفارة الظهار واليمين، وقال آخرون –وهو مذهب الأحناف- لا

---

1 انظر الإتقان صفحة 31ج2.

يحمل المطلق على المقيد إلا بدليل، فيجوز إعتاق الكافرة في كفارة الظهار واليمين.

وحجة أصحاب الرأي الأول أن كلام اله تعالى متحد في ذاته، لا تعدد فيه، فإذا نص على اشتراط الإيمان في كفارة القتل، كان ذلك تنصيصاً على اشتراطه في كفارة الظهار، ولهذا حمل قوله تعالى: **(** وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا **)** على قوله في أول الآية: **(**وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا**)** [الأحزاب:35] من غير دليل خارج، أي والذاكرات الله كثيراً، والعرب من مذهبها استحباب الإطلاق اكتفاء بالقيد وطلباً للإيجاز والاختصار. وقد قال تعالى: **(**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ**)** [ق:17] والمراد: ((عن اليمين قعيد))، ولكن حذف الدلالة الثاني عليه[1].

وأما حجة أصحاب أبي حنيفة فإنهم قالوا: إن حمل **(** وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**)** على **(**وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا**)** جاء بدليل. ودليله أن قوله: **(**وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**)** معطوف على قوله: **(**وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا**)** ولا استقلال له بنفسه، فوجد رده إلى ما هو معطوف عليه ومشارك له في حكمه، ومثله العطف في قوله تعالى: **(**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ**)** وإذا امتنع التقيد من غير دليل، فلابد من دليل، ولا نص من كتاب أو سنة يدل على ذلك. والقياس يلزم منه رفع ما اقتضاه المطلق من الخروج عن العهدة بأي شيء كان، مما هو داخل تحت اللفظ المطلق، فيكون نسخاً، ونسخ النص لا يكون بالقياس.

ويجاب عن ذلك من أصحاب الرأي الأول بأننا لا نسلم أنه يلزم من قياس المطلق على المقيد نسخ النص المطلق، بل تقييده ببعض مسمياته، فتقيد (الرقبة) بأن تكون مؤمنة، فيكون الإيمان شرطاً في الخروج عن العهدة. كما أنكم تشترطون فيها صفة السلامة ولم يدل على ذلك نص من كتاب أو سنة.

---

1 وبه قال أبو حنيفة والثوري، وهو أحد قولي الشافعي.

(ب) الثانية: أن يكون التقييد مختلفاً، كالكفارة بالصوم، قيد الصوم بالتتابع في كفارة القتل، قال تعالى: **(** فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ **)** [النساء:92] وفي كفارة الظهار، قال تعالى: **(**فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا**)** [المجادلة:4] وجاء تقييده بالتفريق في صوم المتمتع بالحج. قال تعالى: **(**مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ**)** [البقرة:196] ثم جاء الصوم مطلقاً دون تقييد بالتتابع أو التفريق في كفارة اليمين قال تعالى: **(**فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ**)** [المائدة:89] وفي قضاء رمضان قال تعالى: **(**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**)** [البقرة: 184] فالمطلق في هذا لا يحمل على المقيد. لأن القيد مختلف. فحمل المطلق على أحدهما ترجيح بلا مرجح.

4- أن يختلف السبب ويختلف الحكم: كاليد في الوضوء. والسرقة. قيدت في الوضوء إلى المرافق، وأطلقت في السرقة. قال تعالى: **(**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا**)** [المائدة:38] فلا يحمل المطلق على المقيد للاختلاف سبباً وحكماً، وليس في هذا شيء من التعارض.

قال صاحب البرهان[1]: ((إن وجد دليل على تقييد المطلق صير إليه، وإلا فلا والمطلق على إطلاقه، والمقيد على تقييده، لأن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب، والضابط أن الله تعالى إذا حكم في شيء بصفة أو شرط ثم ورد حكم آخر مطلقاً نُظر، فإن لم يكن له أصل يُرد إليه ذلك الحكم المقيد وجب تقييده به، وإن كان له أصل غيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر.

---

1 انظر ((الإحكام)) للآمدي صفحة 5 ج3، و((البرهان)) للزركشي، صفحة16 ج2.

المنطوق والمفهوم

دلالة الألفاظ على المعاني قد يكون مأخذها من منطوق الكلام الملفوظ به نصاً أو احتمالاً بتقدير أو غير تقدير، وقد يكون مأخذها من مفهوم الكلام سواء وافق حكمها حكم المنطوق أو خالفه- وهذا هو ما يسمى: بالمنطوق والمفهوم[1].

تعريف المنطوق وأقسامه

المنطــوق: هو ما دل عليه اللفظ في محل النطق أي أن دلالته تكون من مادة الحروف التي ينطق بها.

ومنه: النص، والظاهر، والمؤول.

فالنص: هو ما يفيد بنفسه معنى صريحاً لا يحتمل غيره. كقوله تعالى: **(**لَّـمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ**)** [البقرة:196] فإن وصــف عشرة بكامله قطع احتمال العشرة لما دونها مجازاً. وهذا هو الغرض من النص- وقد نقل عن قوم أنهم قالوا بندرة النص جداً في الكتــاب والــسنة، وبــالغ إمــام الحرمين في الرد عليهم فقال: ((لأن الغرض من النص الاستقلال بإفادة المعنــى على القطع في انحسام جهات التأويل والاحتمال، وهذا وإن عز حصوله بوضــع الصيغ رداً إلى اللغة، فما أكثره مع القرائن الحالية والمقاليّة)).

والظاهر: هو ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع احتمــال غيــره احتمالاً مرجوحاً، فهو يشترك مع النص في أن دلالته في محل النطق، ويختلــف عنه في أن النص يفيد معنى لا يحتمل غيره، والظاهر يفيد معنى عند الإطلاق مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحاً كقوله تعالى: **(**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَــاغٍ وَلاَ عَــادٍ**)** [البقرة:173] فإن الباغي يطلق على الجاهل. ويطلق على الظالم، ولكن إطلاقــه على الظالم أظهر وأغلب فهو إطلاق راجــح، والأول مرجــوح، وكقولــه: **(**وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ**)** [البقرة:222] فانقطاع الحيض يقال فيه طهر، والوضــوء

---

1 صفحة 15ج2.

والغسل يقال فيهما طهر، ودلالة الطهر على الثاني أظهر، فهي دلالة راجحة، والأولى مرجوحة.

والمؤول: هو ما حمل لفظه على المعنى المرجوح لدليل يمنع من إرادة المعنى الراجح، فهو يخالف الظاهر في أن الظاهر يحمل على المعنى الراجح حيث لا دليل يصرفه إلى المعنى المرجوح، أما المؤول فإنه يحمل على المعنى المرجوح لوجود الدليل الصارف عن إرادة المعنى الراجح. وإن كان كل منهما يدل عليه اللفظ في محل النطق، كقوله تعالى: **(**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**)** [الإسراء:24] فإنه محمول على الخضوع والتواضع وحسن معاملة الوالدين. لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة.

دلالة الاقتضاء ودلالة الإشارة

قد تتوقف صحة دلالة اللفظ على إضمار، وتسمى بدلالة الاقتضاء، وقد لا تتوقف على إضمار ويدل اللفظ على ما لم يقصد به قصداً أولياً، وتسمى دلالة الإشارة:

فالأول: كقوله تعالى: **(**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**)** [البقرة:184]. أي فأفطر فعدة. لأن قضاء الصوم على المسافر إنما يجب إذا أفطر في سفره، أما إذا صام في سفره فلا موجب للقضاء خلافاً للظاهرية، وكقوله تعالى: **(**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ**)** [النساء:23] فإنه يتضمن إضمار الوطء ويقتضيه، أي وطء أمهاتكم، لأن التحريم لا يضاف إلى الأعيان، فوجب لذلك إضمار فعل يتعلق به التحريم وهو الوطء، وهذا النوع يقرب من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وهو من باب إيجاز القصر في البلاغة- وسمي اقتضاء لاقتضاء الكلام شيئاً زائداً على اللفظ.

والثاني: وهو دلالة الإشارة- كقوله تعالى: **(**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى

يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) [البقرة: 187\] فإنه يدل على صحة صوم من أصبح جنباً- لأنه يبيح الوطء إلى طلوع الفجر بحيث لا يتسع الوقت للغسل، وهذا يستلزم الإصباح على جنابة، وإباحة سبب الشيء نفسه، فإباحة الجماع إلى آخر جزء من الليل لا يتسع معه الغسل قبل الفجر إباحة للإصباح على جنابة.

وهاتان الدلالتان- الاقتضاء والإشارة- أخذا من المنطوق أيضاً، فهما من أقسام المنطوق، فالمنطوق على هذا يشمل 1- النص، 2- والظاهر، 3- والمؤول، 4- والاقتضاء، 5- والإشارة.

تعريف المفهوم وأقسامه:

المفهوم: - هو ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق- وهو قسمان: 1-مفهوم موافقة، 2-مفهوم مخالفة.

1- فمفهوم الموافقة: هو ما يوافق حكمه المنطوق- وهو نوعان:

(أ) **النوع الأول**: فحوى الخطاب:- وهو ما كان المفهوم فيه أولى بالحكم من المنطوق، كفهم تحريم الشتم والضرب من قوله تعالى: **(**فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ**)** [الإسراء:23] لأن منطوق الآية تحريم التأفيف، فيكون تحريم الشتم والضرب أولى لأنهما أشد.

(ب) النوع الثاني: لحن الخطاب: وهو ما ثبت الحكم فيه للمفهوم كثبوته للمنطوق على السواء- كدلالة قوله تعالى: **(**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا**)** [النساء:10] على تحريم إحراق أموال اليتامى أو إضاعتها بأي نوع من أنواع التلف لأن هذا مساو للأكل في الإتلاف.

وتسمية هذين بمفهوم الموافقة لأن المسكوت عنه يوافق المنطوق به في الحكم وإن زاد عليه في النوع الأول، وساواه في الثاني والدلالة فيه من قبيل التنبيه.

بالأدنى على الأعلى، أو بالأعلى على الأدنى، وقد اجتمعا في قوله تعالى: **(**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ**)** [آل عمران:75] فالجملة الأولى **(**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ**)** من التنبيه على

أنه يؤدي إليك الدينار وما تحته، والجملة الثانية **(**وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ**)** من التنبيه على أنك لا تأمنه بقنطار.

2- مفهوم المخالفة: هو ما يخالف حكمه المنطوق- وهو أنواع:-

(أ) **مفهوم صفة**: والمراد بها الصفة المعنوية، كالمشتق: في قوله تعالى: **(**إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا**)** [الحجرات:6] فمفهوم التعبير بفاسق أن غير الفاسق لا يجب التثبت في خبره، ومعنى هذا أنه يجب قبول خبر الواحد العدل. وكالحال: - في قوله: **(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ**)** [المائدة:95] فهو يدل على انتفاء الحكم في المخطئ، لأن تخصيص العمد بوجوب الجزاء به يدل على نفي وجوب الجزاء في قتل الصيد خطأ. وكالعدد:- في قوله: **(**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ**)** [البقرة:197] مفهومه أن الإحرام بالحج في غير أشهره لا يصح، وقوله: **(**فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً**)** [النور:4] مفهومه ألا يجلد أقل أو أكثر.

(ب) **مفهوم شرط**: - كقوله تعالى: **(**وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ**)** [الطلاق:6] فمعناه أن غير الحوامل لا يجب الإنفاق عليهن.

(ج) **مفهوم غاية**:- كقوله تعالى: **(**فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**)** [البقرة:230] فمفهوم هذا أنها تحل للأول إذا نكحت غيره بشروط النكاح.

(د) **مفهوم حصر**:- كقوله تعالى: **(**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**)** [الفاتحة:5] مفهومه أن غيره سبحانه لا يعبد ولا يستعان به، ولذلك كانت دالة على إفراده تعالى بالعبادة والاستعانة.

الاختلاف في الاحتجاج به

اختلف في الاحتجاج بهذه المفاهيم والأصح في ذلك أنها حجة بشروط، منها:-

(أ) ألا يكون المذكور خرج مخرج الغالب- فلا مفهوم للحجور في قوله تعالى: **(**وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم**)** [النساء:23]، لأن الغالب كون الربائب في حجور الأزواج.

(ب) ومنها ألا يكون المذكور لبيان الواقع- فلا مفهوم لقوله: **(**وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ**)** [المؤمنون:117] لأن الواقع أن أي إله لا برهان عليه، وقوله: **(** لَا بُرْهَانَ لَهُ**)** صفة لازمة جيء بها للتوكيد والتهكم بمدعي إله مع الله لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان- ومثله قوله: **(**وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا**)** [النور:33] فلا مفهوم له يدل على إباحة إكراه السيد لأمته على البغاء إن لم ترد التحصن، وإنما قال: **(** إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا**)** لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن. وعن جابر بن عبد الله قال: ((كان عبد الله بن أبي يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً، وكانت كارهة، فأنزل الله: **(**وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**)**)) وعن جابر أيضاً: ((إن جارية لعبد الله بن أبي، يقال لها مسيكة، وأخرى يقال لها أميمة. فكان يريدهما على الزنى. فشكتا ذلك إلى النبي **r** فأنزل الله **(** وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء**)**الآية[1].

والأمر في الاحتجاج بمفهوم الموافقة أيسر، فقد اتفق العلماء على صحة الاحتجاج به سوى الظاهرية. أما الاحتجاج بمفهوم المخالفة فقد أثبته مالك والشافعي وأحمد، ونفاه أبو حنيفة وأصحابه.

واحتج المثبتون بحجج نقلية وعقلية.

فمن الحجج النقلية: ما روي أنه لما نزل قوله تعالى: **(**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ**)** [التوبة:80] قال النبي **r** قد خيرني ربي، فوالله لأزيدَنّه على السبعين. ففهم النبي **r** أن ما زاد على السبعين بخلاف السبعين[2].

ومنها: ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من منع توريث الأخت مع البنت[3] استدلالاً بقوله تعالى: **(**امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا

---

1 أخرجها مسلم وغيره.

2 نقله ابن جرير بأسانيد كثيرة.

3 نقله ابن جرير وغيره عن ابن عباس.

تَرَكَ) [النساء:176] حيث أنه فهم من توريث الأخت مع عدم الولد امتناع توريثها مع البنت، لأنها ولد، وهو من فصحاء العرب، وترجمان القرآن.

ومنها: ما روي ((أن يعلى بن أمية قال لعمر: ما بالنا نقصر وقد أَمِنّا. وقد قال الله تعالى: (فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ) [النساء:101] ووجه الاحتجاج به أنه فهم من تخصيص القصر عند الخوف عدم القصر عند الأمن، ولم ينكر عليه عمر، بل قال: ((لقد عجبتُ مما عجبت منه، فسألت النبي r عن ذلك، فقال لي: ((هي صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته))[1] ويعلى بن أمية وعمر من فصحاء العرب، وقد فهما ذلك، والنبي r أقرهما عليه.

ومن الحجج العقلية: أنه لو كان حكم الفاسق وغير الفاسق سواء في قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا) [الحجرات:6] في وجوب التثبت في الخبر لما كان لتخصيص الفاسق بالذكر فائدة. وقس على ذلك سائر الأمثلة.

1 رواه الإمام أحمد، ورواه مسلم وأهل السنن.

إعجاز القرآن

هذا الكون الفسيح الذي يعج بمخلوقات الله تضاءلت جباله الشامخة، وبحاره الزاخرة، ومهاده الواسعة، أمام مخلوق ضعيف هو الإنسان، ذلك لما جمع الله فيه من خصائص، وما منحه من قوة التفكير التي تشع في الأرجاء لتسخر عناصر القوى الكونية، وتجعلها في خدمة الإنسانية. وما كان الله ليذر هذا الإنسان دون أن يمده بقبس من الوحي بين فترة وأخرى يقوده إلى معالم الهدى ليسلك دروب الحياة على بينة وبصيرة، إلا أن غلواءه الفطري يأبى عليه الخضوع لقرينه من بني الإنسان ما لم يأت له بما لا يستطيع حتى يعترف ويخضع ويؤمن بقدرة علياً فوق قدرته، فكان رسل الله الذين يتنزل عليهم الوحي ويؤيدهم الله بخوارق العادات التي تقيم الحجة على الناس فيعترفون أمامها بالعجز، ويدينون لها بالولاء والطاعة، ولكن العقل البشري كان في أطوار نموه الأولى لا يرى شيئاً يأخذ بلبه أقوى من المعجزات الكونية الحسية حيث لا يرقى عقله إلى السمو في المعرفة والتفكير، فناسب هذا أن يبعث كل رسول إلى قومه خاصة، وأن تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه خارقة لما ألفوه ليتحقق بعجزهم عنها إيمانهم بأنها من قوى السماء، فلما اكتمل العقل البشري أذن الله بفجر الرسالة المحمدية الخالدة إلى الناس كافة، وكانت معجزتها معجزة العقل البشري في أرقى تطورات نضجه ونموه، فبينما كان تأييد الله لرسله السابقين بآيات كونية تبهر الأبصار ولا سبيل للعقل في معارضتها. كمعجزة اليد والعصا لموسى، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى، كانت معجزة محمد r في عصر مشرف على العلم معجزة عقلية تحاج العقل البشري وتتحداه إلى الأبد، وهي معجزة القرآن بعلومه ومعارفه، وأخباره الماضية والمستقبلة، فالعقل الإنساني على تقدمه لا يعجز عن معارضته لأنه آية كونية لا قبل له بها. ولكن عجزه لقصوره الذاتي، فيكون هذا اعترافاً منه بأنه وحي الله إلى رسوله، وأن حاجته إلى الاهتداء به ماسة ليستقيم عوجه، وترقى مواهبه. وهذا المعنى، هو ما يشير إليه رسول الله r في قوله: ((ما من الأنبياء

نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً))[1].

وهكذا كتب الله لمعجزة الإسلام الخلود، فضعفت القدرة الإنسانية مع تراخي الزمن وتقدم العلم عن معارضتها.

والحديث عن إعجاز القرآن ضرب من الإعجاز لا يصل الباحث فيه إلى سر جانب منه حتى يجد وراءه جوانب أخرى يكشف عن سر إعجازها الزمن. فهو كما يقول الرافعي ((ما أشبه القرآن الكريم في تركيب إعجازه وإعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذي اكتنفه العلماء من كل جهة، وتعاوره من كل ناحية، وأخلقوا جوانبه بحثاً وتفتيشاً، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقاً جديداً، ومراماً بعيداً)).

تعريف الإعجاز وإثباته

الإعجاز: إثبات العجز، والعجز في التعارف: اسم للقصور عن فعل الشيء. وهو ضد القدرة، وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز، والمراد بالإعجاز هنا: إظهار صدق النبي ﷺ في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة- وهي القرآن- وعجز الأجيال بعدهم. **والمعجزة**: - **أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة**.

والقرآن الكريم تحدى به النبي ﷺ العرب، وقد عجزوا عن معارضته مع طول باعهم في الفصاحة والبلاغة، ومثل هذا لا يكون إلا معجزاً.

فقد ثبت أن الرسول ﷺ تحدى العرب بالقرآن على مراحل ثلاث:

(أ) **تحداهم بالقرآن** كله في أسلوب عام يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن تحدياً يظهر على طاقتهم مجتمعين، بقوله تعالى: **(**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ

---

1 رواه البخاري.

وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَـانَ بَعْـضُهُمْ لِـبَعْضٍ ظَهِيرًا**)** [الإسراء:88][1].

(ب) ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: **(**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَـأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَـادِقِينَ ~ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ**)** [هود:13، 14].

(ج) ثم تحداهم بسورة واحدة منه في قوله: **(** أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُـلْ فَـأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ**)** [يونس:38] وكرر هذا التحدي في قوله: **(**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّـا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**)** [البقرة:23].

ومن عنده إلمام قليل بتاريخ العرب وأدب لغتهم يدرك العوامل السابقة لبعثـة الرسول **r** التي رقت بلغة العرب وهذَّبت لسانها وجمعت خير ما في لهجاتها من أسواق الأدب والمفاخرة بالشعر والنثر. حتى انتهى مصب جداول الفصاحة وإدارة الكلام بالبيان في لغة قريش التي نزل بها القرآن، وما كان عليه العرب من صلف يعلوا بأحدهم على أبناء عمومته أنفاً وكبراً مضرب مثل في التاريخ الذي سـجل لهم أياماً نسبت إليهم لما أحدثوه فيها من معارك وحروب طاحنة. أشعلها شرر من الكبرياء والأنفة.

ومثل هؤلاء مع توفر دواعي اللسان وقوة البيان التي يوقدها حمـاس القبيـل ويؤججها أتون الحمية لو تسنى لهم معارضة القرآن الكريم لأثـر هـذا عـنهم، وتطاير خبره في الأجيال. فالقوم قد تصفحوا آيات الكتاب وقلبوها على وجوه مـا نبغوا فيه من شعر ونثر فم يجدوا مسلكاً لمحاكاته، أو منفذاً لمعارضته، بل جرى على ألسنتهم الحق الذي أخرسهم عفو الخاطر عندما زلزلت آيات القرآن الكـريم قلوبهم كما أثر ذلك عن الوليد بن المغيرة، وعندما عجزت حيلتهم رمـوه بقـول باهت فقالوا: سحر يؤثر، أو شاعر مجنون، أو أساطير الأولين. ولم يكن لهم بـد أمام العجز والمكابرة إلا أن يعرضوا رقابهم للسيوف، وكأن اليأس القاتل بنقل بنيه

---

1 التحدي إنما وقع للإنس دون الجن، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربي الذي جاء القرآن على أسـاليبه، وإنما ذُكروا في قوله تعالى: **(** قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ**)** تعظيماً لإعجازه لأنه إذا فرض اجتماع الإنس والجن وظاهر بعضهم بعضاً وعجزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز.

من نظرتهم للحياة الطويلة والعمر المديد إلى ساعة الاحتضار فيستسلمون للموت الزؤام- وبهذا ثبت إعجاز القرآن بلا مراء.

وكان سماعه حجة ملزمة **(**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ**)** [التوبة:6] وكان ما يحتويه من نواحي الإعجاز يفوق كل معجزة كونية سابقة ويغني عنها جميعاً **(**وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ~ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ**)** [العنكبوت:50، 51].

وعجز العرب عن معارضة القرآن مع توفر الدواعي عجز للغة العربية في ريعان شبابها وعنفوان قوتها.

والإعجاز لسائر الأمم على مر العصور وظل ولا يزال في موقف التحدي شامخ الأنف، فأسرار الكون التي يكشف عنها العلم الحديث ما هي إلا مظاهر للحقائق العليا التي ينطوي عليها سر هذا الوجود في خالقه ومدبره، وهو ما أجمله القرآن أو أشار إليه- فصار القرآن بهذا معجزاً للإنسانية كافة.

وجوه إعجاز القرآن(1)

لقد كان لنشأة علم الكلام في الإسلام أثر أصدق ما يقال فيه: إنه كلام في كلام، وما فيه من وميض التفكير يجر متتبعه إلى مجاهل من القول بعضها فوق بعض. وقد بدأت مأساة علماء الكلام في القول بخلق القرآن، ثم اختلفت آراؤهم وتضاربت في وجوه إعجازه:

(أ) فذهب أبو إسحاق إبراهيم النظام(2) ومن تابعه كالمرتضى من الشيعة إلى أن إعجاز القرآن كان بالصرفة، ومعنى الصرفة في نظر النظام: أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة. ومعناها في نظر المرتضى: أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن- وهو قول يدل على عجزك ذويه، فلا يقال فيمن سلب القدرة

---

1 ذكر العلماء في وجوه الإعجاز ما يربو على عشرة أوجه، وسنقتصر على أهمها.

2 هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام شيخ الجاحظ، وأحد رؤوس المعتزلة، وإليه تنسب الفرقة النظامية، توفي في خلافة المعتصم سنة بضع وعشرين ومائتين.

على شيء أن الشيء أعجزه مادام في مقدوره أن يأتي به في وقت ما، وإنما المعجز حينئذ هو قدر الله، فلا يكون القرآن معجزاً، وحديثنا عن إعجاز مضاف إلى القرآن سوف يظل ثابتاً في كل عصر، لا عن إعجاز الله.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني ((ومما يبطل القول بالصرفة، أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضلاً على غيره في نفسه)).

والقول بالصرفة قول فاسد يرد عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: **(**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**)** [الإسراء:88] فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره.

(ب) وذهب قوم إلى أن القرآن معجز ببلاغته التي وصلت إلى مرتبة لم يعهد لها مثيل- وهذه النظرة نظرة أهل العربية الذين يولعون بصور المعاني الحية في النسج المحكم، والبيان الرائع.

(ج) وبعضهم يقول: إن وجه إعجازه في تضمنه البديع الغريب المخالف لما عهد في كلام العرب من الفواصل والمقاطع.

(د) ويقول آخرون بل إعجازه في الإخبار عن المغيبات المستقبلة التي لا يطلع عليها إلا بالوحي. أو الإخبار عن الأمور التي تقدمت منذ بدء الخلق بما لا يمكن صدوره من أمي لم يتصل بأهل الكتاب.

كقوله تعالى في أهل بدر **(**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**)** [القمر:45] وقوله: **(**صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ**)** [الفتح:27] وقوله: **(**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ**)** [النور:55] وقوله: **(**الم ~ غُلِبَتِ الرُّومُ ~ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**)** [الروم: 2-3] وقوله: **(**تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا**)** [هود:49] وسائر قصص الأولين.

وهذا قول مردود. لأنه يستلزم أن الآيات التي لا خبر فيها عن المغيبات المستقبلة والماضية لا إعجاز فيها، وهو باطل، فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها[1].

(ج) وذهب جماعة إلى أن القرآن معجز لما تضمنه من العلوم المختلفة، والحكم البليغة، وهناك وجوه أخرى للإعجاز تدور في هذا الفلك جمعها بعضهم في عشرة أو أكثر.

والحقيقة أن القرآن معجز بكل ما يتحمله هذا اللفظ من معنى:

فهو معجز في ألفاظه وأسلوبه، والحرف الواحد منه في موضعه من الإعجاز الذي لا يغنى عنه غيره في تماسك الكلمة، والكلمة في موضعها من الإعجاز في تماسك الجملة، والجملة في موضعها من الإعجاز في تماسك الآية.

وهو معجز في بيانه ونظمه، يجد فيه القارئ صورة حية للحياة والكون والإنسان وهو معجز في معانيه التي كشفت الستار عن الحقيقة الإنسانية ورسالتها في الوجود.

وهو معجز بعلومه ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيراً من حقائقها المغيبة.

وهو معجز في تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالي تسعد الدنيا على يديه.

والقرآن –أولاً وآخراً- هو الذي صير العرب رعاة الشاء والغنم ساسة شعوب وقادة أمم، وهذا وحده إعجاز.

قال الخطابي في كتابه[2]: ((فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني، من توحيد الله وتنزيهه في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لمنهاج عبادته، في تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى

---

1 انظر ((البرهان)) للزركشي صفحة 95، 96/ج2.

2 هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، في كتابه ((بيان إعجاز القرآن)) طبع ضمن ثلاثة رسائل بمطبعة المعارف بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، وانظر ((البرهان)) للزركشي صفحة 101 وما بعدها ج2.

محاسن الأخلاق، وزجر عن مساويها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من مَثُلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الماضية في الزمان – جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أو ككَد للزوم ما دعا إليه، وإنباءَ عن وجوب ما أمر به ونهى عنه.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمرٌ تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته)).

القدر المعجز من القرآن

(أ) يذهب المعتزلة إلى أن الإعجاز يتعلق بجميع القرآن لا ببعضه، أو بكل سورة برأسها.

(ب) ويذهب البعض إلى أن المعجز منه القليل والكثير دون تقييد بالسورة لقوله تعالى: **(**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ**)** [الطور:34].

(ج) ويذهب آخرون إلى أن الإعجاز يتعلق بسورة تامة ولو قصيرة، أو قدرها من الكلام كآية واحدة أو آيات.

ولقد وقع التحدي بالقرآن كله **(**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**)** وبعشر سور **(**فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ**)** وبسورة واحدة **(**فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ**)** وبحديث مثله **(**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ**)**.

ونحن لا نرى الإعجاز في قدر معين لأننا نجده في أصوات حروفه ووقع كلماته، كما نجده في الآية والسورة، فالقرآن كلام الله وكفى.

وأياً كان وجه الإعجاز، أو القدر المعجز. فإن الباحث المنصف الذي يطلب الحق إذا نظر في القرآن من أي النواحي أحب: من ناحية أسلوبه، أو من ناحية علومه، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم وغير به وجه التاريخ، أو من تلك النواحي مجتمعة، وجد الإعجاز واضحاً جلياً. ويجدر بنا أن نأتي بكلمة في هذه

النواحي الثلاثة من الإعجاز القرآني: ناحية الإعجاز اللغوي، وناحية الإعجاز العلمي، وناحية الإعجاز التشريعي.

الإعجاز اللغوي

لقد مارس أهل العربية فنونها منذ نشأت لغتهم حتى شبت وترعرعت، وأصبحت في عنفوان شبابها عملاقاً معطاء، واستظهروا شعرها ونثرها. وحكمها وأمثالها، وطاوعهم البيان في أساليب سارة، حقيقة ومجازاً، إيجازاً وإطناباً، حديثاً ومقالاً، وكلما ارتفعت اللغة وتسامت، وقفت على أعتاب لغة القرآن في إعجازه اللغوي كسيرة صاغرة، تنحني أمام أسلوبه إجلالاً وخشية، وما عهد تاريخ العربية حقبة من أحقاب التاريخ. ازدهرت فيها اللغة إلا وتطامن أعلامها وأساتذتها أمام البيان القرآني اعترافاً بسموه، وإدراكاً لأسراره، ولا عجب ((فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه، لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعاناً لعظمتها، وثقة بالعجز عنها، ولا كذلك صناعات الخلق، فإن فضل العلم بها يمكّنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها، ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون))[1].

والذين تملكهم الغرور، وأصابتهم لوثة الإعجاب بالنفس، وحاولوا التطاول على أسلوب القرآن، حاكوه بكلام فارغ. أشبه بالسخف والتفاهة والهذيان والعبث، وارتدوا على أعقابهم خاسرين، كالمتنبئين وأشباه المتنبئين، من الدجالين والمغرورين.

وقد شهد التاريخ فرساناً للعربية خاضوا غمارها وأحرزوا قصب السبق فيها، فما استطاع أحد منهم أن تحدثه نفسه بمعارضة القرآن. إلا باء بالخزي والهوان، بل إن التاريخ سجل هذا العجز على اللغة، في أزهى عصورها، وأرقى أدوارها، حين نزل هذا القرآن، وقد بلغت العربية أشدها، وتوافرت لها عناصر الكمال والتهذيب في المجامع العربية وأسواقها، ووقف القرآن من أصحاب هذه اللغة موقف التحدي. في صور شتى، متنزلاً معهم إلى الأخف من عشر سور إلى سورة

---

1 النبأ العظيم، صفحة 81.

إلى حديث مثله، فما استطاع أحد أن يباريه أو يجاريه منهم، وهم أهل الأنفة والعزة والإباء. ولو وجدوا قدرة على محاكاة شيء منه، أو وجدوا ثغرة فيه. لما ركبوا المركب الصعب أمام هذا التحدي، بإشهار السيوف، بعد أن عجز البيان، وتحطمت الأقلام.

وتتابعت القرون لدى أهل العربية، وظل الإعجاز القرآني اللغوي راسخاً كالطود الشامخ. تذل أمامه الأعناق خاضعة. لا تفكر في أن تدانيه، فضلاً عن أن تساميه، لأنها أشد عجزاً وأقل طمعاً في هذا المطلب العزيز. وسيظل الأمر كذلك إلى يوم الدين.

ولا يستطيع أحد أن يدعي عدم الحاجة إلى معارضة القرآن، وإن كان ذلك ممكناً، فإن التاريخ يشهد بأنه قد توافرت الدواعي الملحة لدى القوم لمعارضة القرآن، حيث وقفوا من الرسالة وصاحبها موقف الجحود والنكران، واستثار القرآن حميتهم. وسفه أحلامهم، وتحداهم تحدياً سافراً يثير حفيظة الجبان الرعد يد مع ما كانوا عليه من أنفة وعزة. فسلكوا مع الرسول **r** مسالك شتى، ساوموه بالمال والملك ليكف عن دعوته، وقاطعوه ومن معه حتى يموتوا جوعاً. واتهموه بالسحر والجنون، وتآمروا على حبسه، أو قتله أو إخراجه. وقد دلهم على الطريق الوحيد لإسكاته وهو أن يجيئوه بكلام مثل الذي جاءهم به، ((ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره في يدهم؟ ولكنهم طرقوا الأبواب كلها إلا هذا الباب، وكان القتل والأسر والفقر والذل وكل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذي دلهم عليه، فأي شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز؟)).

والقرآن الذي عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سنن كلامهم. ألفاظاً وحروفاً، تركيباً وأسلوباً، ولكنه في اتساق حروفه، وطلاوة عبارته، وحلاوة أسلوبه، وجرس آياته، ومراعاة مقتضيات الحال في ألوان البيان، في الجمل الإسمية والفعلية.. وفي النفي والإثبات، وفي الذكر والحذف، وفي التعريف والتنكير، وفي التقديم والتأخير، وفي الحقيقة والمجاز، وفي الأطناب والإيجاز. وفي العموم والخصوص، وفي الإطلاق والتقييد، وفي النص والفحوى.. وهلم جرا

-ولكن القرآن في هذا ونظائره بلغ الذروة التي تعجز أمامها القدرة اللغوية لـدى البشر.

عن ابن عباس: ((أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي r، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال له: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قِبَلَه. قال: قد علمت قريش أنـي من أكثرها مالاً، قال: فق فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت **(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا)** [المدثر:11][1].

وحيثما قلب الإنسان نظره في القرآن وجد أسراراً من الإعجاز اللغوي.

يجد ذلك في نظامه الصوتي البديع بجرس حروفه. حين يسمع حركاتها وسكناتها، ومدّاتها وغنّاتها، وفواصلها ومقاطعها، فلا تمل أذنه السماع، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

ويجد ذلك في ألفاظه التي تفي بحق كل معنى في موضعه، لا ينبو منها لفظ يقال إنه زائد، ولا يعثر الباحث على موضع يقول إنه يحتاج إلى إثبات لفظ ناقص.

ويجد ذلك في ضروب الخطاب التي يتقارب فيها أصناف الناس في الفهم بما تطيقه عقولهم، فيراها كل واحد منهم مقدّرة على مقياس عقله ووفق حاجته، من العامة والخاصة **(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)** [القمر:17].

---

1 أخرجه الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل.

ويجد ذلك في إقناع العقل وإمتاع العاطفة، بما يفي بحاجة النفس البشرية تفكيراً ووجداناً في تكافؤ واتزان، فلا تطغى قوة التفكير على قوة الوجدان، ولا قوة الوجدان على قوة التفكير.

وهكذا حيثما قلب النظر قامت أمامه حجة القرآن في التحدي والإعجاز[1].

قال القاضي أبو بكر الباقلاني[2]: ((والذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه: منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ثم إلى يرسل إرسالاً فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلاً وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل. يتصنع له، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق، فليس من باب السجع، وليس من قبيل الشعر، وتبين بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة. وأنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه..

وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة على هذا الطول- وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال والاختلاف، والتكلف والتعسف، وقد جاء القرآن على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة على ما وصفه الله عز من قائل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا

---

1 راجع الإعجاز اللغوي في ((النبأ العظيم)) بتوسع.

2 هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني صاحب كتاب ((أعجاز القرآن)) وكتاب ((التقريب والإرشاد)) في أصول الفقه، توفي سنة 403هـ.

مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) [الزمر:23] (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا) [النساء:82] فأخبر أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال.

وعجيب نظم القرآن وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما ينصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها- من ذكر قصص ومواعظ، واحتجاج وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التفريط دون التأبين، ومنهم من يقرب في وصف الإبل والخيل، أو سير الليل، أو وصف الحرب، أو وصف الروض، أو وصف الخمر، أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام. ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وبزهير إذا رغب، ومثل ذلك بمختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام...

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والوصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا.. فعلمنا بذلك انه مما لا يقدر عليه البشر))[1].

الإعجاز العِلميّ

يخطئ كثير من الناس حيث يحرصون على أن يتضمن القرآن الكريم كل نظرية علمية، وكلما ظهرت نظرية جديدة التمسوا لها محملاً في آية يتأولونها بما يوافق هذه النظرية.

---

1 إعجاز القرآن بتصرف.

ومنشأ الخطأ في هذا أن العلوم تتجدد نظرياتها مع الزمن تبعاً لسنة التقدم، فلا تزال في نقص دائم يكتنفه الغموض أحياناً، والخطأ أحياناً أخرى، وتستمر هكـــذا حتى تقترب من الصواب، وتصل إلى درجة اليقين، وأي نظرية منها تبدأ بالحدس والتخمين وتخضع للتجربة حتى يثبت يقينها، أو يتضح زيفها وخطؤهـــا، ولهـــذا كانت عرضة للتبديل، وكثير من القواعد العلمية التي ظن الناس أنها أصبحت من المسلّمات تتزعزع بعد ثبوت، وتتقوض بعد رسوخ، ثم يستأنف الباحثون تجاربهم فيها مرة أخرى.

والذين يفسرون القرآن الكريم بمـــا مـــسائل العلـــم، ويحرصـــون علـــى أن يستخرجوا منه كل مسألة تظهر في أفق الحياة العلمية، يسيئون إلى القـــرآن مـــن حيث يظنون أنهم يحسنون صنعاً، لأن هذه المسائل التي تخضع لسنة التقدم تتبدل، وقد تتقوض من أساسها وتبطل، فإذا فسرنا القرآن بها تعرضنا في تفسيره للنقائض كلما تبدلت القواعد العلمية، أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم، أو يقين يبطل التخمين.

والقرآن الكريم كتاب عقيدة وهداية، يخاطب الضمير فيحيي فيه عوامل النمو والارتقاء، وبواعث الخير والفضيلة.

وإعجازه العلمي ليس في اشتماله على النظريات العلمية التي تتجدد وتتبـــدّل وتكون ثمرة للجهد البشري في البحث والنظر، وإنما في حثه على التفكير، فهـــو يحث الإنسان على النظر في الكون وتدبره، ولا يشل حركة العقل في تفكيره، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وليس ثمة كتـــاب من كتب الأديان السابقة يكفل هذا بمثل ما يكفله القرآن.

فأي مسألة من مسائل العلم، أو قاعدة من قواعده، يثبت رســـوخها، ويتبـــين يقينها، تكون محققة لما حث عليه القرآن من تفكير سليم، ولا تتعارض معه بحال من الأحوال، وقد تقدمت العلوم وكثرت مسائلها ولم يتعارض شيء ثابت منها مع آية من آيات القرآن، وهذا وحده إعجاز.

والقرآن الكريم يجعل التفكير السديد والنظر الصائب في الكون وما فيه أعظم وسيلة من وسائل الإيمان بالله.

إنه يحث المسلم على التفكير في مخلوقات الله في السماء والأرض. (إِنَّ فِـي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَـابِ ~ الَّـذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ الـسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران : 190، 191].

ويحثه على التفكير في نفسه، وفي الأرض التي يعمرها، وفي الطبيعة التـي تحيط به (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّـا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) [الروم:8].

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ~ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) [الـذاريات:20، 21]

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ~وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ) [الغاشـية:17-18]

ويثير فيه الحس العلمي للتفكير والفهم والتعقل.

(كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) [البقرة:219].

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [الحشر:21].

(بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [يونس:24].

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الرعد:3].

(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [الأعراف:32].

(قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [الأنعام:97].

(انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) [الأنعام:65].

(قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) [الأنعام:98].

ويرفع القرآن مكانة المسلم بفضيلة العلم.

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) [المجادلـة:11] ولا يسوي بين عالم وجاهل.

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [الزمر:9] ويأمر المسلم أن يسأل ربه نعمة العلم.

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**)** [طه:114].

ويجمع الله علوم الفلك والنبات وطبقات الأرض والحيوان ويجعل ذلك من بواعث خشيته **(**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ~ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**)** [فاطر:27، 28].

وهكذا فإن إعجاز القرآن العلمي في أنه يحث المسلمين على التفكير. ويفتح لهم أبواب المعرفة، ويدعوهم إلى ولوجها، والتقدم فيها، وقبول كل جديد راسخ من العلوم.

وفي القرآن مع هذا إشارات علمية سيقت مساق الهداية. فالتلقيح في النبات، ذاتي وخلطي: والذاتي: ما اشتملت زهرته على عضوي التذكير والتأنيث، والخلطي: هو ما كان عضو التذكير فيه منفصلاً عن عضو التأنيث كالنخيل، فيكون التلقيح بالنقل. ومن وسائل ذلك الرياح، وجاء في هذا قول الله تعالى: **(**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ**)** [الحجر:22].

((والأوكسجين)) ضروري لتنفس الإنسان، ويقل في طبقات الجو العليا، فكلما ارتفع الإنسان في أجواء السماء أحس بضيق الصدر وصعوبة التنفس، والله تعالى يقول: **(**فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء**)** [الأنعام:125].

وقد ساد الاعتقاد بأن الذرة هي الجزء الذي لا يقبل التجزئة: وفي القرآن: **(**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**)** [يونس:61] ولا أصغر من الذرة سوى تحطيم الذرة.

وفي علم الأجنة جاء قوله تعالى: **(**فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ~ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ~يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**)** [الطارق: 5-7] وقوله: **(**خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ**)** [العلق:2] وقوله: **(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم

مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا**)** [الحج:5].

وفي وحدة الكون وحاجة الحياة إلى عنصر الماء يقول تعالى: **(**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**)** [الأنبياء:30].

تلك الإشارات العلمية ونظائرها في القرآن جاءت في سياق الهداية الإلهية، وللعقل البشري أن يبحث فيها ويتدبر.

يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير قوله تعالى: **(**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**)** [البقرة:189] ((اتجه الجواب إلى واقع حياتهم العملي لا إلى مجرد العلم النظري، وحدثهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم وفي حياتهم ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر، وكيف تتم؟ وهي داخلة في مدلول السؤال... إن القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية، ولم يجيء ليكون كتاب علم فلكي، و كيماوي أو طبي... كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يلتمسوا مخالفاته لهذه العلوم.

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله. إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية، وإن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه، وان يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته ومن بينها طاقته العقلية، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة، وإطلاق المجال لها لتعمل - بالبحث العلمي - في الحدود المتاحة للإنسان، وبالتجريب والتطبيق، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج، ليست نهاية ولا مطلقة. بطبيعة الحال...

وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها.. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه..

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة .. أما ما يصل إليه البحث الإنساني- أياً كانت الأدوات المتاحة له- فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة، وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروفه هذه التجارب وأدواتها، فمن الخطأ المنهجي- بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته- أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية، وهي كل ما يصل إليه العلم البشري.

هذا بالقياس إلى الحقائق العلمية، والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات الفروض التي تسمى ((علمية)).. فهي قابلة دائماً للتغيير والتعديل والنقص والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب، بظهور أداة كشف جديدة، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة.

وكل محاولة لتعليق الإرشادات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة- أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا- تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي، كما أنها تنطوي على معان ثلاثة، كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم.

الأولى: هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس، ان العلم هو المهيمن والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، او الاستدلال له من العلم، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه، ونهائي في حقائقه، والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته، وكلها ليس من طبيعتها ان تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة.

والثانية: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته. وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق- بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية- مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي، حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادفه ويعرف بعض أسراره، ويستخدم بعض نواميسه من خلافته، نواميسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة.

والثالثة: هي التأويل المستمر - مع التمحل والتكلف - لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر، وكل يوم يجد فيها جديد))[1].

الإعجاز التشريعي

أودع الله في الإنسان كثيراً من الغرائز التي تعتمل في النفس وتؤثر عليها في اتجاهات الحياة، ولئن كان العقل الرشيد يعصم صاحبه من الزلل فإن النزعات النفسية المنحرفة تطغي على سلطان العقل، ولا يستطيع العقل أن يكبح جماحها في كل حال. لهذا كان لابد لاستقامة الإنسان من تربية خاصة لغرائزه، تهذبها وتنميها، وتقودها إلى الخير والفلاح.

والإنسان مدني بالطبع، فهو في حاجة إلى غيره، وغيره في حاجة إليه، وتعاون الإنسان مع أخيه الإنسان ضرورة اجتماعية يفرضها العمران البشري. وكثيراً ما يظلم الإنسان أخاه بدافع الأثرة وحب السيطرة، فلو ترك أمر الناس دون ضابط يحدد علاقاتهم، وينظم أحوال معاشهم، ويصون حقوقهم، ويحفظ حرماتهم لصار أمرهم فوضى، ولذا كان لابد لأي مجتمع بشري من نظام يحكم زمامه، ويحقق العدل بين أفراده.

وبين تربية الفرد وصلاح الجماعة. وشائج قوية لا تنفصم عراها، فإن هذا يقوم على تلك، فصلاح الفرد من صلاح الجماعة، وصلاح الجماعة بصلاح الفرد.

وقد عرفت البشرية في عصور التاريخ ألواناً مختلفة من المذاهب والنظريات والنظم والتشريعات التي تستهدف سعادة الفرد في مجتمع فاضل، ولكن واحداً منها لم يبلغ من الروعة، والإجلال مبلغ القرآن في إعجازه التشريعي.

إن القرآن يبدأ بتربية الفرد، لأنه لبنة المجتمع ويقيم تربيته على تحرير وجدانه، وتحمله التبعة.

يحرر القرآن وجدان المسلم بعقيدة التوحيد الذي تخلصه من سلطان الخرافة والوهم، وتفك أسره من عبودية الأهواء والشهوات، حتى يكون عبداً خالصاً لله،

---

1 اقتبسنا هذه الفقرات من كتاب ((في ظلال القرآن)) بتصرف.

يتجرد للإله الخالق المعبود، ويستعلي بنفسه عما سواه، فلا حاجة للمخلوق إلا لدى خالقه، الذي له الكمال المطلق، ومنه يمنح الخير للخلائق كلها. إنه خالق واحد وإله واحد. لا أول له ولا آخر، قدير على كل شيء، محيط بكل شيء، وليس كمثله شيء.

عالم مخلوق خلقه الله، ويرجع إلى الله، ويفنى كما يوجد بمشيئة الله، وهذه أكمل عقيدة في العقل وأكمل عقيدة في الدين.

(مَلِكِ يَوْمِ الدِّين**)** [الفاتحة:4].

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)** [الحديد:3].

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)** [القصص:88].

(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ**)** [الأنعام:102].

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**)** [الأحزاب:27].

(وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**)** [البقرة:96].

(أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ**)** [فصلت:54].

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**)** [الشورى:11].

(لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**)** [الأنعام:103]

ويؤكد القرآن الكريم وحدانية الله بالحجج القاطعة التي تقوم على المنطق العقلي السليم. فلا تقبل الجدال والمراء.

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**)** [الأنبياء:22].

(قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**)** [الإسراء:42]

وإذا صحت عقيدة المسلم كان عليه أن يأخذ بشرائع القرآن في الفرائض والعبادات، وكل عبادة مفروضة يراد بها صلاح الفرد ولكنها مع ذلك ذات علاقة بصلاح الجماعة.

فالصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، والجماعة واجبة على الرأي الراجح إلا لعذر، وهي شرط في الجمعة والعيدين، والذي يصلي منفرداً لا يغيب عن شعور آصرة القربى بينه وبين الجماعة الإسلامية في أقطار الأرض، من شمال إلى

جنوب، ومن مشرق إلى مغرب، لأنه يعلم أنه في تلك اللحظة يتجه وجهة واحـــدة مع كل مسلم على ظهر الأرض، يؤدي فريضة الصلاة، ويستقبل معه قبلة واحدة، ويدعو بدعاء واحد، وإن تباعدت بينهم الديار.

وحسب المسلم في تربيته أن يقف بين يدي الله خمس مرات في اليوم الواحـــد لتمتزج حياته بشرع الله، ويتمثل الوازع الأعلى نصب عينيه ما بين كـــل صـــلاة وصلاة **(**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّـــهُ يَعْلَـــمُ مَـــا تَصْنَعُونَ**)** [العنكبوت:45].

والزكاة تقتلع من النفس جذور الشح، وعبادة المال، والحرص علـــى الـــدنيا، وهي مصلحة للجماعة. فتقيم دعائم التعاون بين المجدودين والمحرومين، وتـــشعر النفس بتكافل الجماعة شعوراً يخرجها من ضيق الأثرة والانفراد.

والحج سياحة تروض النفس على المشقة، وتفتح بصيرتها على أسرار الله في خلقه، وهو مؤتمر عالمي يجتمع فيه المسلمون على صـــعيد واحـــد، فيتعـــارفون ويتشاورون.

والصيام ضبط للنفس، وشحذ لعزيمتها، وتقوية للإرادة، وحـــبس للـــشهوات، وهو مظهر اجتماعي يعيش فيه المسلمون شهراً كاملاً علـــى نظـــام واحـــد فـــي طعامهم. كما تعيش الأسرة في البيت الواحد.

والقيام بهذه العبادات المفروضة يربي المسلم على الشعور بالتبعة الفردية التي يقررها القرآن وينو طبها كل تكليف من تكاليف الدين، وكل فضيلة من فـــضائل الأخلاق.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**)** [المدثر:38].

(كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**)** [الطور:21].

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**)** [البقرة:286].

وحض القرآن على الفضائل المثلى التي تروض النفس على الوازع الـــديني، كالصبر والصدق والعدل والإحسان والحلم والعفو والتواضع...

ومن تربية الفرد ينتقل الإسلام إلى بناء الأسرة، لأنها نواة المجتمع، فشرع القرآن الزواج استجابة لغريزة الجنس وإبقاء على النوع الإنساني في تناسل طاهر نظيف.

ويقوم رباط الأسرة في الزواج على الود والرحمة والسكن النفسي والعشرة بالمعروف، ومراعاة خصائص الرجل وخصائص المرأة، والوظيفة الملائمة لكل منهما.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**)** [الروم:21].

(بِالْمَعْرُوفِ فَإِن**)** [النساء:19].

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ**)** [النساء:34].

ثم يأتي نظام الحكم الذي يسود المجتمع المسلم، وقد قرر القرآن قواعد الحكومة الإسلامية في أصلح أوضاعها.

فهي حكومة الشورى والمساواة ومنع السيطرة الفردية.

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**)** [آل عمران: 159].

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**)** [الشورى:38].

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**)** [الحجرات:10].

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ**)** [آل عمران:64].

وهي حكومة تقوم على العدل المطلق الذي لا يتأثر بحب الذات، أو عاطفة القرابة، أو العوامل الاجتماعية في الغنى والفقر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**)** [النساء:135].

كما لا تؤثر في هذا العدل شهوة الانتقام من الأعداء المبغوضين (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ) [المائدة:8].

(إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ) [النساء:58].

والتشريع في الحكومة الإسلامية ليس متروكاً للناس، فقد قرره القرآن، والخروج عنه كفر وظلم وفسق.

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) [المائدة:44].

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [المائدة:45].

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [المائدة:47].

({أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [المائدة:50].

وقرر القرآن صيانة الكليات الخمسة الضرورية للحياة الإنسانية: النفس، والدين، والعرض، والمال، والعقل ورتب عليها العقوبات المنصوصة، التي تعرف في الفقه الإسلامي بالجنايات والحدود.

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة:179].

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ) [النور:2].

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً) [النور:4].

({وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا) [المائدة:38].

وقرر القرآن العلاقات الدولية في الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم أو معاهديهم، وهي أرفع معاملة عرفت في عصور الحضارة الإنسانية.

وخلاصة القول أن القرآن دستور تشريعي كامل يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال، وسيظل إعجازه التشريعي قريناً لإعجازه العلمي وإعجازه اللغوي إلى الأبد. ولا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحدث في العالم أثراً غير وجه التاريخ.

أمثال القرآن

الحقائق السامية في معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرابعة إذا صيغت في قالب حسن يقربها إلى الإفهام بقياسها على المعلوم اليقيني، والتمثيل هو القالب الذي يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان، بتشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس. وقياس النظير على النظير، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالاً، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له، وامتناع العقل به، وهو من أساليب القرآن الكريم في ضروب بيانه ونواحي إعجازه.

ومن العلماء من أفرد الأمثال في القرآن بالتأليف، ومنهم من عقد لها باباً في كتاب من كتبه، فأفردها بالتأليف أبو الحسن الماوردي[1]، وعقد لها باباً السيوطي في الإتقان[2] وابن القيم في كتاب أعلام الموقعين. حيث تتبع أمثال القرآن التي تضمنت تشبيه الشيء بنظيره، والتسوية بينهما في الحكم- فبلغت بضعة وأربعين مثلاً.

وذكر الله في كتابه العزيز أنه يضرب الأمثال **(**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**)** [الحشر:21] **(**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**)** [العنكبوت:43] **(**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)** [الزمر:27].

وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله **r** قال: ((إن الله أنزل القرآن آمراً وزاجراً، وسنة خالية، ومثلاً مضروباً))[3].

وكما عني العلماء بأمثال القرآن فإنهم عنوا كذلك بالأمثال النبوية. وعقد لها أبو عيسى الترمذي باباً في جامعه أورد فيه أربعين حديثاً. وقال القاضي أبو بكر بن العربي: لم أر من أهل الحديث من صنف فأفرد للأمثال باباً غير أبي عيسى،

---

1 هو أبو الحسن علي بن حبيب الشافعي، صاحب كتاب ((أدب الدنيا والدين)) وكتاب ((الأحكام السلطانية)) توفي سنة450هـ.

2 انظر الإتقان، صفحة 131 ج2.

3 رواه الترمذي.

ولله دره، لقد فتح باباً، وبنى قصراً أو داراً، ولكنه اختط خطاً صغيراً. فنحن نقنع به، ونشكره عليه)).

تعريف المثل

والأمثال: جمع مثل، والمثَل والمثِل والمثيل: كالشبه والشبه والشبيه لفظاً ومعنى.

والمثل في الأدب: قول محكي سائر يقصد به تشبيه حال الذي حكى فيه بحال الذي قيل لأجله، أي يشبه مضربه بمورده، مثل ((رب رمية من غير رام)) أي رب مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطئ، وأول من قال هذا الحكم بن يغوث النقري، يضرب للمخطئ يصيب أحياناً، وعلى هذا فلابد له من مورد يشبه مضربه به.

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن. وبهذا المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات. كقوله تعالى: **(**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ**)** [محمد:15][1]: أي قصتها وصفتها التي يتعجب منها.

وأشار الزمخشري إلى هذه المعاني الثلاثة في كشافه فقال: ((والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل، ولم يضربوا مثلاً ولا رأوه أهلاً للتسيير ولا جديراً بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه. ثم قال: وقد استعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة.

وهناك معنى رابع ذهب إليه علماء البيان في تعريف المثل فهو عندهم: المجاز المركب الذي تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله. وأصله الاستعارة التمثيلية. كقولك للمتردد في فعل أمر: مالي أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى.

وقيل في ضابط المثل كذلك: إنه إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعة وجمالاً. والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد، كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركباً.

---

1 انظر بلاغة القرآن للأستاذ محمد الخضر حسين صفحة26.

وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن التي يذكرها المؤلفون وجدنا أنهم يوردون الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة، أم بطريق التشبيه الصريح؟ أو الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز، أو التي يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه، فإن الله تعالى ابتدأها دون ان يكون لها مورد من قبل.

فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي الذي هو الشبيه والنظير، ولا يستقيم حملها على ما يذكر في كتب اللغة لدى من ألفوا في الأمثال، إذ ليست أمثال القرآن أقوالاً استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان فمن أمثال القرآن ما ليس باستعارة وما لم يفش استعماله. ولذا كان الضابط الأخير أليق بتعريف المثل في القرآن: فهو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس، سواء كانت تشبيهاً أو قولاً مرسلاً.

فابن القيّم يقول في أمثال القرآن: تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر.

ويسوق الأمثلة: فتجد أكثرها على طريقة التشبيه الصريح كقوله تعالى: **(**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء**)** [يونس:24] ومنها ما يجيء على طريقة التشبيه الضمني، كقوله تعالى: **(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**)** [الحجرات: 12]. إذ ليس فيه تشبيه صريح. ومنها ما لم يشتمل على تشبيه ولا استعارة، كقوله تعالى: **(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**)** [الحج:73]. فقوله: **(**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا**)** [الحج:73] قد سماه الله مثلاً وليس فيه استعارة ولا تشبيه.

أنواع الأمثال في القرآن

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع:

1- الأمثال المصرحة.

2- الأمثال الكامنة.

3- الأمثال المرسلة.

النوع الأول: - **الأمثال المصرحة**- وهي ما صرح فيها بلفظ المثل، أو ما يدل على التشبيه. وهي كثيرة في القرآن نورد منها ما يأتي!

(أ) قوله تعالى في حق المنافقين: **(**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ~ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ**)** - إلى قوله- **(**إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)** [البقرة:17-20]

ففي هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين: مثلاً نارياً في قوله: **(**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً**)** لما في النار من مادة النور، ومثلاً مائياً في قوله: **(**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء**)** لما في الماء من مادة الحياة، وقد نزل الوحي من السماء متضمناً لاستنارة القلوب وحياتها. وذكر الله حظ المنافقين في الحالين. فهم بمنزلة من استوقد ناراً للإضاءة والنفع حيث انتفعوا مادياً بالدخول في الإسلام، ولكن لم يكن له أثر نوري في قلوبهم، فذهب الله بما في النار من الإضاءة (ذهب الله بنورهم) وأبقى ما فيها من الإحراق، وهذا مثلهم الناري.

وذكر مثلهم المائي فشبههم بحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فخارت قواه ووضع إصبعيه فغي أذنيه وغمض عينيه خوفاً من صاعقة تصيبه، لأن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق.

(ب) وذكر الله المثلين: المائي والناري- في سورة الرعد للحق والباطل. فقال تعالى: **(**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ**)** [الرعد:17].

شبه الوحي الذي أنزله من السماء لحياه القلوب بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنيات، وشبه القلوب بالأودية، والسيل إذا جرى في الأودية احتمل زبداً وغثاء، فكذلك الهدى والعلم إذا سرى في القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها، وهذا هو المثل المائي في قوله: **(**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء**)** وهكذا يضرب الله الحق والباطل.

وذكر المثل الناري في قوله: **(**وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ**)** فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سكبها تخرج النار ما فيها من الخبث وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيذهب جفاء. فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث.

النوع الثاني من الأمثال: الأمثال الكامنة- وهي التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل، ولكنها تدل على معان رائعة في إيجاز، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها:

1- ما في معنى قولهم (خير الأمور الوسط).

(أ) قوله تعالى في البقرة **(**لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ**)** [البقرة:68].

(ب) قوله تعالى في النفقة **(**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**)** [الفرقان:67].

(ج) قوله تعالى في الصلاة **(**وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**)** [الإسراء:110].

(د) قوله تعالى في الإنفاق **(**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**)** [الإسراء:29].

2- ما في معنى قولهم (ليس الخبر كالمعاينة).

قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام **(**قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**)** [البقرة:260].

3- ما في معنى قولهم (كما تدين تدان).

قوله تعالى: **(**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**)** [النساء:123].

4- ما في معنى (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين).

قوله تعالى على لسان يعقوب: **(**قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ**)** [يوسف:64].

النوع الثالث: الأمثال المرسلة في القرآن: وهي جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه. فهي آيات جارية مجرى الأمثال.

ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

1- **(**الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ**)** [يوسف:51].

2- **(**لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ**)** [النجم:58].

3- **(**قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**)** [يوسف:41].

4- **(**أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**)** [هود:81].

5- **(**لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ**)** [الأنعام:67].

6- **(**وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**)** [فاطر:43].

7- **(**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**)** [الإسراء:84].

8- **(**وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**)** [البقرة:216].

9- **(**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**)** [المدثر:38].

10- **(**هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**)** [الرحمن:60].

11- **(**فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**)** [المؤمنون:53].

12- **(**ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**)** [الحج:73].

13- **(**لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ**)** [الصافات:61].

14- **(**لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**)** [المائدة:100].

15- **(**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ**)** [البقرة:249].

16- **(**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى**)** [الحشر:14].

واختلفوا في هذا النوع من الآيات الذي يسمونه إرسال المثل، ما حكم استعماله استعمال الأمثال.

فرآه بعض أهل العلم خروجاً عن أدب القرآن، قال الرازي في تفسير قوله تعالى: **(**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**)** ((جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند

التاركة، وذلك غير جائز، لأنع تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل يتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه)).

ورأى آخرون أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد، كأن يأسف أسفاً شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله فيقول: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) والإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح[1].

فوائد الأمثال

1- الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيتقبله العقل لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق رياء، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، فقال تعالى: **(**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ**)** [البقرة:264].

2- وتكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الغائب في معرض الحاضر، كقوله تعالى: **(**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**)** [البقرة:275].

3- ويضرب المثل للترغيب في الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق في سبيل الله حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير، فقال تعالى: **(**مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**)** [البقرة:261].

4- ويضرب المثل للتنفير حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس، كقوله تعالى في النهي عن الغيبة: **(**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**)** [الحجرات:12].

---

1 بلاغة القرآن صفحة33.

5- ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى في الصحابة: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح:29] وكذلك حال الصحابة فإنهم كانوا في بدء الأمر قليلاً، ثم أخذوا في النمو حتى استحكم أمرهم. وامتلأت القلوب إعجاباً بعظمتهم.

6- ويضرب المثل حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس، كما ضرب الله مثلاً لحال من آتاه الله كتابه، فتنكب الطريق عن العمل به، وانحدر في الدنايا منغمساً. فقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ~ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:175-176].

7- والأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، وقد أكثر الله تعالى الأمثال في القرآن للتذكرة والعبرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:27] وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:43] وضربها النبي r في حديثه، واستعان بها الداعون إلى الله في كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة، ويستعين بها المربون، ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق، ووسائل التربية في الترغيب أو التنفير، في المدح أو الذم.

ضرب الأمثال بالقرآن:

جرت عادة أهل الأدب أن يسوقوا الأمثلة في مواطن تشبه الأحوال التي قيلت فيها، وإذا صح هذا في أقوال الناس التي جرت مجرى المثل، فإن العلماء يكرهون ضرب الأمثال بالقرآن، ولا يرون أن يتلو الإنسان آية من آيات الأمثال في كتاب الله عند شيء يعرض من أمور الدنيا، حفاظاً على روعة القرآن، ومكانته في نفوس المؤمنين قال أبو عبيد: ((وكذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يهم بحاجته،

فيأتيه غير طلب فيقول كالمازح **(**جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى**)** [طه:40] فهذا مـــن الاستخفاف بالقرآن، ومنه قول ابن شهاب الزهري: لا تناظر بكتاب الله ولا بسنة رسول الله **r** ، قال أبو عبيد: يقول: لا تجعل لهما نظيراً من القول ولا الفعل.

أقسام القرآن[1]

يختلف الاستعداد النفسي عند الفرد في تقبله للحق وانقياده لنـــوره، فـــالنفس الصافية التي لم تتدنس فطرتها بالرجس تستجيب للهدى، وتفتح قلبهـــا لإشـــعاعه، ويكفيها في الانصياع إليه اللمحة والإشارة. أما النفس التي رانت عليهـــا ســـحابة الجهل، وغشيتها ظلمة الباطل فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الزجر، وصيغ التأكيـــد، حتى يتزعزع نكيرها. والقسم في الخطاب من أساليب التأكيد التي يتخللها البرهان المفحم، والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد.

تعريف القسم وصيغته

والأقسام: جمع قَسَمْ: بفتح السين، بمعنى الحلف واليمين، والصيغة الأصـــلية لقسم أن يؤتى بالفعل أقسم أو أخلف متعدياً بالباء إلى المقسم به. ثم يأتي المقـــسم عليه، وهو المسمى بجواب القسم، كقوله تعالى: **(**وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَـــانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ**)** [النحل:38] فأجزاء صيغة القسم ثلاثة:

1- الفعل الذي يتعدى بالباء.

2- والمقسم به.

3- والمقسم عليه.

ولما كان القسم يكثر في الكلام اختصر فصار فعل القـــسم يحـــذف ويكتفـــي بالباء[2] ثم عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة كقوله تعالى: **(**{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى**)** [الليل:1] وبالتاء في لفظ الجلالة كقوله: **(**وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْـــدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ**)** [الأنبياء:57]. وهذا قليل، أما الواو فكثيرة.

---

1 أفرد هذا الفصل بالبحث العلامة ابن القيم في كتابه ((أقسام القرآن))، المسمى بالتبيان وهو كتاب فريد في بابه اختصرنا منه هذا المبحث.

2 والباء لم ترد في القرآن إلا مع فعل القسم، كقوله تعالى: **(**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**)** [النور:53].

والقسم واليمين واحد: ويعرف بأنه: ربط النفس، بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقاداً. وسمى الحلف يميناً لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف.

فائدة القسم في القرآن

تمتاز اللغة العربية بدقة التعبير واختلاف الأساليب بتنوع الأغراض، وللمخاطب حالات مختلفة، هي المسماة في المعاني بأضرب الخبر الثلاثة: الابتدائي، والطلب، والإنكاري.

فقد يكون المخاطب خالي الذهن من الحكم فيلقى إليه الكلام غفلاً من التأكيد، ويسمى هذا الضرب ابتدائياً.

وقد يكون متردداً في ثبوت الحكم وعدمه، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده، ويسمى هذا الضرب طلبياً.

وقد يكون منكراً للحكم، فيجب أن يؤكد له الكلام بقدر إنكاره قوة وضعفاً، ويسمى هذا الضرب إنكارياً.

والقسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد. فالقسم في كلام الله يزيل الشكوك، ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة.

المقسم به في القرآن

يقسم الله تعالى بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته. وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع:

1- في قوله: **(**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ**)** [التغابن:7].

2- وقوله: **(**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ**)** [سبأ:3].

3- وقوله: **(**وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ**)** [يونس:53].

وفي هذه الثلاثة أمر الله نبيه r أن يقسم به:

4- وقوله: **(**فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ**)** [مريم:68].

5- وقوله: **(**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ**)** [الحجر: 92].

6- وقوله: **(**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**)** [النساء:65].

7- وقوله: **(**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ**)** [المعارج:40].

وسائر القسم في القرآن بمخلوقاته سبحانه، كقوله: **(**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ~ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا**)** [الشمس:1-2]، وقوله: **(**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ~ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ~ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى**)** [الليل:1-3] وقوله: **(**وَالْفَجْرِ ~ وَلَيَالٍ عَشْرٍ**)** [الفجر:1-2] وقوله: **(**فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ**)** [التكوير:15] وقوله: **(**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ~ وَطُورِ سِينِينَ**)** [التين:1، 2] وهذا هو الكثير في القرآن.

ولله أن يحلف بما شاء، أما حلف العباد بغير الله فهو ضرب من الشرك، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله r قال: ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك))[1]. وإنما أقسم الله بمخلوقاته لأنها تدل على بارئها، وهو الله تعالى، وللإشارة إلى فضيلتها ومنفعتها ليعتبر الناس بها. وعن الحسن قال: ((إن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله))[2].

أنواع القسم

القسم إما ظاهر، وإما مضمر.

1- **فالظاهر**: - هو ما صرح فيه بفعل القسم، وصرح فيه بالمقسم به، ومنه ما حذف فيه فعل القسم كما هو الغالب اكتفاء بالجار من الباء أو الواو أو التاء:

وقد أدخلت – (لا) – النافية على فعل القسم في بعض المواضع. كقوله تعالى: **(**لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ~ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**)** [القيامة:1، 2] فقيل: لا في الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام، والتقدير مثلاً: لا صحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب، ثم استأنف فقال: أقسم بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة، إنكم

---

1 رواه الترمذي وحسن، وصححه الحاكم.

2 أخرجه ابن أبي حاتم.

ستبعثون، وقيل: لا. لنفي القسم كأنه قال: لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس، ولكني أسألك غير مقسم، أتحسن أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت؟ إن الأمر من الظهور بحيث لا يحتاج إلى قسم- وقيل: لا. زائدة- وجواب القسم في الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد: أيحسب الإنسان...الخ، والتقدير: لتبعثن ولتحاسبن.

2- **والقسم المضمر**: هو ما لم يصرح بفيه بفعل القسم ولا بالمقسم به، وإنما تدل عليه اللام المؤكدة التي تدخل على جواب القسم كقوله تعالى: **(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)** [آل عمران:186] أي والله لتبلون.

أحوال المقسم عليه

1- المقسم عليه يرا بالقسم توكيده وتحقيقه، فلابد أن يكون مما يحسن فيه ذلك، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها.

2- وجواب القسم يذكر تارة- وهو الغالب- وتارة يحذف، كما يحذف جواب لو كثيراً، كقوله: **(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ)** [التكاثر:5] وحذف مثل هذا من أحسن الأساليب، لأنه يدل على التفخيم والتعظيم، فالتقدير مثلاً: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين لفعلتم ما لا يوصف من الخير، فحذف جواب القسم كقوله: **(وَالْفَجْرِ ~ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ~ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ~ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ~ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ)** [الفجر:1-5] فالمراد بالقسم أن الزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب عز وجل به. فلا يحتاج إلى جواب، وقيل: **(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)** [الفجر:14] والصحيح المناسب أنه لا يحتاج إلى جواب.

وقد يحذف الجواب لدلالة المذكور عليه، كقوله تعالى: **(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ~ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)** فجواب القسم محذوف دل عليه قوله بعد **(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ)** إلخ والتقدير: لتبعثن ولتحاسبن.

3- والماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جواباً للقسم تلزمه اللام وقد، ولا يجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام. كقوله تعالى: **(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ~ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ~ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ~ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ~ وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا ~ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ~ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ~**

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ~ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا) [الشمس:1-9] فجواب القسم (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا) حذفت منه اللام لطول الكلام.

ولذلك قالوا في قوله تعالى: (وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ ~ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ~ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ~ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) [البروج:1-4] إن الأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب، لأن القصد التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة، وقيل الجواب محذوف دل عليه (أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) أي أنهم ملعونون، يعني كفار مكة كما لعن أصحاب الأخدود، وقيل حذف صدره، وتقديره: لقد قتل لأن الفعل الماضي إذا وقع جواباً للقسم تلزمه اللام وقد، ولا يجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام، كما سبق في قوله تعالى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ~ .... قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا).

4- ويقسم الله على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها فتارة يقسم على التوحيد كقوله: (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ~ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ~ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ~ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ) [الصافات:1-4].

وتارة يقسم على أن القرآن حق كقوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ~ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ~ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) [الواقعة75-77].

وتارة على أن الرسول حق كقوله: (يس ~ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) [يس:1-2].

وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، كقوله: (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ~ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ~ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ~ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ~ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ~ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) [الذاريات: 1-6].

وتارة على حال الإنسان، كقوله: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ~ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ~ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ~ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) [الليل:1-4].

والمتتبع لأقسام القرآن يستخلص الفنون الكثيرة.

5- والمقسم إما على جملة خبرية- وهو الغالب- كقوله تعالى: (فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ) [الذاريات:23]، وإما على جملة طلبية في المعنى كقوله تعالى: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ ~ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الحجر:92، 93] لأن المراد التهديد والوعيد.

القسم والشرط

يجتمع القسم والشرط فيدخل كل منهما على الآخر فيكون الجــواب للمتقــدم منهما - قسماً كان أو شرطاً - ويغني عن جواب الآخر.

فإن تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم وأغنى عن جــواب الــشرط، كقوله تعالى: **(لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ)** [مريم:46] إذ التقدير: والله لئن لم تنته.

واللام الداخلة على الشرط ليست بلام جواب القسم كالتي في مثل قوله تعالى: **(وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم)** [الأنبياء:57] ولكنها اللام الداخلة على أداة شرط للإيذان بأن الجواب بعدها مبني على قسم قبلها لا على الشرط، وتسمى الــلام المؤذنـــة، وتسمى كذلك الموطئة، لأنها وطأت الجواب للقسم، أي مهدئة لــه. ومنـــه قولـــه تعالى: **(لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّــصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ)** [الحشر:12] وأكثر ما تدخل اللام الموطئة على ((إن الشرطية، وقد تدخل على غيرها)).

ولا يقال: إن الجملة الشرطية هي جوا لقسم المقدر، فإن الشرط لا يصلح أن يكون جواباً، لأن الجواب لا يكون إلا خبراً، والشرط إنشاء، وعلى هذا فإن ولـــه تعالى في المثال الأول: **(لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)** يكون جواباً للقسم المقدر أغنى عن جواب الشرط.

ودخول اللام الموطئة للقسم على الشرط ليس واجباً، فقد تحذف مع كون القسم مقدراً قبل الشرط. كقوله تعالى: **(وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَــرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)** [المائدة:73].

والذي يدل على أن الجواب للقسم لا للشرط دخول الــلام فيـــه وأنـــه لـــيس بمجزوم، بدليل قوله تعالى: **(قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ)** [الإسراء:88]، ولو كانت جملة **(لاَ يَأْتُونَ)** جواباً للشرط لجزم الفعل.

وأما قوله تعالى: **(وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ)** [آل عمــران:158] فاللام في **(وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ)** هي الموطئة للقسم، واللام في **(لإِلَى الله)** هي لام القسم، أي الواقعة في الجواب، ولم تدخل نون التوكيــد علـــى

الفعل[1] للفصل بينه وبين اللام بالجار والمجرور والأصل: لـــئن مـــتم أو قتلـــتم لتحشرون إلى الله.

إجراء بعض الأفعال مجرى القسم:

إذا كان القسم يأتي للتأكيد المقسم عليه فإن بعض الأفعال يجـــري مجـــراه إذا كان سياق الكلام في معناه، كقوله تعالى: **(**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ**)** [البقرة:83] وقوله: **(**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ**)** [البقـــرة:84] وقوله: **(**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**)** [النور:55].

---

1 يجب توكيد الفعل إذا كان مثبتاً مستقبلاً، جواباً لقسم، غير مفصول من لامه بفاصل، وجواب القسم هنـــا وإن كان مثبتاً مستقبلاً فإنه قد فصل بينه وبين اللام بالجار والمجرور.

جَدَل القرآن[1]

الحقائق الظاهرة الجلية يلمسها الإنسان وتنطق بها شواهد الكون ولا يحتــاج إلى برهان على ثبوتها، أو دليل على صحتها. ولكن المكابرة كثيــراً مــا تحمــل أصحابها على إثارة الشكوك وتمويه الحقائق يشبه تلبسها لباس الحق، وتزينها في مرآة العقل، فهي في حاجة إلى مقارعتها بالحجة، واستدراجها إلى مــا يلزمهــا بالاعتراف آمنت أو كفرت. والقرآن الكريم – وهو دعوة الله إلى الإنسانية كافة- وقف أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصــوله. فــألجم خصومتهم بالحس والعيان، وعارضتهم في أسلوب مقنع، واستدلال ملزم، وجــدل محكم.

تعريف الجدل

والجدل والجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلــزام الخــصم، أصلة من جدلت الحبل: أي أحكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخــر عن رأيه.

وقد ذكره الله في القرآن على أنه من طبيعة الإنسان في قوله: **(**وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**)** [الكهف:54] أي خصومة ومنازعة.

وأمر رسول الله **r** أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التي تلين عريكتهم في قوله: **(**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِــالَّتِي هِــيَ أَحْسَنُ**)** [النحل:125].

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة في قوله: **(**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**)** [العنكبوت:46].

ومثل هذا من قبيل المناظرة التي تهدف إلى إظهار الحق، وإقامة البرهان على صحته، وهي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين وإلــزام

---

1 أفرده من المتأخرين بالتصنيف العلامة سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم المعروف بابن أبي العباس الحنبلي نجم الدين الطوفي المتوفي سنة 716هـــ.

المعاندين. بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة، قال تعالى: **(**وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ**)** [الكهف:56].

طريقة القرآن في المناظرة

والقرآن الكريم تناول كثيراً من الأدلة والبراهين التي حاجَّ بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع في أسلوب واضح النتائج، سليم التركيب، لا يحتاج إلى إعمال عقل أو كثير بحث.

ولم يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج التي يعتمدون عليها، من الاستدلال بالكلي على الجزئي في قياس الشمول، أو الاستدلال بأحد الجزأين على الآخر في قياس التمثيل، أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء.

(أ) لأن القرآن جاء بلسان العرب، وخاطبهم بما يعرفون.

(ب) ولأن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثراً وأبلغ حجة.

(ج) ولأن ترك الجلي من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والإفلغاز لا يفهمه إلا الخاصة، وهو على طريقة المناطقة ليس سليماً من كل وجه، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة في القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الرد على المنطقيين): ((وما يذكره النظار من الأدلة القياسية التي يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شيء منها على عينه، وإنما يدل على أمر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، فإنا إذا قلنا: هذا محدَث، وكل محدث فلابد له من محدِث. أو ممكن، والممكن لابد له من واجب، إنما يدل هذا على محدث مطلق، أو واجب مطلق.. لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه))...

وقال: (فبرهانهم لا يدل على شيء معين بخصوصه، لا واجب الوجـــود ولا غيره، وإنما يدل على أمر كلي، والكلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيـــه، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه، ومن لم يتصور مـــا يمنـــع الشركة فيه لم يكن قد عرف الله))... وقال: ((وهذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات في كتابه، كقوله: **(**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِـــهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)** [البقرة:164] وقوله: **(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)**، **(**لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**)** وغير ذلك، فإنه يدل على المعين كالشمس التي هي آية النهار... وقال تعالى: **(**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَـــا آيَـــةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّـــن رَّبِّكُـــمْ وَلِتَعْلَمُـــواْ عَـــدَدَ الـــسِّنِينَ وَالْحِـــسَابَ**)** [الإسراء:12] فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه، فيلزم من وجوده وجـــود عـــين الخـــالق نفسه)).

فأدلة الله على توحيده وما أخبر به من المعاد، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لا تفتقر إلى قياس شمولي أو تمثيلي، بل هي مستلزمة لمدلولها عيناً، والعلم بها مستلزم للعلم بالمدلول، وانتقال الذهن منها إلى المدلول بيّن واضـــح كانتقـــال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها، وهذا النوع من الاستدلال بدهي يستوي في إدراكه كل العقول.

قال الزركشي[1]: ((اعلم أن القرآن العظيم قد اشـــتمل علـــى جميـــع أنـــواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى علـــى عـــادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين:

---

1 انظر ((البرهان)) صفحة24 وما بعدها، بتصرف.

أحدهما: بسبب ما قاله: **(**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**)** [إبراهيم:4] الآية.

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخطّ إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزاً، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على ادق دقيق، لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم الخطباء.

وعلى هذا حمل الحديث المروي: ((إن لكل آية ظهراً وبطناً ولكل حرف حداً ومطلعاً)) لا على ما ذهب إليه الباطنية، ومن هذا الوجه كلُّ من كان حظه في العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر، ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافته إلى أولي العقل، ومرة إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرة إلى المتذكرين، تنبيهاً أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها، وذلك نحو قوله تعالى: **(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)** [الرعد:4] وغيرها من الآيات.

واعلم أنه قد يظهر منه بدقيق الفكر استنباط البراهين العقلية على طرق المتكلمين.... ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد، بدلالة التمانع المشار إليه في قوله تعالى: **(**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**)** [الأنبياء:22] لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على إحكام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزاً)).

أنواع من مناظرات القرآن وأدلته

(أ) ما يذكره تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه في ألوهيته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر - وهذا النوع كثير في القرآن.

فمنه قوله تعالى: **(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ~ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء

فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة:21، 22] وقوله تعالى: (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) - إلى قوله- (لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [البقرة:163، 164].

(ب) ما يرد به على الخصوم ويلزم أهل العناد، ولهذا صور مختلفة:

1- منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره، كالاستدلال بالخلق على وجود خالق في مثل قوله تعالى: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ~ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ~ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ~ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ~ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ~ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ~ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ~ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ~ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [الطور:35-43].

2- الاستدلال بالمدأ على المعاد. كقوله تعالى: (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) [ق:15] وقوله: (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ~ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ~ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ~ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ~ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى) [القيامة:36-40] وقوله: (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ~ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ~ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ~ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) [الطارق:5-8]، ومثله الاستدلال بحياة الأرض بغير موتها بالإنباث على الحياة بعد الموت للحساب كقوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى) [فصلت:39].

3- إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها- كقوله تعالى: (وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) [الأنعام:91] رداً على

اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله: **(**وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ**)**.

4- السبر والتقسيم- بحصر الأوصاف، وإبطال أن يكون واحد منها على للحكم، كقوله تعالى: **(**ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ~ وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)** [الأنعام 143-144].

5- إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد- كقوله تعالى: **(**وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ~ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)** [الأنعام:100-101] فنفي التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد، وأن التولد إنما يكون من اثنين، وهو سبحانه لا صاحبة له، وأيضاً فإنه خلق كل شيء، وخلقه لكل شيء يناقض أن يتولد عنه شيء، وهو بكل شيء عليم، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع، فيمتنع مع كونه عالماً ان يكون كالأمور الطبيعية التي يتولد عنها الأشياء بلا شعور- كالحار والبارد، فلا يجوز إضافة الولد إليه[1].

وهناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة، كمناظرة الأنبياء مع أممهم، أو فريق المؤمنين مع المنافقين، وما شابه ذلك.

---

1 هذه الفقرة(*) من كتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهي رائعة في الاستدلال.

قصص القرآن

الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس، والموعظة الخطابية تسرد سرداً لا يجمع العقل أطرافها ولا يعي جميع ما يلقى فيها، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها، ويرتاح المرء لسماعها، ويصغي إليها بشوق ولهفة، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات، وقد أصبح أدب القصة اليوم فناً خاصاً من فنون اللغة وآدابها، والقصص الصادق يمثل هذا في الأسلوب العربي الأقوى تمثيل، ويصوره في أبلغ صورة قصص: القرآن الكريم.

معنى القصص

القصّ: تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره: أي تتبعته، والقصص مصدر، قال تعالى: **(**فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا**)** [الكهف:64] أي رجعا يقصان الأثر الذي جاءا به. وقال على لسان أم موسى **(**وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ**)** [القصص:11] أي تتبعي أثره حتى تنظري ن يأخذه. والقصص كذلك: الأخبار المتتبعة قال تعالى: **(**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ**)** [آل عمران:62] وقال: **(**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**)** [يوسف:111] والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال.

وقصص القرآن: إخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة- وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه.

أنواع القصص في القرآن

والقصص في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة

المؤمنين والمكذبين. كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت. وطالوت وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب السبت ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحوهم.

النوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله r كغزوة بدر وأُحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء ونحو ذلك.

فوائد قصص القرآن

وللقصص القرآني فوائد نجمل أهمها فيما يأتي:

1- إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي **(**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**)** [الأنبياء:25].

2- تثبيت قلب رسول الله r وقلوب الأمة المحمدية على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده، وخذلان الباطل وأهله **(**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**)** [هود:120].

3- تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم.

4- إظهار صدق محمد r في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال.

5- مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، كقوله تعالى: **(**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**)** [آل عمران:93].

6- والقصص ضرب من ضروب الأدب، يصغي إليه السمع، وترسخ عبره في النفس، **(**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**)** [يوسف:111].

تكرار القصص وحكمته

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن، وتعرض في صور مختلفة في التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، وما شابه ذلك، ومن حكمه هذا:

1- بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها. فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

2- قوة الإعجاز، فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي.

3- الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس، فإن التكرار من طرق التأكيد وإمارات الاهتمام. كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون، لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل، مع أن القصة لا تكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها.

4- اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة- فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضات الأحوال.

القصة في القرآن حقيقة لا خيال

ومن الجدير بالذكر أن أحد الطلاب الجامعيين في مصر قدم رسالة لنيل درجة (الدكتوراه) كان موضوعها ((الفن القصصي في القرآن))[1] أثارت جدلاً طويلاً سنة 1367هجرية، وكتب عنها أحد أعضاء اللجنة الذين اشتركوا في مناقشة الرسالة، وهو الأستاذ أحمد أمين- تقريراً بعث به إلى عميد كلية الآداب، ونشر في مجلة ((الرسالة)) وقد تضمن التقرير نقداً لاذعاً لما كتبه الطالب الجامعي، وإن كان أستاذه المشرف قد دافع عنه. وصدّر الأستاذ أحمد أمين تقريره بالعبارة الآتية:

((وقد وجدتها رسالة ليست عادية، بل هي رسالة خطيرة، أساسها أن القصص في القرآن عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ. والواقع أن محمداً فنان بهذا المعنى)) ثم قال: ((وعلى هذا الأساس كتب كل الرسالة من أولها إلى آخرها، وأني أرى من الواجب أن أسوق بعض امثلة، توضح مرامي كاتب هذه الرسالة وكيفية بنائها)) ثم أورد الأستاذ أحمد أمين أمثلة منتزعة من الرسالة تشهد بما وصفها به من هذه العبارة المجملة[2]. كادعاء صاحب الرسالة أن القصة في القرآن لا تلتزم الصدق التاريخي. وإنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادثة تصويراً فنياً، وزعمه أن القرآن يختلق بعض القصص وأن الأقدمين أخطأوا في عدّ القصص القرآني تاريخاً يعتمد عليه...

والمسلم الحق هو الذي يؤمن بأن القرآن كلام الله، وأنه منزه عن ذلك التصوير الفني الذي لا يعني فيه بالواقع التاريخي، وليس قصص القرآن إلا الحقائق التاريخية تصاغ في صور بديعة من الألفاظ المنتقاة، والأساليب الرائعة.

ولعل صاحب الرسالة درس فن القصة في الأدب، وأدرك من عناصرها الأساسية الخيال الذي يعتمد على التصور، وأنه كلما ارتقى خيالها ونأى عن الواقع كثر الشوق إليها، ورغبت النفس فيها، واستمتعت بقراءتها. ثم قاس القصص القرآني على القصة الأدبية.

---

1 هو الدكتور أحمد خلف الله.

2 انظر نقد كتاب ((الفن القصصي في القرآن- للأستاذ محمد الخضر حسين- بلاغة القرآن صفحة94.

وليس القرآن كذلك، فإنه تنزيل من عليم حكيم، ولا يرد في أخبــاره إلا مــا يكون موافقاً للواقع، وإذا كان الفضلاء من الناس يتورعون من أن يقولــوا زوراً ويعدونه من أقبح الرذائل المزرية بالإنسانية، فكيف يسوغ لعاقل أن يلصق الزور بكلام ذي العزة والجلال؟

والله تعالى هو الحق:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ**)** [الحج:62].

وأرسل رسوله بالحق.

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**)** [فاطر:24].

(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ**)** [فاطر:31].

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ**)** [النساء:170].

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**)** [المائدة:48].

(وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ**)** [الرعد:1].

وما قصه الله تعالى في القرآن هو الحق:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ**)** [الكهف:13].

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ**)** [القصص:3].

أثر القصص القرآني في التربية والتهذيب

مما لا شك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف- وتنفذ إلــى النفس البشرية بسهولة ويسر، وتسترسل مع سياقها المشاعر فلا تمــل ولا تكــد، ويرتاد العقل عناصرها فيجني من حقولها الأزاهير والثمار.

والدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل، ولا تــستطيع الناشــئة أن تتابعهــا وتستوعب عناصرها إلا بصعوبة وشدة. وإلى أمد قصير. ولــذا كــان الأســلوب القصصي أجدى نفعاً، وأكثر فائدة.

والمعهود – حتى في حياة الطفولة- أن يميل الطفل إلــى ســماع الحكايــة، ويصغي إلى رواية القصة، وتعي ذاكرته ما يروى له، فيحاكيه ويقصه.

هذه الظاهرة الفطرية النفسية ينبغي للمربين أن يفيدوا منهـا فـي مجـالات التعليم، لاسيما التهذيب الديني، الذي هو لب التعليم، وقوام التوجيه فيه.

وفي القصص القرآني تربة خصبة تساعد المربين على النجاح في مهمـتهم، وتمدهم بزاد تهذيبي، من سيرة النبيين، وأخبار الماضـين وسـنة الله فـي حيـاة المجتمعات، وأحوال الأمم. ولا تقول في ذلك إلا حقاً وصدقاً.

ويستطيع المربي أن يصوغ القصة القرآنية بالأسلوب الذي يلائـم المـستوى الفكري للمتعلمين، في كل مرحلة من مراحل التعلـيم. وقـد نجحـت مجموعـة القصص الديني للأستاذين ((سيد قطب، والسحار)) فـي تقـديم زاد مفيـد نـافع لصغارنا نجاحاً معدوم النظير، كما قدم ((الجارم)) القصص القرآني في أسـلوب أدبي بليغ أعلى مستوى، وأكثر تحليلاً وعمقاً. وحبذا لو نهج آخرون هـذا الـنهج التربوي السديد[1].

ترجمة القرآن

يتوقف نجاح الدعوة إلى حد كبير على التقارب بين الداعية وأمته. فالداعيـة الذي ينبت من صميم البيئة يكون على دراية كاملة بمسالك الغواية ودروب الجهالة التي يغشاها قومه. يعرف نفوسهم والأبواب التي يطرقها منها حتى تتفتح لتعـاليم دعوته، وتهتدي بهداها، والتخاطب بينهما بلسان واحد رمز للتجانس الاجتمـاعي في جميع صوره. وفي هذا يقول الله تعالى: **(**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُـولٍ إِلاَّ بِلِـسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**)** [إبراهيم:4].

وقد نزل القرآن الكريم على الرسول العربي بلسان عربي مبين، فكانت هـذه الظاهرة ضرورة اجتماعية لنجاح رسالة الإسلام، ومنذ ذلك الحين أصبحت اللغـة العربية جزءاً من كيان الإسلام، وأساساً للتخاطب في إبلاغ دعوته. وكانت بعثـة رسولنا **r** إلى الإنسانية كلها. وأعلن ذلك القرآن في غير موضع **(**قُلْ يَـا أَيُّهَـا

1 صدر السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي مجموعة قصص النبيين وهي من القصص الرائدة (الناشر).

النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) [الأعراف:158] (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) [سبأ:28].

ونشأت نواة الدولة الإسلامية في جزيرة العرب، ولاشك أن اللغة تحيا بحيـــاة أمتها وتموت بموتها، فكانت نشأة الدولة الإسلامية على هذا النحـــو حيـــاة للغـــة العرب، فالقرآن وحي الإسلام، والإسلام دين الله المفروض، ولن يتـــأتى معرفـــة أصوله وأسسه إلا إذا فهم القرآن بلغته، فأخذت موجة الفتح الإسلامي تمتـــد إلـــى الألسنة الأخرى الأعجمية، فتعربها بالإسلام، وصار لزاماً على كل من يدخل في حوزة هذا الدين الجديد أن يستجيب له في لغة كتابه باطناً وظاهراً، حتى يـــستطيع القيام بواجباته، ولم يكن هناك حاجة إلى ترجمة القرآن له مادام القرآن قد تـــرجم لسانه وعربه إيماناً وتسليماً.

معنى الترجمة

والترجمة تطلق على معنيين:

أولهما: الترجمة الحرفية: وهي نقل ألفاظ من لغة إلى نظائرهـــا مـــن اللغـــة الأخرى بحيث يكون النظم موافقاً للنظم، والترتيب موافقاً للترتيب.

ثانيهما: الترجمة التفسيرية أو المعنوية: وهي بيان معنى الكلام بلغة أخـــرى من غير تقييد بترتيب كلمات الأصل أو مراعاة لنظمه.

والذين على بصر باللغات يعرفون أن الترجمة الحرفية بالمعنى المـــذكور لا يمكن حصولها مع المحافظة على سياق الأصل والإحاطة بجميـــع معنـــاه. فـــإن خواص ذلك لغة تختلف عن الأخرى في ترتيب أجزاء الجملة. فالجملة الفعلية في اللغة العربية تبدأ بالفعل فالفاعل في الاستفهام وغيره، والمـــضاف مقـــدم علـــى المضاف إليه، والموصوف مقدم على الصفة، إلا إذا أريد الإضافة علـــى وجـــه التشبيه مثلاً كلجين الماء، أو كان الكلام من إضافة الصفة إلى معمولهـــا كعظـــيم الأمل، وليس الشأن كذلك في سائر اللغات.

والتعبير العربي يحمل في طياته من أسرار اللغة ما لا يمكن أن يحمل محله تعبير آخر بلغة أخرى، فإن الألفاظ في الترجمة لا تكون متساوية المعنى من كل وجه فضلاً عن التراكيب.

والقرآن الكريم في قمة العربية فصاحة وبلاغة، وله من خواص التراكيب والأسرار الأساليب ولطائف المعني، وسائر آيات إعجازه ما لا يستقل بأدائه لسان.

حكم الترجمة الحرفية

ولهذا لا يجد المرء أدنى شبهة في حرمة ترجمة القرآن ترجمة حرفية. فالقرآن كلام الله المنزل على رسوله المعجز بألفاظه ومعانيه المتعبد بتلاوته، ولا يقول أحد من الناس إن الكلمة من القرآن إذا ترجمت يقال فيها إنها كلام الله، فإن الله لم يتكلم إلا بما نتلوه بالعربية، ولن يتأتى الإعجاز بالترجمة، لأن الإعجاز خاص بما أنزل باللغة العربية- والذي يتعبد بتلاوته هو ذلك القرآن العربي المبين بألفاظ وحروفه وترتيب كلماته.

فترجمة القرآن الحرفية على هذا مهما كان المترجم على دراية باللغات وأساليبها وتراكيبها تخرج القرآن عن أن يكون قرآناً.

الترجمة المعنوية

القرآن الكريم وكذا كل كلام عربي بليغ- له معان أصلية، ومعان ثانوية.

والمراد بالمعاني الأصلية المعاني التي يستوي في فهمها كل من عرف مدلولات الألفاظ المفردة وعرف وجوه تراكيبها معرفة إجمالية.

والمراد بالمعاني الثانوية خواص النظم التي يرتفع بها شأن الكلام، وبها كان القرآن معجزاً.

فالمعنى الأصلي لبعض الآيات قد يوافق فيه منثور كلام العرب أو منظومه، ولا تمس هذه الموافقة إعجاز القرآن، فإن إعجازه ببديع نظمه وروعة بيانه، أي بالمعنى الثانوي. وإياه عنى الزمخشري في كشافه بقوله: ((إن في كلام العرب- خصوصاً القرآن- من لطائف المعاني ما لا يستقل بأدائه لسان)).

حكم الترجمة المعنوية

وترجمة معاني القرآن الثانوية أمر غير ميسور، إذ أنه توجد لغة توافق اللغة العربية في دلالة ألفاظها على هذه المعاني المسماة عند علماء البيان خواص التراكيب، وذلك ما لا يسهل على أحد ادعاؤه. وهو ا يقصده الزمخشري من عبارته السابقة. فوجوه البلاغة القرآنية في اللفظ أو التركيب. تنكيراً وتعريفاً، أو تقديماً وتأخيراً، أو ذكراً وحذفاً، إلى غير ذلك مما تسامت به لغة القرآن، وكان له وقعه في النفوس- هذه الوجوه في بلاغة القرآن لا يفي بحقها في أداء معناها لغة أخرى، لأن أي لغة لا تحمل تلك الخواص.

أما المعاني الأصلية فهي التي يمكن نقلها إلى لغة أخرى. وقد ذكر الشاطبي في الموافقات المعاني الأصلية والمعاني الثانوية ثم قال: ((إن ترجمة القرآن على الوجه الأول- يعني النظر إلى معانيه الأصلية- ممكن- ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معانيه للعامة ومن ليس لهم فهم يقوى على تحصيل معانيه. وكان ذلك جائزاً باتفاق أهل الإسلام، فصار هذا الاتفاق حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي)).

ومع هذا فإن ترجمة المعاني الأصلية لا تخلو من فساد فإن اللفظ الواحد في القرآن قد يكون له معنيان أو معان تحتملها الآية فيضع المترجم لفظاً يدل على معنى واحد حيث لا يجد لفظاً يشاكل اللفظ العربي في احتمال تلك المعاني المتعددة.

وقد يستعمل القرآن اللفظ في معنى منجازي فيأتي المترجم بلفظ يرادف اللفظ العربي في معناه الحقيقي. ولهذا ونحوه وقعت أخطاء كثيرة فيما ترجم لمعاني القرآن.

وما ذهب إليه الشاطبي واعتبره حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي ليس على إطلاقه. فإن بعض العلماء يخص هذا بمقدار الضرورة في إبلاغ الدعوة. بالتوحيد وأركان العبادات، ولا يتعرض لما سوى ذلك، ويؤمر من أراد الزيادة بتعلم اللسان العربي.

الترجمة التفسيرية

ويحق لنا أن نقول: إن علماء الإسلام إذا قاموا بتفسير للقرآن، يتوخى فيه أداء المعنى القريب الميسور الراجح، ثم يترجم هذا التفسير بأمانة وبراعة، فإن هذا يقال فيه ((ترجمة تفسير القرآن)) أو ((ترجمة تفسيرية)) بمعنى شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى. ولا بأس بذلك، فإن الله تعالى بعث محمداً r برسالة الإسلام إلى البشرية كافة على اختلاف أجناسها وألوانها ((وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعِثْتُ إلى الناس كافة))[1] وشرط لزوم الرسالة البلاغ- والقرآن الذي نزل بلغة العرب صار إبلاغه للأمة العربية ملزماً لها، ولكن سائر الأمم التي لا تحسن العربية، أو لا تعرفها يتوقف إبلاغها الدعوة على ترجمتها بلسانها. وقد عرفنا قبل استحالة الترجمة الحرفية وحرمتها. واستحالة ترجمة المعاني الثانوية، ومشقة ترجمة المعاني الأصلية وما فيها من أخطار، فلم يبق إلا أن يترجم تفسير القرآن الذي يتضمن أسس دعوته بما يتفق مع نصوص الكتاب وصريح السنة إلى لسان كل قبيل حتى تبلغهم الدعوة وتلزمهم الحجة. وترجمة تفسير القرآن على نحو ما ذكرنا يصح أن نسميها بالترجمة التفسيرية. وهي تختلف عن الترجمة المعنوية وإن كان الباحثون لا يفرقون بينهما، فإن الترجمة المعنوية توهم أن المترجم أخذ معاني القرآن من أطرافها ونقلها إلى اللغة الأجنبية، كما يقال في ترجمة غيره: ترجمة طبق الأصل. فالمفسر يتكلم بلهجة المبين لمعنى الكلام على حسب فهمه، فكأنه يقول للناس: هذا ما أفهمه من الآية، والمترجم يتكلم بلهجة من أحاط بمعنى الكلام وصبه في ألفاظ لغة أخرى. وشتان بين الأمرين. فالمفسر يقول في تفسير الآية: يعني كذا، ويذكر فهمه الخاص. والمترجم يقول: معنى هذا الكلام هو عين معنى الآية، وقد عرفنا ما في ذلك.

وينبغي أن يؤكد في الترجمة التفسيرية أنها ترجمة لفهم شخصي خاص، لا تتضمن وجوه التأويل المحتملة لمعاني القرآن، وإنما تتضمن ما أدركه المفسر منها، وبهذا تكون ترجمة للعقيدة الإسلامية ومبادئ الشريعة كما تفهم من القرآن.

---

1 من حديث: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي... في الصحيحين وغيرهما..)).

وإذا كان إبلاغ الدعوة من واجبات الإسلام فإن ما يتوقف على هذا البلاغ من دراسة اللغات ونقل أصول الإسلام إليها واجب كذلك. كما أن معرفتنا لهه اللغات بالقدر الضروري تمكننا من دراسة كتبها للرد على المبشرين والمستشرقين الذين غمزوا عود الإسلام من بعيد أو قريب، وهذا هو ما عناه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه ((العقل والنقل)) عندما قال: ((وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك، وكانت المعاني صحيحة- كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم، فإن هذا جائز حسن للحاجة، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه)) ثم قال: ((ولذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم، ويترجم بالعربية، كما أمر النبي r زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأ له ويكتب له ذلك حيث لم يأتمن اليهود عليه)).

وإذا كانت الترجمة بمعناها الحقيقي ولو للمعاني الأصلية لا تتيسر في جميع آيات القرآن. وإنما المتيسر الترجمة على معنى التفسير كان من الضروري إشعار القارئ بذلك، ومن وسائله كتابة جمل في حواشي الصحائف يبين بها أن هذا أحد وجوه أو أرجح وجوه تحتملها الآية ((ولو قامت جماعة ذات نيات صالحة وعقول راجحة. وتولت نقل تفسير القرآن إلى بعض اللغات الأجنبية، وهي على بينة من مقاصده- وعلى رسوخ في معرفة تلك اللغات، وتحامت الوجوه التي دخل منها الخلل في التراجم السائرة اليوم في أوربا لفتحت لدعوة الحق سبيلاً كانت مقفلة. ونشرت الحنفية السمحة في بلاد طافحة بالغواية قاتمة))[1].

---

1 بلاغة القرآن- صفحة21.

القراءة في الصلاة بغير العربية

يختلف العلماء في القراءة في الصلاة بغير العربية إلى مذهبين:

أحدهما: الجواز مطلقاً أو عند العجز عن النطق بالعربية.

وثانيهما: أن ذلك محظور، والصلاة بهذه الطريقة غير صحيحة.

والمذهب الأول هو مذهب الأحناف، فإنه يروى عن أبي حنيفة أنه كان يرى جواز القراءة في الصلاة باللغة الفارسية، وبنى على هذا بعض أصحابه جوازها بالتركية والهندية وغيرها من الألسنة، ولعلهم يرون في ذلك أن القرآن اسم للمعاني التي تدل عليها الألفاظ العربية. والمعاني لا تختلف باختلاف ما قد يتعاقب عليها من الألفاظ واللغات.

وقيد الصاحبان: أبو يوسف ومحمد بن الحسين. هذا بما تدعو إليه الضرورة. فأجازا للعاجز عن العربية القراءة في الصلاة باللسان الأعجمي دون القادر على القراءة بها، قال في ((معراج الدراية)): ((إنما جوزنا القراءة بترجمة القرآن للعاجز إذا لم يخل بالمعنى، لأنه قرآن من وجه باعتبار اشتماله على المعنى، فالإتيان به أولى من الترك مطلقاً، إذ التكليف بحسب الوسع..)).

ويروى أن أبا حنيفة رجع عن الإطلاق الذي نقل عنه.

والمذهب الثاني هو ما عليه الجمهور، فقد منع المالكية والشافعية والحنابلة القراءة بترجمة القرآن في الصلاة، سواء أكان المصلي قادراً على العربية أم عاجزاً، لن ترجمة القرآن ليست قرآناً، إذ القرآن هو النظم المعجز الذي هو كلام الله، والذي وصفه تعالى بكونه عربياً، وبالترجمة يزول الإعجاز، وليست الترجمة كلام الله.

قال القاضي أبو بكر بن العربي، وهو من فقهاء المالكية، في تفسير قوله تعالى: **(**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ**)** [فصلت:44] قال علماؤنا: هذا يبطل قول أبي حنيفة رضي الله عنه، إن ترجمة القرآن بإبدال اللغة العربية منه بالفارسية جائز، لأن الله تعالى قال: **(**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ

بَعِيدٍ) نفى ان يكون للعجمة إليه طريق- فكيف يصرف إلى ما نفى الله عنه؟ ثم قال: إن التبيان والإعجاز إنما يكون بلغة العرب، فلو قلب إلى غير هذا لما كان قرآناً ولا بياناً ولا اقتضى إعجازاً)).

وقال الحافظ ابن حجر- وهو من فقهاء الشافعية- في ((فتح الباري)): ((إن كان القارئ قادراً على تلاوته باللسان العربي فلا يجوز له العدول عنه، ولا تجزئ صلاته- أي بقراءة ترجمته- وإن كان عاجزاً)) ثم ذكر أن الشارع قد جعل للعاجز عن القراءة بالعربية بدلاً وهو الذكر)).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- وهو من فقهاء الحنابلة- وإن كانت له اجتهاداته: ((وأما الإتيان بلفظ يبين المعنى كبيان لفظ القرآن فهذا غير ممكن أصلاً، ولهذا كان أئمة الدين على أنه لا يجوز أن يقرأ بغير العربية، لا مع القدرة عليها ولا مع العجز عنها، لأن ذلك يخرجه عن أن يكون هو القرآن المنزل))[1].

ويقول ابن تيمية في ((كتاب اقتضاء الصراط المستقيم)) عند الحديث عن اختلاف الفقهاء في أذكار الصلاة، أتقال بغير العربية أم لا؟: ((فأما القرآن فلا يقرؤه بغير العربية سواء قدر عليها او لم يقدر عند الجمهور، وهذا هو الصواب الذي لا ريب فيه، بل قد قال غير واحد أنه يمتنع أن يترجم سورة أو مما يقدم به الإعجاز)) وقد خص السورة أو ما يقوم به الإعجاز إشارة إلى أقل ما وقع به التحدي.

والدين يوجب على معتنقيه تعلم العربية لأنها لغة القرآن ومفتاح فهمه. قال ابن تيمية كذلك في الاقتضاء: ((وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين- ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهمان إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)).

أما اختلاف الأحناف في جواز الصلاة بترجمة القرآن، فالمجيزون يرون إباحة هذا عند العجز على أنه رخصة، وهم متفقون على أن الترجمة لا تسمى قرآناً، فهي لمجرد الإجزاء في الصلاة، ومثلها مثل ذكر الله عند غير الحنفية.

---

1 بلاغة القرآن-15.

والذكر في الصلاة مختلف فيه، سواء أكان واجباً كتكبيرة الإحـــرام أم غيـــر واجب؟ فقد منع ترجمة الأذكار الواجبة مالك وإسحاق وأحمد في أصح الروايتين. وأباحها أبو يوسف ومحمد والشافعي، وسائر الأذكار لا يترجم عد مالك وإســـحاق وبعض أصحاب الشافعي، ومتى فصل بالترجمة بطلت صلاته)) ونص الـــشافعي على الكراهة وهو قول أصحاب أحمد إذا لم يحسن العربية.

قوة الأمة الإسلامية هي سبيل انتصار الإسلام وسيادة لغة القرآن وننتهي من هذا البحث إلى أن القرآن لا يمكن ولا يجوز أن يترجم ترجمة حرفية. وأن ترجمة المعاني الأصلية وإن كانت ممكنة في بعض الآيات الواضحة المعنى فإنها لا تخلو من فساد. وأن ترجمة المعاني الثانوية غير ممكنة، لأن وجوه البلاغة القرآنيـــة لا تؤديها ألفاظ بأي لغة أخرى.

بقي أن يفسر القرآن، وأن يترجم تفسيره لإبلاغ دعوته. قال القفال - من كبار علماء الشافعية -: ((عندي أنه لا يقدر أحد على أن يأتي بالقرآن بالفارسية. قيـــل له: فإذاً لا يقدر أحد أن يفسر القرآن، قال: ليس كذلك، لأنه هناك يجوز أن يـــأتي ببعض مراد الله ويعجز عن بعضه، أما إذا أراد أن يقرأها بالفارسية فلا يمكن أن يأتي بجميع مراد الله)).

وترجمة التفسير تكون ضرورة بقدر الحاجة إلى إبلاغ دعوة الإســـلام إلـــى الشعوب غير الإسلامية، قال الجاحظ ابن حجر: ((فمـــن دخـــل الإســـلام أو أراد الدخول فيه فقرئ عليه القرآن فلم يفهمه فلا بأس أن يعرّب له لتعريف أحكامه. أو لتقوم عليه الحجة فيدخل فيه))[1].

وقد كان المسلمون فيما سلف يقتحمون للسيادة كل وعر ويركبون لإظهار دين الله كل خطر، ويلبسون من برود البطولة والعدل وكرم الأخلاق ما يمـــلأ عيـــون مخالفيهم مهابة وإكباراً، وكانت اللغة العربية تجر رداءها أينما رفعـــوا رايـــتهم، وتنتشر في كل واد وطئته أقدامهم، فلم يشعروا في دعوتهم إلى الإسلام بالحاجـــة إلى نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية، وربما كان عدم نقلها إلى غير العربية

---

1 فتح الباري باب ما يجوز من تفسير التوراة وكتب الله بالعربية.

وهم في تلك العزة والسلطان من أسباب إقبال غير العرب على معرفة لسان العرب، حتى صارت أوطان أعجمية إلى النطق بالعربية))[1].

والظاهرة التي نشاهدها الآن في ضرورة تعلم اللغات الأجنبية للأمة العربية حتى تتمكن من إرسال بعثاتها العلمية إلى جامعات الدول الأخرى، أو دراسة أمهات الكتب للعلوم الكونية في جامعاتها لأنها بلغة أجنبية لمؤلفين أجانب- هذه الظاهرة دعت إليها الحاجة إلى العلم والثقافة، ونحن نراها تنشر سيطرتها على تفكير الكثير وتحدد اتجاهه في الحياة، وتصل إلى درجة الولوع بها والشغف والتوسع في فنونها، وقد كان لها الأثر البالغ في الأخلاق والعادات والتقاليد مما جعل حياتنا العامة في شتى صورها تخرج عن سمت الإسلام وطابع فضائله، ولم تكن الأمم الأخرى في حاجة إلى ترجمة كتبها إلى اللغة العربية لما لها من المكانة العلمية فلو ظلت دولة الإسلام في طريق نهضتها الأولى علماً وثقافة وسياسة وخلقاً وقوة وسلطاناً ومهابة لرمقها العالم من جميع أطراف المعمورة، وتطلع إلى دراسة اللغة العربية لينهل من معين نتاج الإسلام الفكري، ويروي ظمأه من معارفه، ويستظل بسلطانه، ويحتمي في سيادته، ولرأى في هذا حاجته بمثل ما نرى نحن اليوم حاجتنا إلى لغته.

فالحديث عن ترجمة القرآن من مظاهر ضعف دولته، وحري بنا أن يتجه نظرنا إلى بذل جهودنا في تكوين دولة القرآن وتوطيد دعائم نهضتها على أساس من الإيمان والعلم والمعرفة، فهي وحدها الكفيلة بالسيطرة الروحية على أجناس البشر وتعريب ألسنتهم. وإذا كان الإسلام هو دين الإنسانية كافة، فالشأن في لغته حين نعمل على تحقيق ما كتبه الله له ولأمته من العزة أن تكون كذلك.

---

1 بلاغة القرآن، صفحة18.

التفسير والتأويل

القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول للأمة المحمدية، وعلى فقه معناه ومعرفة أسراره والعمل بما فيه تتوقف سعادتها. ولا يستوي الناس جميعاً في فهم ألفاظه وعباراته مع وضوح بيانه وتفصيل آياته، فإنَّ تفاوت الإدراك بينهم أمر لا مراء فيه فالعامي يدرك من المعاني ظاهرها ومن الآيات مجملها، والذكي المتعلم يستخرج منها المعنى الرائع. وبين هذا وذاك مراتب فهم شتى، فلا غرو أن يجد القرآن من أبناء أمته اهتماماً بالغاً في الدراسة لتفسير غريب، أو تأويل تركيب.

معنى التفسير والتأويل

التفسير في اللغة:- تفعيل من الفسر بمعنى الإبانة والكشف وإظهار المعنى المعقول، وفعله: كضرب ونصر، يقال: فسر الشيء يفسر بالكسر ويفسره بالضم فسرا، وفسّره: أبانه، والتفسير والفسر: الإبانة وكشف المغطى، وفي لسان العرب: الفسر كشف المغطى. والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل. وفي القرآن **(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)** [الفرقان:33] أي بياناً وتفصيلاً والمزيد من الفعلين أكثر في الاستعمال.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: **(وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)** أي تفصيلاً.

وقال بعضهم: هو مقلوب من ((سَفَر)) ومعناه أيضاً: الكشف، يقال: سفرت المرأة سفوراً: إذا ألقت خمارها عن وجهها، وهي سافرة، وأسفر الصبح: أضاء، وإنما بَنَوْه على التفعيل، لأنه للتكثير، كقوله تعالى: **(يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ)** [البقرة:49] وقوله: **(وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ)** [يوسف:23] فكأنه يتبع سورة بعد سورة، وآية بعد أخرى.

وقال الراغب: القَسْر والسّفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جعل الفسْر لإظهار المعنى المعقول، وجعل السّفْر لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل سفرت المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح.

والتفسير في الاصطلاح:- عرفه أبو حيان بأنه: ((علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك.

ثم خرج التعريف فقال: فقولنا: علم، هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، هذا هو علم القراءات، وقولنا! ومدلولاتها، أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم، وقولنا: وأحكامها الإفرادية والتركيبية، هذا يشمل علم التصريف وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع، وقولنا: ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة، وما دلالته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر، وهو المجاز، وقولنا: وتتمات لذلك. هو معرفة النسخ وسبب النزول، وقصة توضيح بعض ما أنبهم في القرآن ونحو ذلك.

وقال الزركشي: التفسير: علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد r، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه[1].

والتأويل في اللغة: مأخوذ من الأول، وهو الرجوع إلى الأصل، يقال: آل إليه أولاً ومآلاً: رجع.. ويقال: أول الكلام تأويلاً وتأوله: دبره وقدره وفسره. وعلى هذا: فتأويل الكلام في الاصطلاح له معنيان: 1- تأويل تأويل الكلام: بمعنى ما أوله إليه المتكلم أو ما يؤول إليه الكلام ويرجع، والكلام إنما يرجع ويعود إلى حقيقته التي هي عين المقصود. وهو نوعان: إنشاء وإخبار، ومن الإنشاء الأمر.

فتأويل الأمر: هو الفعل المأمور به، ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان رسول الله r يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن[2] نعني قوله تعالى: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) [النصر:3].

---

1 الإتقان صفحة 174ج 2.

2 رواه البخاري ومسلم.

وتأويل الإخبار: هو عين المخبر به إذا وقع. كقوله تعالى: **(**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ~ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**)** [الأعراف: 52، 35].

فقد أخبر أنه فصل الكتاب، وأنهم لا ينتظرون إلا تأويله، أي مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه، من القيامة وأشراطها، وما في الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وغير ذلك. فحينئذ يقولون: **(**فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**)**؟

2- تأويل الكلام: أي تفسيره وبيان معناه. وهو ما يعنيه ابن جرير الطبري في تفسيره بقوله: ((القول في تأويل تعالى كذا وكذا)) وبقوله: ((اختلف أهل التأويل في هذه الآية)) فإن مراده التفسير.

ذلك هو معنى التأويل عند السلف:

والتأويل في عرف المتأخرين: هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به- وهذا الاصطلاح لا يتفق مع ما يراد بلفظ التأويل في القرآن عند السلف.

هذا ومن العلماء من يفرق بين المعنى، والتفسير، والتأويل، للتفاوت بينها لغة وإن كانت متقاربة، وقد نقل ((الزركشي)) هذا[1]:

قال ابن فارس: معاني العبارات التي يعبر بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة: المعنى، والتفسير، والتأويل، وهي وإن اختلفت فالمقاصد بها متقاربة:

فأما المعنى: فهو القصد والمراد، يقال: عنيت بهذا الكلام كذا، أي قصدت وعمدت، وهو مشتق من الإظهار، يقال: عَنَت القِرْبة، إذا لم تحفظ الماء بل أظهرته، ومن هذا عنوان الكتاب.

وأما التفسير في اللغة: فهو راجع إلى معنى الإظهار والكشف. وقال ابن الأنباري: قول العرب: فسَرْتُ الدابة وفسّرتها، إذا ركضتها محصورة لينطلق حصرها، وهو يؤول إلى الكشف أيضاً. فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه، وإطلاقٌ للمحتبس عن الفهم به.

---

1 انظر ((البرهان)) صفحة 146 ج2 بتصرف.

وأما التأويل: فأصله في اللغة من الأول، ومعنى قولهم: ما تأويل هذا الكلام؟ أي إلام تؤول العاقبة في المراد به؟ كقوله تعالى: **(يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ)** [الأعراف:53] أي تكشف عاقبته، ويقال: آل الأمر إلى كذا، أي صار إليه، وقال تعالى: **(ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا)** [الكهف:82] وأصله من المآل، وهو العاقبة والمصير، وقد أوّلته فآل- أي صرفته فانصرف فكأن التأويل صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني. وإنما بنوه على التفعيل للتكثير.

الفرق بين التفسير والتأويل

اختلف العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل- وعلى ضوء ما سبق في معنى التفسير والتأويل نستطيع أن نستلخص أهم الآراء فيما يأتي:

1- إذا قلنا: إن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه، فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان أو مترادفان، ومنه دعوة رسول الله r لابن عباس ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)).

2- وإذا قلنا أن التأويل هو نفس المراد بالكلام، فتأويل الطلب نفس الفعل المطلوب، وتأويل الخبر نفس الشيء المخبر به، فعلى هذا يكون الفرق كبيراً بين التفسير والتأويل، لأن التفسير شرح وإيضاح للكلام، ويكون وجوده في الذهن بتعلقه، وفي اللسان بالعبارة الدالة عليه، أما التأويل فهو نفس الأمور الموجودة في الخارج، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا هو الغالب في لغة القرآن كما تقدم، قال تعالى: **(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ~ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)** [يونس:38-39] فالمراد بالتأويل وقوع المخبر به.

3- وقيل: التفسير: ما وقع مبيناً في كتاب الله أو معيناً في صحيح السنة، لأن معناه قد ظهر ووضح، والتأويل ما استنبطه العلماء، ولذا قال بعضهم: ((التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية))[1].

---

1 الإتقان، صفحة173 ج2.

4- وقيل: التفسير: أكثر ما يستعمل في الألفاظ ومفرداتها، والتأويل: أكثر ما يستعمل في المعاني والجمل- وقيل غير ذلك.

شرف التفسير

والتفسير من أجل علوم الشريعة وأرفعها قدراً، وهو أشرف العلوم موضوعاً وغرضاً وحاجة إليه- لأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمــة. ومعدن كل فضيلة- ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية- وإنما اشتدت الحاجة إليه لأن كل كمال ديني أو دنيوي لابد وأن يكون موافقاً للشرع، وموافقته تتوقف على العلم بكتاب الله[1].

---

1 انظر الإتقان صفحة 175 ج2.

شروط المفسِّر وآدابه

البحث العلمي النزيه أساس المعرفة الحقة التي تعود على طلابهـا بـالنفع، وثمرته من أشهى الأكل لغذاء الفكر وتنمية العقل، ولذلك فإن تهيـؤ أسـبابه لأي باحث أمر له اعتباره في نضج ثماره ودنو قطوفه، والبحث في العلوم الـشرعية عامة وفي التفسير خاصة من أهم ما يجب الاعتناء به والتعرف علـى شـروطه وآدابه، حتى يصفو مشربه، ويحفظ روعة الوحي وجلاله.

شروط المفسر

وقد ذكر العلماء للمفسر شروطاً نجملها فيما يأتي:

1- صحة الاعتقاد: فإن العقيدة لها أثرها في نفس صاحبها، وكثيراً ما تحمل ذويها على تحريف النصوص والخيانة في نقل الأخبار، فإذا صنف أحدهم كتابـاً في التفسير أوّل الآيات التي تخالف عقيدته، وحملها باطل مذهبه، ليصد الناس عن إتباع السلف، ولزوم طريق الهدى.

2- التجرد عن الهـوى: فالأهواء تدفع أصحابها إلى نصرة مذهبهم، فيغرون الناس بلين الكلام ولحن البيان، كدأب طوائف القدرية والرافضة والمعتزلة ونحوهم من غلاة المذاهب.

3- أن يبدأ أولاً بتفسير القرآن بالقرآن، فما أجمل منه في موضع فإنه قـد فصل في موضع آخر، وما اختصر منه في مكان فإنه قد بسط في مكان آخر.

4- أن يطلب التفسير من السنة فإنها شارحة للقرآن موضحة له، وقد ذكـر القرآن أن أحكام رسول الله r إنما تصدر منه عن طريق الله **(**إِنَّا أَنزَلْنَـا إِلَيْـكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ**)** [النساء:105] وذكر الله أن الـسنّة مبينة للكتاب **(**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَـيْهِمْ وَلَعَلَّهُـمْ يَتَفَكَّـرُونَ**)** [النحل:44] ولهذا قال رسول الله r: ((ألا إني اوتيت القرآن ومثله معه)) يعنـي السنّة. وقال الشافعي رضي الله عنه: ((كل ما حكم به رسول الله r فهو مما فهمه من القرآن)) وأمثلة هذا في القرآن كثيرة- جمعها صاحب الإتقان مرتبة مع السور

في آخر فصل من كتابه كتفسير السبيل بالزاد والراحلة، وتفسير الظلم بالشرك، وتفسير الحساب اليسير بالعرض.

5- **فإذا لم يجد التفسير من السنّة** رجع على أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح.

6- **فإذا لم يجد التفسير في القرآن ولا في السنّة ولا في أقوال الصحابة** فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد ابن جبر، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال، والمعتمد في ذلك كله النقل الصحيح، ولهذا قال أحمد: ((ثلاث كتب لا أصل لها، المغازي والملاحم والتفسير)). يعني بهذا التفسير الذي لا يعتمد على الروايات الصحيحة في النقل.

7- **العلم باللغة العربية وفروعها**: فإن القرآن نزل بلسان عربي، ويتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، قال مجاهد: ((لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب)).

والمعاني تختلف باختلاف الإعراب، ومن هنا مست الحاجة إلى اعتبار علم النحو. والتصريف الذي تعرف به الأبنية، والكلمة المبهمة يتضح معناها بمصادرها ومشتقاتها. وخواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها. ثم من ناحية وجوه تحسين الكلام- وهي علوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع- من أعظم أركان المفسر. إذ لابد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يدرك الإعجاز بهذه العلوم.

8- **العلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن**، كعلم القراءات لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن ويترجح بعض وجوه الاحتمال على بعض، وعلم التوحيد، حتى لا يؤول آيات الكتاب التي في حق الله وصفاته تأويلاً يتجاوز به الحق، وعلم

الأصول، وأصول التفسير خاصة مع التعمق في أبوابه التي لا يتضح المعنى ولا يستقيم المراد بدونها، كمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، ونحو ذلك.

9- دقة الفهم التي تمكن المفسر من ترجيح معنى على آخر، أو استنباط معنى يتفق مع نصوص الشريعة.

آداب المفسر

1- حسن النية وصحة المقصد- فإنما الأعمال بالنيات، والعلوم الشرعية أولى بأن يكون هدف صاحبها منها الخير العام، وإسداء المعروف لصالح الإسلام، وأن يتطهر من أعراض الدنيا ليسدد الله خطاه، والانتفاع بالعلم ثمرة الإخلاص فيه.

2- حسن الخلق: فالمفسر في موقف المؤدب، ولا تبلغ الآداب مبلغها في النفس إلا إذا كان المؤدب مثالاً يحتذى في الخلق والفضيلة، والكلمة النابية قد تصرف الطالب عن الاستفادة مما يسمع أو يقرأ وتقطع عليه مجرى تفكيره.

3- الامتثال والعمل: - فإن العلم يجد قبولاً من العاملين أضعاف ما يجد من سمو معارفه ودقة مباحثه- وحسن السيرة يجعل المفسر قدوة حسنة لما يقرره من مسائل الدين، وكثيراً ما يصد الناس عن تلقي العلم من بحر زاخر في المعرفة لسوء سلوكه وعدم تطبيقه.

4- تحري الصدق والضبط في النقل: فلا يتكلم أو يكتب إلا عن تثبت لما يرويه حتى يكون في مأمن من التصحيف واللحن.

5- التواضع ولين الجانب: - فالصلف العلمي حاجز حصين يحول بين العالم والانتفاع بعلمه.

6- عزة النفس: - فمن حق العالم أن يترفع عن سفاسف الأمور، ولا يغشى أعتاب الجاه والسلطان كالسائل المتكفف.

7- الجهر بالحق: - فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

8- حسن السمت: - الذي يكسب المفسر هيبة ووقاراً في مظهره العام وجلوسه ووقوفه ومشيته دون تكلف.

9- الأناة والروية: - فلا يسرد الكلام سرداً بل يفصله ويبين عن مخارج حروفه.

10- تقديم من هو أولى منه – فلا يتصدى للتفسير بحضرتهم وهم أحياء، ولا يغطمهم حقهم بعد الممات، بل يرشد إلى الأخذ عنهم وقراءة كتبهم.

11- حسن الإعداد وطريقة الأداء: كأن يبدأ بذكر سبب النزول- ثم معاني المفردات وشرح التراكيب وبيان وجوه البلاغة والإعراب الذي يتوقف عليه تحديد المعنى، ثم يبين المعنى العام ويصله بالحياة العامة التي يعيشها الناس في عصره، ثم يأتي إلى الاستنباط والأحكام.

أما ذكر المناسبة والربط بين الآيات أولاً وآخراً فذلك حسب ما يقتضيه النظم والسياق.

-25-

نشأة التفسير وتطوره[1]

جرت سنة الله أن يرسل كل رسول بلسان قومه. ليتم تخاطبه معهم **(**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**)** [إبراهيم:4] وأن يكون الكتاب الذي أنزل عليه بلسانه ولسانهم، وإذ كان لسان محمد **r** عربياً فإن الكتاب الذي أنزل عليه يكون بلسان عربي، وبذلك نطق محكم التنزيل **(**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**)** [يوسف:2] **(**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ~ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ~ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ~ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**)** [الشعراء:192-195].

فألفاظ القرآن عربية، ووجوه المعاني في القرآن توافق وجوه المعاني عند العرب، وإذا كانت هناك ألفاظ قليلة تختلف فيها أنظار العلماء، أهي من لغات أخرى وعربت، أم هي عربية بحتة ولكنها مما تواردت عليها اللغات؟ فإن هذا لا يخرج القرآن عن أن يكون عربياً.

والذي عليه المحققون أنها كلمات اتفقت فيها ألفاظ العرب مع ألفاظ غيرهم من بعض أجناس الأمم. وهذا هو ما رجحه جهبذ المفسرين ابن جرير الطبري[2]. فقد

---

1 راجع هذا البحث بالتفصيل في كتاب: ((التفسير والمفسرون)) للأستاذ محمد حسين الذهبي.

2 تفسير الطبري صفحة 13 ج1.

أورد ما روى في ذلك كقوله تعالى: **(**يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ**)** [الحديد:28] قيل: الكفلان: ضعفان من الأجر بلسان الحبشة. وقوله: **(**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ**)** [المزمل:6] قيل: بلسان الحبشة إذا قام الرجل من الليل قالوا: نشأ. وقوله: **(** يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ**)** [سبأ:10] قيل: سبحي بلسان الحبشة. وقوله: **(**فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ**)** [المدثر:51] قيل الأسد بالحبشة. وقوله: **(**حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ**)** [هود:82- والحجر:74] قيل فارسية أعربت- أورد الطبري ما روي في ذلك ثم بين أن أحداً لم يقل أن هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلاماً. وإنما قال بعضهم: حرف كذا بلسان الحبشة معناه كذا، وحرف كذا بلسان العجم معناه كذا، وقد ظهر أن بعض الألفاظ اتفقت فيها الألسن المختلفة، كالدرهم والدينار والدواة والقلم والقرطاس، فأي مرجح يجعل اللفظ من لغة بعينها ثم نقل إلى اللغة الأخرى؟ فليس أحد الجنسين أولى بأن يكون أصل ذلك كان من عنده من الجنس ومدّعي ذلك يدعى شيئاً بلا دليل.

التفسير في عهد النبي r وأصحابه

تكفل الله تعالى لرسوله بحفظ القرآن وبيانه **(**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ~ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ~ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**)** [القيامة:17-19] فكان النبي **r** يفهم القرآن جملة وتفصيلاً. وكان عليه أن يبينه لأصحابه **(**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**)** [النحل:44].

وكان الصحابة رضي الله عنهم يفهمون القرآن كذلك لأنه نزل بلغتهم. وإن كانوا لا يفهمون دقائقه، يقول ابن خلدون في مقدمته: ((إن القرآن نزل بلغة العرب- وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه)) ولكنهم مع هذا كانوا يتفاوتون في الفهم، فقد يغيب عن واحد منهم لا يغيب عن الآخر.

أخرج أبو عبيدة في الفضائل عن أنس: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر **(**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**)** فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكليف يا عمر))[1].

وأخرج أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها))[2].

ولذا قال ابن قتيبة: ((إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل في ذلك عن بعض))[3].

وكان الصحابة يعتمدون في تفسيرهم للقرآن بهذا العصر على:

أولاً: القرآن الكريم: فما جاء مجملاً في موضع جاء مبيناً في موضع آخر، تأتي الآية مطلقة أو عامة، ثم ينزل ما يقيدها أو يخصصها، وهذا هو الذي يسمى: بتفسير القرآن بالقرآن ولهذا أمثلة كثيرة، فقصص القرآن جاء موجزاً في بعض المواضع ومسهباً في مواضع أخرى، وقوله تعالى: **(**لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ**)** [المائدة: 1] فسره آية **(**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ**)** [المائدة:3] وقوله تعالى: **(**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**)** [الأنعام: 103] فسره آية **(**إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**)** [القيامة:23].

ثانياً: النبي r : فهو المبين للقرآن، وكان الصحابة يرجعون إليه إذا أشكل عليهم فهم آية من الآيات عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية **(**الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ**)** شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ((إن الشرك لظلم عظيم)) إنما هو الشرك))[4].

---

1 الإتقان صفحة 113 ج2.

2 الإتقان صفحة 113 ج2.

3 التفسير والمفسرون صفحة 36 ج1.

4 رواه أحمد والشيخان وغيرهم.

كما كان الرسول r يبين لهم ما يشاء عند الحاجة عن عقبة بن عـــامر قـــال: ((سمعت رسول الله r يقول وهو على المنبر **(**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**)** ألا وإن القوة الرمي))[1].

وعن أنس قال: ((قال رسول الله r : ((الكوثر نهـــر أعطانيـــه ربـــي فـــي الجنة))[2].

وقد أفردت كتب السنة باباً للتفسير بالمأثور عنـــد رســـول الله r ، وقـــال الله تعالى: **(**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)** [النحل:64].

ومن القرآن ما لا يُعلم تأويله إلا ببيان الرسول r . كتفصيل وجوه أمره ونهيه، ومقادير ما فرضه الله من أحكام، وهذا البيان هو المقصود بقوله r : ((ألا وإنـــي أوتيت الكتاب ومثله معه..)).

ثالثاً: الفهم والاجتهاد: فكان الصحابة إذا لم يجدوا التفـــسير فـــي كتـــاب الله تعالى، ولم يجدوا شيئاً في ذلك عن رسول الله r . اجتهدوا في الفهم، فـــإنهم مـــن خلص العرب، يعرفون العربية، ويحسنون فهمها، ويعرفون وجوه البلاغة فيها.

واشتهر بالتفسير من الصحابة جماعة منهم: الخلفاء الأربعة، وابن مـــسعود، وابن عباس، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بـــن الزبير، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبـــد الله، وعبـــد الله بـــن عمرو بن العاص، وعائشة، على تفاوت فيما بينهم قلة وكثرة، وهنـــاك روايـــات منسوبة إلى هؤلاء وغيرهم في مواضع متعددة من تفسير القرآن بالمأثور تتفاوت درجتها من حيث السند. صحة وضعفاً.

ولاشك أن التفسير بالمأثور عن الصحابة له قيمته، وذهب جمهور العلماء إلى أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول وكل ما ليس للرأي فيه مجال. أما ما يكون للرأي فيه مجال فهو موقوف عليه مـــادام لـــم يسنده إلى رسول الله r .

---

1 أخرجه مسلم وغيره.

2 أخرجه أحمد ومسلم.

والموقوف على الصحابي من التفسير يوجب بعض العلماء الأخذ بـــه لأنهــم أهل اللسان، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم مـــن الفهم الصحيح. قال الزركشي في البرهان: ((اعلم أن القرآن قـسمان: قـسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد، والأول: إما أن يرد عن النبـــي r . أو الـــصحابة، أو رؤوس التابعين- فالأول يبحث فيه عن صحة السند، والثاني ينظر فـــي تفـسيره الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان، فلاشك في اعتماده. أو بمـــا شاهدوه من الأسباب والقرائن فلاشك فيه))[1].

وقال الحافظ بن كثير في مقدمة تفسيره ((وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح- ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم))[2].

ولم يدون شيء من التفسير في هذا العصر، لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني، وكان التفسير فرعاً من الحديث، ولم يتخذ شكلاً منظماً- بل كانـــت هـــذه التفسيرات تروى منثورة لآيات متفرقة. من غير ترتيب وتسلسل لآيـــات القـــرآن وسوره كما لا تشمل القرآن كله.

التفسير في عصر التابعين

كما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير، اشتهر بعض أعلام التابعين الذين أخذوا عنهم من تلاميذهم بالتفسير كذلك معتمدين في مصادره على المصادر التي جاءت في العصر السابق بالإضافة إلى ما كان لهم من اجتهاد ونظر.

قال الأستاذ محمد حسين الذهبي: ((وقد اعتمد هؤلاء المفسرون فـــي فهمهـــم لكتاب الله تعالى على ما جاء في الكتاب نفسه. وعلى ما رووه عن الصحابة عـــن رسول الله r . وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم. وعلى ما أخذوه

---

1 الإتقان، صفحة 183 ج2.

2 ابن كثير، صفحة 3 ج1.

من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى.

وقد روت لنا كتب التفسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين في التفسير قالوها بطريق الرأي والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شيء فيها عن رسول الله **r**، أو عن أحد من الصحابة.

وقد قلنا فيما سبق: إن ما نقل عن الرسول **r** وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسروا ما غمض فهمه على معاصريهم، ثم تزايد هذا الغموض- على تدرج- كلما بعد الناس عن عصر النبي **r** والصحابة، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص، فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعاً، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم في القول، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التي حدثت في عصر نزول القرآن، وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث))[1].

لقد اتسعت الفتوحات الإسلامية، وانتقل كثير من أعلام الصحابة إلى الأمصار المفتوحة، ولدى كل واحد منهم علم. وعلى يد هؤلاء تلقى تلاميذهم من التابعين علمهم، وأخذوا عنهم، ونشأت مدارس متعددة.

ففي مكة نشأت مدرسة ابن عباس، واشتهر من تلاميذه بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد وعكرمة مولى ابن عباس، وطاوس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح.

وهؤلاء جميعاً من الموالي، وهم يختلفون في الرواية عن ابن عباس قلة وكثرة، كما اختلف العلماء في مقدار الثقة بهم والركون إليهم، والذي ورد فيه شيء ذو بال هو عكرمة، فإن العلماء يختلفون في توثيقه وإن كانوا يشهدون له بالعلم والفضل.

---

1 التفسير والمفسرون صفحة 99، 100 ج1.

وفي المدينة اشتهر أُبي بن كعب بالتفسير أكثر من غيره. وكثر ما نقل عنه في ذلك. واشتهر من تلاميذه من التابعين الذين أخذوا عنه مباشرة أو بالواسطة: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي.

وفي العراق نشأت مدرسة ابن مسعود التي يعتبرها العلماء نواة مدرسة أهل الرأي: وعرف بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين. اشتهر منهم علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمذاني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي.

هؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين في الأمصار الإسلامية الذين أخذ عنهم أتباع التابعين من بعدهم. وخلقوا لنا تراثاً علمياً خالداً.

واختلف العلماء فيما أثر عن التابعين من تفسير إذا لم يؤثر في ذلك شيء عن رسول الله **r** أو عن الصحابة. أيؤخذ بأقوالهم أم لا؟

فذهب جماعة إلى أنه لا يؤخذ بتفسيرهم لأنهم لم يشاهد والقرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن، فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد.

وذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بتفسيرهم، لأنهم تلقوه غالباً عن الصحابة.

والذي يترجح أنه إذا أجمع التابعون على رأي فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره.

قال ابن تيمية: ((قال شعبة بن الحجاج وغيره، أقوال التابعين ليست حجة، فيكون تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم. وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك))[1].

وقد ظل التفسير محتفظاً في هذا العصر بطابع التلقي والرواية، ولكن التابعين – بعد أن كثر دخول أهل الكتاب في الإسلام، نقلوا عنهم في التفسير كثيراً من الإسرائيليات، كالذي يروى عن عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار - ووهب بن

---

1 مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير صفحة 28، 29، والإتقان صفحة 179 ج2.

منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، كما بدأ الاختلاف فيما يروى عنهم من تفسير لكثرة أقوالهم. ومع هذا فإنها أقوال متقاربة أو مترادفة، فهو من باب اختلاف العبارة لا اختلاف التباين والتضاد.

التفسير في عصور التدوين

بدأ التدوين في أواخر عهد بني أمية، وأوائل عهد العباسيين، وحظي الحديث بالنصيب الأول في ذلك، وشمل تدوين الحديث أبواباً متنوعة، وكان التفسير باباً من هذه الأبواب، فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة، وآية آية، من مبدئه إلى منتهاه.

واشتدت عناية جماعة برواية التفسير المنسوب إلى النبي r أو إلى الصحابة، أو إلى التابعين، مع عنايتهم بجمع الحديث. وفي مقدمة هؤلاء: يزيد بن هارون السلمي المتوفى سنة 117 هجرية، وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة 160 هجرية، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة 197 هجرية، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة 198هجرية، وروح بن عبادة البصري المتوفى سنة 205 هجرية وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة 211 هجرية، وآدم بن أبي إياس المتوفى سنة 220 هجرية، وعبد بن حميد المتوفى سنة 249 هجرية.

ولم يصل إلينا من تفاسيرهم شيء، وإنما روي ما نقل مسنداً إليهم في كتب التفسير بالمأثور.

جاء بعد هؤلاء من أفرد التفسير بالتأليف وجعله علماً قائماً بنفسه منفصلاً عن الحديث. ففسر القرآن حسب ترتيب المصحف. وذلك كابن ماجه المتوفى سنة 273 هجرية، وابن جرير الطبري المتوفى سنة 310هجرية، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة 318 هجرية. وابن أبي حاتم المتوفى سنة 327هجرية، وأبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة 369هجرية، والحاكم المتوفى سنة 405هجرية، وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة410هجرية.

وتفاسير هؤلاء مروية بالإسناد إلى رسول الله r، وإلى الصحابة والتـــابعين، وأتباع التابعين مع الترجيح أحياناً فيما يروى من آراء، واستنباط بعض الأحكـــام. والإعراب عند الحاجة، كما فعل ابن جرير الطبري.

ثم جاء على أثر هؤلاء جماعة من المفسرين لم يتجــاوزوا حــدود التفــسير بالمأثور، ولكنهم اختصروا الأسانيد، وجمعوا شتات الأقوال دون أن ينسبوها إلـــى قائليها، وبهذا التبس الأمر، ولم يتميز الصحيح من السقيم.

واتسعت العلوم، وتم تدوينها، وتشعبت فروعها، وكثر الاخـــتلاف، وأثيـــرت مسائل الكلام، وظهر التعصب المذهبي، واختلطت علوم الفلسفة العقليـــة بـــالعلوم النقلية، وحرصت الفرق الإسلامية على دعم مذهبها فأصاب التفسير من هذا الجو غباره، وأصبح المفسرون يعتمدون في تفسيرهم على الفهم الشخصي، ويتجهـــون اتجاهات متعددة، وتحكمت فيهم الاصطلاحات العلمية. والعقائد المذهبية، والثقافة الفلسفية، واهتم كل واحد من المفسرين بحشوه بما برز فيه من العلوم الأخـــرى، فصاحب العلوم العقلية يعني في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة كفخـــر الـــدين الرازي، وصاحب الفقه يعني بالفروع الفقهية كالجصّاص والقرطبي، وصـــاحب التاريخ يعني بالقصص والأخبار كالثعلبي والخازن. وصاحب البدعة يؤول كـــلام الله على مذهبه الفاسد، كالرماني والجبائي، والقاضي عبد الجبار والزمخشري من المعتزلة وملا محسن الكاش من الإمامية الاثني عـــشرية، وصـــاحب التـــصوف يستخرج المعاني الإشارية كابن عربي.

هذا مع علوم النحو والصرف والبلاغة، وهكذا أصبحت كتب التفسير تحمـــل في طياتها الغث والثمين، والنافع والضار، والصالح والفاسد. وحمل كـــل مفـــسر آيات القرآن ما لا تتحمله، انتصاراً لمذهبية. ورداً على خصومه. وفقـــد التفـــسير وظيفته الأساسية في الهداية والإشارة ومعرفة أحكام الدين.

وبذلك طغى التفسير بالرأي على التفسير بالأثر، وتدرج التفسير في العصور المتتابعة على هذا النمط، بنقل المتأخر عن المتقدم، مع الاختصار تارة، والتعليـــق أخرى، حتى ظهرت أنماط جديدة في التفسير المعاصـــر، حيـــث عنـــي بعـــض المفسرين بحاجات العصر، وتناولوا في تفسيرهم الكشف عمـــا تـــضمنه القـــرآن

الكريم من أسس الحياة الاجتماعية، ومبادئ التشريع، ونظريات العلوم، كتفسير الجواهر، وتفسير المنار، والظلال.

التفسير الموضوعي:

وبإزاء التفسير العام في عصور التدوين كان التفسير الموضوعي للمباحث الخاصة يسير معه جنباً لجنب، فألّف ابن القيم كتابه: التبيان في أقسام القرآن، وألّف أبو عبيدة كتاباً عن مجاز القرآن، وألّف الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن، وألّف أبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ، وألف أبو الحسن الواحدي في أسباب النزول، وألّف الجصاص في أحكام القرآن، تتابعت الأبحاث القرآنية في العصر الحديث ولا يخلو واحد منها من تفسير لبعض آيات القرآن لجانب من الجوانب.

طبقات المفسرين

وعلى ضوء ما سبق نستطيع أن نقسم طبقات المفسرين على النحو التالي:

1- **المفسرون من الصحابة**: واشتهر منهم الخلفاء الأربعة. وابن مسعو

د، وابن عباس، وأُبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وجابر، وعبد الله بـن عمـرو بـن العاص رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وأكثر من روى عنه من الخلفاء الأربعـة علي بن أبي طالب، والرواية عن الثلاثة نزرة جداً، وكان السبب في ذلـك تقـدم وفاتهم. كما أن ذلك هو السبب في قلة رواية أبي بكر رضي الله عنه، فقـد روى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال: ((شهدت علياً يخاطـب وهـو يقول: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم- وسلوني عـن كتـاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل)).

وأما ابن مسعود فروي عنه أكثر مما روي عن علي، وقد أخرج ابن جريـر وغيره عنه أنه قال: ((والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تنالـه المطايـا لأتيته)) وأما ابن عباس فسنترجم له بعد إن شاء الله.

2- **المفسرون من التابعين**: قال ابن تيمية: ((أعلم الناس بالتفسير أهل مكـة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مـولى ابـن عباس، وسعيد بن جبير، وطاوس وغيرهم- وفي الكوفة أصحاب ابـن مـسعود- وفي المدينة زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيـد، ومالـك بـن أنس)) ومن أصحاب ابن مسعود علقمة، والأسود بن أبي مسلم الخراساني، ومحمد بن كعب القرظي، وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحي، والضحاك بن مـزاحم، وعطية بن سعد العوفي، وقتادة بن دعامة السدوسي، والربيع بن أنـس، والـسدي فهؤلاء قدماء المفسرين من التابعين، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة.

3- **ثم بعد هذه الطبقة**: طبقة الذين صنف كثير منهم كتب التفاسير التي تجمع أقوال الصحابة والتابعين، كسفيان بن عيينة، ووكيع بـن الجـراح وشـعبة بـن

الحجاج، ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق، وآدم بن أبـي إيـاس، وإسـحاق بـن راهويه، وعبد بن حميد وروح بن عبادة، وأبي بكر بن أبي شيبة، وآخرين.

4- ثم بعد هؤلاء طبقات أخرى: منها علي بن أبي طلحـة، وابـن جريـر الطبري، وابن أبي حاتم، وابن ماجه، والحاكم، وابن مردويه، وأبـو الـشيخ بـن حبان، وابن المنذر في آخرين، وكلها مسندة إلى الصحابة والتـابعين وأتبـاعهم، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعـضها على بعض والإعراب والاستنباط، فهو يفوقها بذلك.

5- ثم انتصبت طبقة بعـدهم: صنفت مشحونة بالفوائـد اللغويـة، ووجـوه الإعراب، وما أثر في القراءات بروايات محذوفة الأسانيد، وقد يضيف بعـضهم شيئاً من رأيه، مثل أبي إسحاق الزجّاج، وأبي علي الفارسي، وأبي بكر النقّـاش، وأبي جعفر النحّاس.

6- ثم ألّف في التفسير طائفة من المتأخرين: فاختصروا الأسـانيد، ونقلـوا الأقوال بتراء: فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل.

7- ثم صار كل من سنح له قول يورده: ومن خطر بباله شيء يعتمده، ثـم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظاناً أن له أصلاً، غير ملتفت إلى تحرير مـا ورد عن السلف الصالح، ومن هم القدوة في هذا الباب- قال السيوطي: رأيت في تفسير قوله تعالى: **(**غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**)** نحو عـشرة أقـوال، مـع أن الوارد عن النبي **r** وجميع الصحابة والتابعين ليس غير اليهود والنصارى، حتى قال ابن أبي حاتم: لا أعلم في ذلك اختلافاً من المفسرين.

8- صنف بعد ذلك قوم: برعوا في شيء من العلوم، منهم من ملأ كتابه بمـا غلب على طبعه من الفن، واقتصر فيه على ما تمهر هو فيه، كأن القرآن أنـزل لأجل هذا العلم لا غير، مع أن فيه تبيان كل شيء.

فالنحوي نراه ليس له هم إلا الإعراب وتكثير أوجهه المحتملة فيه، وإن كانت بعيدة، وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كأبي حيـان فـي البحـر والنهر.

والإخباري همه القصص واستيفاؤه، والإخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة. ومنهم الثعلبي.

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه جميعاً، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية أصلاً والجواب على أدلة المخالفين، كالقرطبي.

وصاحب العلوم العقلية، خصوصاً الإمام فخر الدين الرازي، قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وخرج من شيء إلى شيء، حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية. قال أبو حيان في البحر: جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير.

والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث أنه لو لاح له شاردة من بعيد اقتنصها، أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه، كما نقل عن البلقيني أنه قال: استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش، منها أنه قال في قوله سبحانه وتعالى: **(فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)** [آل عمران:185] أي فوز أعظم من دخوله الجنة؟ أشار به إلى عدم الرؤية.

وهكذا الشأن بالنسبة إلى الملحدين وغيرهم.

9- ثم جاء عصر النهضة الحديثة: فانتحى كثير من المفسرين منحى جديداً، في العناية بطلاوة الأسلوب، وحسن العبارة، والاهتمام بالنواحي الاجتماعية، والأفكار المعاصرة، والمذاهب الحديثة، فكان التفسير الأدبي الاجتماعي، ومن هؤلاء: محمد عبده، والسيد محمد رشيد رضا، ومحمد مصطفى المراغي، وسيد قطب، ومحمد عزة دروزة.

وللحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911 هـ كتاب ((طبقات المفرين)) ذكر في مقدمته أنه سيتناول المفسرين من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، والمفسرين من المحدثين وأهل السنة، والمفسرين من أهل الفرق

كالمعتزلة والشيعة ونحوهم، ولكنه لم يتمّ وبلغ عدد التراجم فيه 136 ترجمة. وهو مرتب على الحروف الهجائية[1].

وصنّف في طبقات المفسّرين أيضاً الشيخ أبو سعيد صنع الله الكوزه كنـــاني المتوفى سنة 980هـــ.

كما صنّف فيها أحمد بن محمد الأدنه وي من علماء القرن الحادي عشر.

وللحافظ شمس الدين بن محمد بن علي بن أحمد الدودي المصري المتــوفى سنة 945هــ كتابه المشهور ((طبقات المفسّرين)) وهو أوفى كتاب في موضوعه بالمكتبة الإسلامية، استقضى فيه الداودي تراجم أعلام المفسرين حتى أوائل القرن العاشر للهجرة، قال فيه حاجي خليفة في ((كشف الظنون)) : وهــو أحــسن مــا صنّف فيه[2].

التفسير بالمأثور وَالتفسير بالرأي

التفسير بالمأثور: هو الذي يعتمد على صحيح المنقول بالمراتب التي ذكــرت سابقاً في شروط المفسر، من تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة لأنها جاءت مبينــة لكتاب الله، أو بما روي عن الصحابة لأنهم أعلم الناس بكتاب الله، او بما قاله كبار التابعين لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة.

وهذا المسلك يتوخى الآثار الواردة في معنى الآية فيذكرها، ولا يجتهــد فــي بيان معنى من غير أصل، ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة في معرفته ما لــم يرد فيه نقل صحيح.

قال ابن تيمية: يجب أن يعلم أن النبي **r** بيّن لأصحابه معاني القرآن، كما بيّن لهم ألفاظه، فقوله تعالى: **(** لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ **)** يتناول هذا وهذا، وقد قال أبــو عبد الرحمن السلمي[3]: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن. كعثمان بن عفان، وعبد

---

1 نشرته أخيراً مكتبة وهبه بالقاهرة بتحقيق على محمد عمر.

2 قامت مكتبة وهبه بنشره في جزأين بتحقيق علي محمد عمر.

3 هو عبد الله بن حبيب التابعي المقرئ، المتوفى سنة 72هــ وهو غير أبي عبد الــرحمن الــسلمي الــصوفي المتوفى سنة 412هــ.

الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي r عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل؛ قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً)) ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة، قال أنس: ((كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدّ فينا)) رواه أحمد في مسنده، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثماني سنين، أخرجه مالك في الموطأ، وذلك أن الله تعالى قال: **(**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**)** وقال: **(**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**)** وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ يوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب.. ولا يستشرحوه. فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم))[1].

الاختلاف فيه

والتفسير بالمأثور يدور على رواية ما نقل عن صدر هذه الأمة، وكان الاختلاف بينهم قليلاً جداً بالنسبة إلى من بعدهم، وأكثره لا يعدو أن يكون خلافاً في التعبير مع اتحاد المعنى، أو يكون من تفسير العام ببعض أفراده على طريق التمثيل، قال ابن تيمية: ((والخلاف بين السلف في التفسير قليل، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وذلك نوعان:

أحدهما: أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، كتفسيرهم **(**الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**)** قال بعضهم: القرآن أي إتباعه، وقال بعضهم: الإسلام، فالقولان متفقان لأن دين الإسلام هو إتباع القرآن، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر.

الثاني: أن يذكر كل منهما من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، ومثاله: ما نقل في قوله تعالى: **(**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**)**

---

1 الإتقان 176 ج2.

[فاطر:32] قيل: السابق: الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد: الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه: الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار، وقيل: السابق: المحسن بالصدقة مع الزكاة، والمقتصد: الذي يؤدي الزكاة المفروضة فقط، والظالم: مانع الزكاة))[1].

وقد يكون الاختلاف لاحتمال اللفظ الأمرين، كلفظ (عسعس) الذي يراد به إقبال الليل وإدباره، أو لأن الألفاظ التي عبر بها عن المعاني متقاربة، كما إذا فسر بعضهم (تبسل) بتحبس، وبعضهم بترهن، لأن كلاً منهما قريب من الآخر.

تجنب الإسرائيليات

وربما كان الاختلاف فيما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته مما وقع فيه بعض المفسرين في نقل إسرائيليات عن أهل الكتاب، كاختلافهم في أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعددهم، وقد قال الله تعالى: **(**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا**)** [الكهف:22] واختلافهم في قدر سفينة نوح وخشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر وفي أسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وفي نوع شجرة عصا موسى، ونحو ذلك. فهذه الأمور طريق العلم بها النقل. فما كان منه منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي **r** قبل، وإلا توقفنا عنه، وإن كانت النفس تسكن إلى ما نقل عن الصحابة، لأن نقلهم عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين[2].

حكم التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور هو الذي يجب اتباعه والأخذ به لأنه طريق المعرفة الصحيحة، وهو آمن سبيل للحفظ من الزلل والزيغ في كتاب الله. وقد روي عن

---

1 الإتقان صفحة 177 ج2.

2 في الحديث: ((إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم)).

ابن عباس أنه قال: ((التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامهـــا، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله)).

فالذي تعرفه العرب هو الذي يرجع فيه إلى لسانهم ببيان اللغة.

والذي لا يعذر أحد بجهله: هو ما يتبادر فهم معناه إلى الأذهان من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد ولا لبس فيها، فكل امرء يـــدرك معنـــى التوحيد في قوله تعالى: **(**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**)** [محمد:19] وإن لم يعلم أن هذه العبارة وردت بطريق النفي والاستثناء فهي دالة على الحصر.

واما ما لا يعلمه إلا الله، فهو المغيبات، كحقيقة قيام الساعة، وحقيقة الروح.

وأما ما يعلمه العلماء: فهو الذي يرجع إلى اجتهادهم المعتمد على الـــشواهد والدلائل دون مجرد الرأي، من بيان مجمل، أو تخصيص عام، أو نحو ذلك.

وقد ذكر ابن جرير الطبري نحو هذا. فقال: ((فقد تبين ببيان الله جل ذكـــره: ((أن مما أنزل الله من القرآن على نبيه **r** ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيـــان الرسول **r** ، وذلك تأويل جميع ما فيه: من وجوه أمره- واجبه وندبه وإرشـــاده- وصنوف نهيه، ووظائف حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللازم بعـــض خلقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام الآية التي لم يدرك علمها إلا ببيان رســـول الله **r** لأمته، وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله **r** له تأويله بنص منه عليه، أو بدلالة قد نصبها دالة أمته على تأويله.

وأن منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار، وذلك ما فيه من الخبر عـــن آجال حادثة، وأوقات آتية، كوقت قيام الساعة، والنفخ في الصور، ونزول عيـــسى بن مريم، وما أشبه ذلك... **(**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنِدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي الـــسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَـــأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَـــةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّـــاسِ لاَ يَعْلَمُـــونَ**)** [الأعراف:187].

وأن منه ما يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن، وذلك إقامة إعرابه، ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها، والموضـــوعات بصفاتها الخاصة دون ما سواها، فإن ذلك لا يجهله أحد منهم، وذلك كسامع مـــنهم

لو سمع تالياً يتلو: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُـمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِـي الأَرْضِ قَـالُواْ إِنَّمَـا نَحْـنُ مُصْلِحُونَ ~ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:11، 12] لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركه مما هو مضرة وأن الإصلاح هو ما ينبغـي فعله مما فعله منفعة، وإن جهل المعاني التي جعلها الله إفساداً، والمعـاني التـي جعلها الله إصلاحاً))[1].

التفسير بالرأي

التفسير بالرأي: هو ما يعتمد في المفسر في بيان المعنى على فهمه الخـاص واستنباطه بالرأي المجرد- وليس منه الفهم الذي يتفق مع روح الشريعة، ويستند إلى نصوصها- فالرأي المجرد الذي لا شاهد له مدعاة للشطط فـي كتـاب الله، وأكثر الذين تناولوا التفسير بهذه الروح كانوا من أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطلة وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم وليس لهـم سـلف مـن الـصحابة والتابعين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم، وقد صنفوا تفاسير على أصول مـذهبهم. كتفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم، والجبـائي، وعبـد الجبـار، والرمـاني، والزمخشري وأمثالهم.

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة يدس مذهبه في كلام يروج على كثير من الناس كما صنع صاحب الكشاف في اعتزالياته وإن كان بعضهم أخف من بعض، فمنهم طوائف من أهل الكلام أولت آيات الصفات بما يتفق مع مذهبها. وهـؤلاء أقرب إلى أهل السنة من المعتزلة، إلا أنهم حين جاؤوا بما يخالف مذهب الصحابة والتابعين فقد شاركوا المعتزلة وغيرهم من أهل البدع.

حكم التفسير بالرأي

وتفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل حرام لا يجوز تعاطيه، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:36] وقال r : ((من قال فـي

---

1 تفسير الطبري صفحة 74، 75 ج1.

القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار))[1]. وفي لفظ: ((من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)).

ولهذا تحرج السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، فقد روي عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب، أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: ((إنا لا نقول في القرآن شيئاً))[2].

وأخرج أبو عبيد القاسم بن سلام ((أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سئل عن الأب في قوله تعالى: **(**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**)** [عبس:31] فقال: ((أي سماء تظلني؟ وأي أرض تقلني؟ إذا قلت في كلام الله ما لا أعلم))[3].

قال الطبري: ((وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا: من أن ما كان من تأويل أي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول الله **r**، أو بنصبه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، بل القائل في ذلك برأيه - وإن أصاب الحق فيه - فمخطئ فيما كان من فعله، بقيله فيه برأيه، لأن إصابته ليست إصابة موقن أنه محق، وإنما هي إصابة خارص وظان، والقائل في دين الله بالظن، قائل على الله ما لا يعلم، وقد حرم الله جل ثناؤه ذلك في كتابه على عباده، فقال: **(**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**)** [الأعراف:33][4].

فهذه الآثار وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم من الكلام في التفسير بما لا علم لهم به. أما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير - ولا منافاة - لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل إنسان، ويكون الأمر أشد نكيراً لو ترك التفسير بالمأثور الصحيح وعدل عنه إلى القول برأيه، قال شيخ

---

1 أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود، وقال الترمذي: هذا حسن.

2 رواه مالك في الموطأ.

3 ورواه ابن أبي شيبة والطبري.

4 تفسير الطبري، صفحة 78، 79 ج1.

الإسلام ابن تيمية: ((وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً، بل مبتدعاً، لنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله r)).

وقال الطبري: ((فأحق المفسرين بإصابة الحق في تأويل القرآن- الذي إلى علم تأويله للعباد سبيله- أوضحهم حجة فيما تأول وفسر، مما كان تأويله إلى رسول الله r دون سائر أمته، من أخبار رسول الله r الثابتة عنه: إما من جهة النقل العدول الإثبات، فيما لم يكن فيه عنه النقل المستفيض. أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته، وأصحهم برهاناً- فيما ترجم وبين من ذلك- مما كان مدركاً علمه من جهة اللسان، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائناً من كان ذلك المتأول والمفسر، بعد أن لا يكون خارجاً تأويله وتفسيره ما تأول وفسر من ذلك، عن أقوال السل من الصحابة والأئمة، والخلف من التابعين وعلماء الأمة))[1].

الإسرائيليات

لليهودية ثقافتها الدينية التي تستمد من التوراة. وللنصرانية ثقافتها الدينية التي تستمد من الإنجيل. وقد انضوى تحت لواء الإسلام منذ ظهوره كثير من اليهود والنصارى، ولهؤلاء وأولئك ثقافتهم الدينية.

وقد اشتمل القرآن على كثير مما جاء في التوراة والإنجيل ولا سيما ما يتعلق بقصص الأنبياء وأخبار الأمم ولكن القصص القرآني يجمل القول مستهدفاً مواطن العبرة والعظة دون ذكر للتفاصيل الجزئية كتاريخ الوقائع، وأسماء البلدان والأشخاص، اما التوراة فإنها تتعرض مع شروحها للتفاصيل والجزئيات، وكذلك الإنجيل.

وحيث دخل أهل الكتاب في الإسلام فقد حملوا معهم ثقافتهم الدينية من الأخبار والقصص الديني، وهؤلاء حين يقرؤون قصص القرآن قد يتعرضون لذكر

---

1 تفسير الطبري صفحة 93 ج1.

التفصيلات الواردة في كتبهم، وكان الصحابة يتوقفون إزاء ما يسمعون من ذلــك، امتثالاً لقول رسول الله r : ((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنــا بالله وما أنزل إلينا...))[1]. وقد يدور حوار بينهم وبين أهل الكتاب في شيء مــن تلك الجزئيات، ويقبل الصحابة بعض ذلك مادام لا يتعلــق بالعقيــدة ولا يتــصل بالأحكام، ثم يتحدثون به، لما فهموه من الإباحة في قوله r : ((بلغوا عني ولــو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار))[2]. أي حدثوا عن بني إسرائيل ولا تكذبوهم)) فهو محمول على ما إذا كان ما يخبرون به محتملاً لأن يكون صدقاً، ولأن يكون كــذباً، فــلا تعــارض بــين الحديثين.

تلك الأخبار التي تحدث بها أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام هــي التــي يطلق عليها الإسرائيليات من باب التغليــب للجانــب اليهــودي علــى الجانــب النصراني، حيث كان النقل عن اليهود أكثر لشدة اختلاطهم بالمسلمين منــذ بــدأ ظهور الإسلام. وكانت الهجرة إلى المدينة.

ولم يأخذ الصحابة عن أهل الكتاب شيئاً في تفسير القرآن من الأخبار الجزئية سوى القليل النادر، فلما جاء عهد التابعين وكثر الذين دخلوا في الإسلام من أهــل الكتاب كثر أخذ التابعين عنهم، ثم عظم شغف من جاء بعــدهم مــن المفــسرين بالإسرائيليات قال ابن خلدون: ((وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتــشوق إليــه النفوس البشرية في أسباب المكونات،وبدء الخليقة،وأسرار الوجود،فإنما يــسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه عنهم؛وهم أهل التوراة من اليهــود،ومن تبــع دينهم من النصارى... ... فامتلأت التفاسير عنهم..))[3].

ولم يكــن المفــسرون يتحــرون صــحة النقــل يــم يأخذونــه مــن هــذه الإسرائيليات،ومنها ما هو فاسد باطل،لذا كن عل من يقرأ في كتــبهم أن يتجــاوز

---

1 أخرجه البخاري.

2 أخرجه البخاري.

3 انظر التفسير والمفسرون صفحة 177 ج1.

عما لا طائل تحته،وألا ينقل منها إلا ما تدعو إليه الضرورة وتتبين صحة نقلـــه، ويظهر صدق خبره.

وأكثر ما يروى من هذه الإسرائيليات إنما يروى عن أربعة أشخاص هم: عبد الله بن سلام،وكعب الأحبار،ووهب بن منبه،وعبد الملك بـــن عبـــد العزيـــز بـــن جريج،وقد اختلفت أنظار العلماء في الحكم عليهم والثقـــة بهم،مـــا بـــين مجـــرح وموثق،وأكثر الخلاف يدور حول كعب الأحبار.وكان عبد الله بن ســـلام أكثـــرهم علماً و أعلاهم قدراً.واعتمده البخاري وغيره من أهل الحديث،ولم ينسب إليه مـــن التهم ما نسب إلى كعب الأحبار ووهب بن منبه.

تفسير الصوفية

إذا أريد بالتصرف السلوك التعبدي المشروع الذي تصفو به النفس،وترغـــب عنه زينة الدنيا بالزهد والتقشف.والعبادة،فذلك أمر لا غبار عليـــه إن لـــم يكـــن مرغوباً فيه. ولكن التصوف أصبح فلسفة نظرية خاص لا صـــلة لهـــا بـــالورع والتقوى والتقشف،واشتملت فلسفته على أفكار تتنافى مع الإسلام وعقيدته.وهذا هو الذي نعنيه هنا وهو الذي كان له أثره في تفسير القرآن.

ويعتبر ابن عربي زعم التصوف الفلسفي النظري وهو يفسر الآيات القرآنيـــة تفسيراً يتفق مع نظرياته الصوفية سواء كن ذلك في التفسير المشهور باسمه أو في الكتب التي تنسب إليه كالفصوص،وهو من أصحاب نظرية وحدة الوجود.

فهو يفسر مثلاً قوله تعالى في شأن إدريس عليه السلام: **(وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)** [مريم:57] بقوله: وأعلى الأمكنة المكان الذي تدور عليه رحى الم الأفلاك، وهـــو فلك الشمس،وفيه مقام روحانية إدريس... ثم يقول:وأما علو المكانة فهو لنا أعني المحمديين،كما قال تعالى: **(وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ)** [محمد:35] في هذا العلـــو وهو يتعالى عن المكان لا المكانة)).

ويقو في تفسير قوه تعالى في أول سورة النساء: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُـــواْ رَبَّكُـــمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ)** اتقـــوا ربكـــم: اجعلـــوا مـــا ظهـــر مـــنكم وقايـــة

لربكم،واجعلوا ما بطن منكم -وهو ربكم -وقاية لكم، فإن الأمر ذم وحمد، فكونوا وقاية في الذم،واجعلوه وقايتكم في الحمد تكونوا أدباء عالمين))[1].

فهذا التفسير ونظائره يحمل النصوص على غير ظاهرها،ويغرق في التأويلات الباطنية البعيدة،ويجر إلى متاهات من الإلحاد والزيغ.

التفسير الإشاري

ومن هؤلاء المتصوفة من يدعي أن الرياضة الروحية التي يأخذ بها الصوفي نفسه تصل إلى درجة ينكشف له فيها ما وراء العبارات القرآنية من إشارات قدسية،وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية،ويسمى هذا بالتفسير الإشاري فللآية ظاهر وباطن،والظاهر:هو الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره،والباطن هو:ما وراء ذلك من إشارات الخفية صار ضرباً من التجهيل،ولكنه إذا كان استنباطاً حسناً يوافق مقتضى ظاهر العربية وكان له شاهد يشهد لصحته من غير معارض،فإنه يكون مقبولاً.

ومن ذلك ما روي ن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ((كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر،فكأن بضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم.فما رئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم،قال:ما تقولون في قوله تعالى: **(**إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**)** فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا،وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً)) فقال لي:أكذلك يا ابن عباس، فقلت:لا، قال:فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله **r** أعلمه له، قال:إذا جاء نصر الله والفتح، وذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً،فقال عمر:ما أعلم منها إلا ما تقول))[2].

قال ابن القيم: ((وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول:تفسير على اللفظ، وهو الذي ينحو إيه المتأخرون، وتفسير على المعنى:وهو الذي يذكره السلف، وتفسير على الإشارة: وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم،وهذا لا بأس به بأربعة شروط:

---

1 انظر : صفحة 7، 8.. ج3.

2 أخرجه البخاري.

1- ألا يناقض معنى الآية.

2- وأن يكون معنى صحيحاً في نفسه.

3- وأن يكون في اللفظ إشعار به.

4- وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم،فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطاً حسناً.(1)

غرائب التفسير

من الناس من له شغف بالإغراب في القول وإن حاد عن الجادة وركب مسلكاً وعراً،فكلفوا أنفسهم من الأمر ما لا يطيقون،وأعلموا فكرهم فيما لا يعلم إلا بالتوقيف،فخرجوا وليس في يدهم سوى ما تسفهه عقولهم من الرعونة والغي،ولهذا عجائب في معاني آيات من القرآن نكر من غرائبها:-

1- قول من قال في(ألم) معنى ألف: ألف الله محمداً فبعثه نبياً-ومعنى لام: لامه الجاحدون وأنكروه-ومعنى ميم- ميم الجادون المنكرون، من الموم بالضم وهو البرسام، علة يهذي المعلول فيها.

2- قول من قال في(حم عسق) إن الحاء: حرب علي ومعاوية- والميم: المروانية ((نسبة إلى مروان من بني أمية)) والعين:ولاية العباسية-والسين: ولاية السفيانية-والقاف: قدوة مهدي.

3- ما ذكره ابن فورك في تفسير قوله تعالى: **(**وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**)** [البقرة:260] إن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه،أي ليسكن هذا الصديق إلى هذه المشاهدة إذا رآها عياناً.

4- قول أبي معاذ النحوي في قوله تعالى: **(**الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا**)** [يس:80] يعني من إبراهيم ناراً، أي نوراً، وهو محمد **r** **(**فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ**)** تقتبسون الدين.

---

1 من أهم كتب التفسير الإشاري: تفسير القرآن العظيم للتُستري- مطبوع- وحقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي الصوفي- مخطوط- وعرائس البيان في حقائق القرآن لأبي محمد الشيرازي – مطبوع- والتأويلات النجمية لنجم الدين داية وعلاء الدين السمتاني- مخطوط- والتفسير المنسوب إلى ابن عربي- مطبوع-.

التعريفُ بأشهَر كتب التفسير

تزخر المكتبة الإسلامية بكتب التفسير بالمأثور،وكتب التفسير بالرأي،وكتب التفسير المعاصر.وبعض هذه الكتب أشهر من بعض في التداول بين أيدي القراء.

أشهر الكتب المؤلفة في التفسير بالمأثور

1- التفسير المنسوب إلى ابن عباس.

2- تفسير ابن عيينة.

3- تفسير ابن أبي حاتم.

4- تفسير أبي الشيخ ابن حيان.

5- تفسير ابن عطية.

6- تفسير أبي الليث السمرقندي ((بحر العلوم)).

7- تفسير أبي إسحاق ((الكشف والبيان عن تفسير القرآن)).

8- تفسير ابن جرير الطبري((جامع البيان في تفسير القرآن)).

9-تفسير ابن أبي شيبة.

10- تفسير البغوي معالم التنزيل.

11-تفسير أبي الفداء الحافظ ابن كثير((تفسير القرآن العظيم)).

12- تفسير الثعالبي((الجواهر الحسان في تفسير القرآن)).

13-تفسير الشوكاني ((فتح التقدير)).

وستعرف ببعض منها:

1-تفسير ابن عباس

ينسب إلى ابن عباس رضي الله عنه جزء كبير في التفسير. طبع في مصر مراراً باسم: ((تنوير المقياس من تفسير ابن عباس)) جمعه ((أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشافعي)).صاحب القاموس المحيط.

وابن عباس، كان بحق ((ترجمان القرآن)) وكان عمر بن الخطاب يثق بتفسيره ويجله، وقد أخذ في بعض المواضع عن أهل الكتاب فيما اتفق القرآن فيه مع التوراة والإنجيل، وذلك في دائرة محدودة.

وقد اتهمه الأستاذ جولد زيهر في كتاب ((المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن)) بالتوسع في الأخذ عن أهل الكتاب، ونسج على منواله الأستاذ أحمد أمين في ((فجر الإسلام)) وتولى الرد عليهما الأستاذ محمد حسين الذهبي في كتابه ((التفسير والمفسرون))[1] فابن عباس كغيره من الصحابة ما كان يسأل علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام عن شيء يمس العقيدة،أو يتصل بأصول الدين أو فروعه،إنما كان يقبل الصواب الذي لا يتطرق إليه الشك في بعض القصص والأخبار الماضية.

ويمتاز ابن عباس برجوعه في فهم معاني ألفاظ القرآن إلى الشعر العربي لمعرفته بلغة العرب وإلمامه بديوانها.

وتتعدد الروايات عن ابن عباس،وتتفاوت صحة وضعفاً،وقد تتبع العلماء هذه الروايات وكشفوا عن مبلغها من الصحة.فمن أشهر طرق هذه الروايات.

1- طريق معاوية بن صالح،عن علي بن أبي طلحة،عن ابن عباس-وهذه هي أجود الطرق عنه- وفيها قال الإمام أحمد((إن بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً))[2] وقال الحافظ بن حجر: ((وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث-رواها عن معاوية بن صالح- عن علي بن أبي طلحة –عن ابن عباس، وهي عند البخاري عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها في صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس.

2- طريق قيس بن مسلم الكوفي عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس-وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين.

3- طريق ابن إسحاق صاحب السير، عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس-وهي طريق جيدة، وأسنادها حسن.

4- طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، تارة عن أبي مالك، وتارة عن أبي صالح عن ابن عباس، وإسماعيل السدي مختلف فيه، وهو تابعي شيعي،

---

1 انظر صفحة 72، 73ج1.

2 الإتقان، صفحة 188 ج2.

وقال السيوطي: روى عن السدي الأئمة مثل الثوري وشعبة، لكن التفسير الذي جمعه رواه أسباط بن نصر، وأسباط لم يتفقوا عليه، غير أن أمثل التفاسير ((تفسير السدي))[1].

5- طريق عبد الملك بن جريج عن ابن عباس- وهذه الطريق تحتاج إلى دقة في البحث، فإن جريج روى ما ذكر في كل آية من الصحيح والسقيم.

6- طريق الضحاك بن مزاحم الهلالي عن ابن عباس – وهي طريق غير مقبولة، لأن الضحاك مختلف في توثيقه، وطريقه إلى ابن عباس منقطعة، لأنه لم يلقه. فإن انضم إلى ذلك رواية نشر بن عمارة، عن أبي روق. عن الضحاك، فضعيفة، لضعف بشر.

7- طريق عطية العوفي، عن ابن عباس، وهي غير مقبولة، لأن عطية ضعيف وربما حسن له الترمذي.

8- طريق مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني- ومقاتل ضعيف، يروي عن مجاهد وعن الضحاك ولم يسمع منهما، وقد كذبه غير واحد، ولم يوثقه أحد، واشتهر عنه التجسيم والتشبيه، وقال أحمد بن حنبل: ((لا يعجبني أن أروي عن مقاتل بن سليمان شيئاً)).

9- طريق محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس- وهذه أو هي الطرق، والكلبي مشهور بالتفسير، وقد قيل فيه: أجمعوا على ترك حديثه، وليس بثقة، ولا يكتب حديثه، واتهمه جماعة بالوضع، ولذا قال السيوطي في الإتقان: فإن انضم إلى ذلك- أي إلى طريق الكلبي- رواية محمد بن مروان السدي الصغير عنه فهي سلسلة الكذب.

ويتضح من التفسير المنسوب إلى ابن عباس أن معظم ما روي عن ابن عباس في هذا الكتاب- عن لم يكن جميعه- يدور على محمد بن مروان السدي الصغير، عن محمد بن السائب الكلبي. عن أبي صالح عن ابن عباس، وقد عرفنا مبلغ رواية السدي الصغير عن الكلبي فيما تقدم[2].

---

1 المصدر السابق.

2 انظر الإتقان صفحة 189 ج2.

2- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري

يعتبر ابن جرير الطبري من الأئمة الأعلام الذين برعوا في علـوم كثيـرة، وتركوا تراثاً إسلامياً ضخماً تناقلته العصور والأجيال، وقد أحرز شهرة واسـعة بكتابيه في التاريخ: تاريخ الأمم والملوك، والتفسير، جامع البيان في تفسير القرآن. وهما من أهم المراجع العلمية. بل إن كتابه في التفسير هو المرجـع الأول عنـد المفسرين الذين عنوا بالتفسير المأثور.

ويقع تفسير ابن جرير في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، وقد كان مفقوداً إلى عهد قريب، ثم قدر الله له الظهور حين وجدت نسخة مخطوطة في حيازة أميـر (حائل) الأمير حمود بن عبد الرشيد من أمراء نجد، طبع عليهما الكتاب منذ زمن قريب، فأصبحت في يدنا دائرة معارف غنية في التفسير بالمأثور.

وهو تفسير عظيم القيمة، لا غنى لطالب التفسير عنـه، قـال السيوطي: ((وكتابه- يعني تفسير محمد بن جرير- أجل التفاسير وأعظمها، فإنـه يتعـرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب، والاستنباط، فهو يفـوق بذلك على تفاسير الأقدمين)) وقال النووي: ((اجتمعت الأمة على أنه لم يـصنف مثل تفسير الطبري))[1].

وتفسير الطبري أقدم كتاب وصل إلينا كاملاً في التفسير. فـإن المحـاولات التفسيرية قبله لم يصل إلينا شيء منها، اللهم إلا ما وصل إلينا منها في ثنايا ذلـك الكتاب.

وطريقة ابن جرير في تفسيره أنه إذا أراد أن يفسر الآية من القرآن يقـول: ((القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا)) ثم يفسر الآية مستشهداً بما يرويه بـسنده إلى الصحابة أو التابعين من التفسير بالمأثور عنهم، ويعرض لكل مـا روي فـي الآية، ولا يقتصر على مجرد الرواية، بل يوجه الأقوال ويـرجح بعـضها علـى بعض، كما يتعرض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلى ذلك، ويـستنبط بعـض الأحكام.

---

1 الإتقان ، صفحة 190 ج2.

وقد يقف من السند موقف الناقد البصير أحياناً، فيعدل من رجال الإسناد، ويجرح من يجرح منهم، ويرد الرواية التي لا يثق بصحتها.

ويعني ابن جرير بذكر القراءات وتوجيهها، ويقال: أنه ألف فيها مؤلفاً خاصاً.

ومع روايته الأخبار المأخوذة من القصص الإسرائيلي فإنه كثيراً ما يتعقبها بالبحث.

ويعتمد ابن جرير على الاستعمالات اللغوية بجانب الروايات المنقولة، ويستشهد بالشعر القديم، ويهتم بالمذاهب النحوية، ويحتكم إلى المعروف من لغة العرب، ويعالج الأحكام الفقهية مجتهداً، فيذكر أقوال العلماء ومذاهبهم، ويخلص من ذلك برأي يختاره لنفسه ويرجحه.

ويناقش مسائل العقيدة مناقشة فاحصة، يرد فيها على الفرق ومذاهب أهل الكلام، وينتصر لأهل السنة والجماعة.

وقد طبعت دار المعارف بمصر كتابه، في إخراج حسن، وخرج أحاديثه الأستاذ أحمد محمد شاكر، ولكن هذه الطبعة لم تتم. مع عظيم نفعها، والعناية بتحقيقها.

3- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية

ابن عطية من قضاة الأندلس المشهورين، نشأ في بيت علم وفضل، وكان فقيهاً جليلاً، عارفاً بعلوم الحديث والتفسير واللغة والأدب، ذكي الفؤاد، حسن الفهم، من أعيان مذهب المالكية. وكتابه في التفسير يسمى ((المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)).

وقد لخص فيه ابن عطية ما روي من التفسير بالمنقول وأضفى عليه من روحه العلمية الفياضة ما أكسبه دقة ورواجاً، والكتاب يقع في عشر مجلدات كبار، ولا يزال مخطوطاً إلى اليوم، وذكر الشيخ محمد الذهبي[1] أنه يوجد منه في دار الكتب المصرية أربعة أجزاء فقط. مع أن الكتاب له شهرته، وينقل عنه كثير من المفسرين. وهو كثير الاهتمام بالشواهد الأدبية، والصناعة النحوية. ويقارن أبو

1 التفسير والمفسرون صفحة 340 ج1.

حيان في مقدمة تفسيره بينه وبين تفسير الزمخشري فيقول: ((وكتاب ابن عطية أنقل، وأجمع، وأخلص، وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص)).

ويعقد ابن تيمية مقارنة بين الكتابين كذلك فيقول: ((وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري، وأصح نقلاً وبحثاً، وأبعد عن البدع، وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير)).

ويقول ابن تيمية كذلك: ((وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل. فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري- وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً- ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة، أصولهم، وإن كان أقرب إلى السنة من المعتزلة))[1].

4- تفسير القرآن العظيم لابن كثير

كان عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير إماماً جليلاً حافظاً. أخذ عن ابن تيمية، واتبعه في كثير من آرائه. وشهد له العلماء بغزارة علمه في التفسير والحديث والتاريخ، وكتابه في التاريخ ((البداية والنهاية)) مرجع أصيل للتاريخ الإسلامي. وكتابه في التفسير ((تفسير القرآن العظيم)) من أشهر ما دوّن في التفسير بالمأثور، ويأتي في المرتبة الثانية بعد كتاب ابن جرير، فهو يفسر كلام الله بالأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحاً وتعديلاً، وترجيح بعض الأقوال على بعض، وتضعيف بعض الروايات وتصحيح بعضها الآخر.

---

1 مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير صفحة 23.

ويمتاز ابن كثير بأنه ينبه في كثر من الأحيان إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات، كما يذكر أقوال العلماء في الأحكام الفقهية، ويناقش مذاهبهم وأدلتهم أحياناً.

وتفسير ابن كثير طبع مع ((معالم التنزيل)) للبغوي، وطبع مستقلاً في أربعة أجزاء كبار، وقام الشيخ أحمد شاكر بطبعه قبيل وفاته بعد أن جرده من الأسانيد.

أشهر الكتب المؤلفة في التفسير بالرأي

1- تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم.

2- تفسير أبي على الجبائي.

3- تفسير عبد الجبار.

4- تفسير الزمخشري ((الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل)).

5- تفسير فخر الدين الرازي ((مفاتيح الغيب)).

6- تفسير ابن فورك.

7- تفسير النسفي ((مدارك التنزيل وحقائق التأويل)).

8- تفسير الخازن ((لباب التأويل في معاني التنزيل)).

9- تفسير أبي حيان ((البحر المحيط)).

10- تفسير البيضاوي ((أنوار التنزيل وأسرار التأويل)).

11- تفسير الجلالين: جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي.

أما جلال الدين المحلي، فقد ابتدأ تفسيره من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، ثم ابتدأ بتفسير الفاتحة، وبعد أن أتمها اختارته المنية فلم يفسر ما بعدها.

وأما جلال الدين السيوطي. فقد جاء بعد الجلال المحلي فكمل تفسيره، فابتدأ بتفسير سورة البقرة وانتهى عند آخر سورة الإسراء، ووضع تفسير الفاتحة في آخر تفسير الجلال المحلي لتكون ملحقة به.

وكثيراً ما يخطئ بعض الناس في هذا التقسيم.

12- تفسير القرطبي ((الجامع لأحكام القرآن)).

13- تفسير أبي السعود ((إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)).

14- تفسير الألوسي ((روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)).

وسنعرف ببعض منها:

1- مفاتيح الغيب

للـــــرازي

فخر الدين الرازي من العلماء المتبحرين الذين نبغوا في العلوم النقلية والعلوم العقلية، واكتسب شهرة عظيمة طوّفت به في الآفاق، وله مصنفات كثيرة، ومن أهم مصنفاته تفسيره الكبير، المسمى بمفاتيح الغيب.

ويقع هذا التفسير في ثماني مجلدات كبار، وتدل الأقوال على أن الفخر الرازي لم يتمه. وتتضارب الآراء في الموضع الذي انتهى إليه في تفسيره، وفيمن أتمه بعده. ويعلق على هذا الشيخ محمد الذهبي فيقول: ((والذي أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب، هو أن الإمام فخر الدين كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبياء، فأتى بعده شهاب الدين الخوبي فشرع في تكملة هذا التفسير ولكنه لم يتمه، فأتى بعده نجم الدين القمولي فأكمل ما بقي منه، كما يجوز أن يكون الخوبي أكمله إلى النهاية، والقمولي كتب تكملة أخرى غير التي كتبها الخوبي، وهذا هو الظاهر من عبارة صاحب كشف الظنون))[1].

والقارئ لهذا التفسير لا يجد تفاوتاً في المنهج والمسلك، ولا يستطيع أن يميز بين الأصل والتكملة.

ويهتم الفخر الرازي ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره، ويكثر من الاستطراد إلى العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والفلسفية ومباحث الإلهيات على نمط الاستدلالات الفلاسفة العقلية، ويذكر مذاهب الفقهاء، ومعظم ذلك لا حاجة إليه في علم التفسير.

---

1 التفسير والمفسرون 293 ج1.

فكتابه موسوعة علمية في علم الكلام، وفي علوم الكون والطبيعة، وبهذا فقد أهميته كتفسير للقرآن الكريم.

2- البحر المحيط لأبي حيان

كان أبو حيان الأندلسي الغرناطي على جانب كبير من المعرفة باللغة، وكان على علم واسع في التفسير، والحديث، وتراجم الرجال، ومعرفة طبقاتهم، خصوصاً المغاربة، وله مؤلفات كثيرة، أهمها تفسيره ((البحر المحيط)).

ويقع هذا التفسير في ثماني مجلدات كبار، وهو مطبوع متداول، ويهتم أبو حيان فيه بذكر وجوه الإعراب، ومسائل النحو، ويتوسع في هذا فيذكر الخلاف بين النحويين، ويناقش ويجادل، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير.

وينقل أبو حيان في تفسيره كثيراً من تفسير الزمخشري وتفسير ابن عطية، ولاسيما ما يتعلق بمسائل النحو ووجوه الإعراب، ويتعقبها كثيراً بالرد، ويحمل على الزمخشري أحياناً حملات قاسية، وإن كان يشيد بما له من مهارة فائقة في تجلية بلاغة القرآن وقوة بيانه.

ولا يرضى أبو حيان عن اعتزاليات الزمخشري فينقدها ويردها بأسلوب ساخر، ويعتمد في أكثر نقوله على كتاب ((التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير)) وهو لشيخه: جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان المقدسي المعروف بابن النقيب، ويذكر أبو حيان عنه أنه أكبر كتاب صنف في علم التفسير، يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد.

3- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري

كان الزمخشري عالماً عبقرياً فذاً في النحو واللغة والأدب والتفسير، وآراؤه في العربية يستشهد علماء اللغة بها لأصالتها ودقتها.

والزمخشري معتزلي الاعتقاد، حنفي المذهب، ألّف كتاب ((الكشاف)) بما يدعم عقيدته ومذهبه.

واعتزاليات الزمخشري في تفسيره أمارة على حذقه ودهائه ومهارته، فهو يأتي بالإشارات البعيدة لضمنها معنى الآية في الانتصار للمعتزلة والرد على خصومهم ولكنه في الجانب اللغوي كشف عن جمال القرآن وسحر بلاغته لما له من إحاطة بعلوم البلاغة والبيان والأدب والنحو والتصريف، فكان مرجعاً لغوياً غنياً، وهو يشير في مقدمته إلى هذا فيذكر أن من يتصدى للتفسير لا يغوص على شيء من حقائقه، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني، وعلم البيان. وتمهل في ارتيادهما آونة. وتعب في التنقيب عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زماناً ورُجع إليه، ورد عليه فارساً في علم الإعراب، مقدماً في حملة الكتاب. وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مستقل القريحة وقادها)).

ويحلل ابن خلدون كتاب الكشاف للزمخشري في قوله عند الحديث عما يرجع إليه التفسير من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة ((ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير، كتاب الكشاف للزمخشري، من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية، محسناً للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان، ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريز من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، وتتبع ألفاظه، وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها، وتبين أن البلاغة إنما

تقع في الآية على ما يراه أهل السنة، لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة، وفوق كل ذي علم عليم))[1].

أشهر كتب التفسير في العصر الحديث

لقد أعطى المفسرون الأوائل كتب التفسير حظها من المنقول والمعقول، وتوافروا على المباحث اللغوية، والبلاغية، والنحوية، والفقهية والمذهبية والكونية الفلسفية ثم فترت الهمم، وجاء من بعدهم مختصراً وناقلاً، أو مفنداً ومرجحاً.

فلما جاءت النهضة العلمية في العصر الحديث شملت فيما شملته ((التفسير)) وإليك أمثلة منه:

1- الجواهر في تفسير القرآن
للشيخ طنطاوي جوهري

كان الشيخ طنطاوي جوهري مغرماً بالعجائب الكونية، وكان مدرساً بمدرسة دار العلوم في مصر، يفسر بعض آيات القرآن على طلبتها، كما كان يكتب في بعض الصحف التي خرج بمؤلفه في التفسير ((الجواهر في تفسير القرآن)).

وقد عني في هذا التفسير عناية فائقة، بالعلوم الكونية، وعجائب الخلق، ويقرر في تفسيره أن في القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية، ويهيب بالمسلمين أن يتأملوا في آيات القرآن أن ترشد إلى علوم الكون، ويحثهم على العمل بما فيها، ويفضلها على غيرها في الوقت الحاضر، حتى على فرائض الدين، فيقول: ((يا ليت شعري: لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات الميراث؟ ولكني أقول: الحمد لله. الحمد لله! إنك تقرأ في هذا التفسير. خلاصات من العلوم، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها للازدياد في معرفة الله، وهي فرض عين على كل قادر)) ويأخذ الغرور منه مأخذه، فينحى باللائمة على المفسرين السابقين، ويقول: ((إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجهلاء

---

1 مقدمة ابن خلدون ، صفحة 491.

المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام، فهذا زمان الانقلاب، وظهور الحقائق، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)).

والمؤلف يخلط في كتابه خلطاً، فيضع في تفسيره صور النبات والحيوانات ومناظر الطبيعة، وتجارب العلوم كأنه كتاب مدرسي في العلوم، ويشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون في جمهوريته، وعن إخوان الصفا في رسائلهم، ويستخدم الرياضيات، ويفسر الآيات تفسيراً يقوم على نظريات علمية حديثة.

وقد أساء الشيخ طنطاوي جوهري في نظرنا بهذا إلى التفسير إساءة بالغة من حيث يظن أنه يحسن صنعاً ولم يجد تفسيره قبولاً لدى كثير من المثقفين. لما فيه من تعسف في حمل الآيات على غير معناها، ولذا وصف هذا التفسير بما وصف به تفسير الفخر الرازي، فقيل عنه ((فيه كل شيء إلا التفسير)).

2- تفسير المنار

للسيد محمد رشيد رضا

لقد قام الشيخ محمد عبده بنهضة علمية مباركة، آتت ثمارها في تلاميذه، وترتكز هذه النهضة على الوعي الإسلامي، وإدراك مفاهيم الإسلام الاجتماعية، وعلاج هذا الدين لمشاكل الحياة المعاصرة، وبدأت نواة ذلك في حركة جمال الدين الأفغاني، الذي تتلمذ عليه الشيخ محمد عبده، وكان الشيخ محمد عبده يلقي دروساً في التفسير بالجامع الأزهر، ولازمه كثير من طلابه ومريديه، وكان الشيخ رشيد ألزم الناس لهذه الدروس، وأحرصهم على تلقيها وضبطها، فكان بحث الوارث الأول لعلم الشيخ محمد عبده، فظهرت ثمرة ذلك في تفسيره المسمى بتفسير القرآن الحكيم، والمشهور بتفسير المنار. نسبة إلى مجلة ((المنار)) التي كان يصدرها.

وقد بدأ تفسيره من أول القرآن، وانتهى عند قوله تعالى: **(**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**)** [يوسف:101] ثم عاجلته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن، وهذا القدر من التفسير مطبوع في اثني عشر مجلداً كباراً.

وهو تفسير غني بالمأثور عن سالف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وبأساليب اللغة العربية، وبسنن الله الاجتماعية، يشرح الآيات بأسلوب رائع، ويكشف عن المعاني بعبارة سهلة، ويوضح كثيراً من المشكلات، ويرد على ما أثير حول الإسلام من شبهات خصومه، ويعالج أمراض المجتمع بهدي القرآن، ويصرح الشيخ رشيد بأن هدفه من هذا التفسير هو: ((فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة)).

3- في ظلال القرآن

لسيد قطب

تعتبر حركة الإخوان المسلمين التي قام بها الشهيد حسن البنا كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة بلا مراء، ولا يستطيع أحد من خصومها، أن ينكر فضلها فيما أحدثته من وعي في العالم الإسلامي كافة، فجر طاقات الشباب المسلم لخدمة الإسلام، وإعزاز شريعته، وإعلاء كلمته، وبناء مجده. واستعادة سلطانه.

ومهما قيل في الأحداث التي وقعت على هذه الجماعة فإن أثرها الفكري لا يجحده إنسان.

وبرز من رجال هذه الجماعة العالم الفذ، والمفكر الألمعي، الشهيد سيد قطب، الذي فلسف الفكر الإسلامي، وكشف عن مفاهيمه الصحيحة في وضوح وجلاء، وقد لقي الرجل ربه شهيداً في سبيل عقيدته وترك تراثه الفكري، وفي مقدمته كتابه في تفسير القرآن، المسمى ((في ظلال القرآن)).

والكتاب تفسير كامل للحياة في ضوء القرآن وهدي الإسلام. عاش مؤلفه في ظلال الذكر الحكيم، كما يفهم من تسميته- يتذوق حلاوة القرآن، ويعبر عن مشاعره تعبيراً صادقاً. انتهى فيه إلى أن الإنسانية اليوم في شقائها بالمذاهب الهدامة، وصراعها الدامي من حين لآخر، لا خلاص لها إلا بالإسلام: يقول في المقدمة: ((وانتهيت من فترة الحياة في ظلال القرآن – إلى يقين جازم حاسم.. أنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة، ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة.. إلا بالرجوع إلى الله.

والرجوع إلى الله- كما يتجلى في ظلال القرآن- له صورة واحدة، وطريـــق واحد.. واحد لا سواه.. إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبــشرية في كتابه الكريم، إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها، والتحاكم إليه وحده فـــي شؤونها، وإلا فهو الفساد في الأرض، والشقاوة للناس، والارتكاس فـــي الحمـــأة، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله، **(فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ)** .

إن الاحتكام إلى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعاً ولا موضع اختيار، إنما هو الإيمان.. أو فلا إيمان **(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)** **(وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْـضُهُمْ أَوْلِيَـاء بَعْـضٍ وَاللَّـهُ وَلِـيُّ الْمُتَّقِينَ)**[1].

ومن هذا المنطلق نهج سيد قطب في تفسيره. وهو يأتي أولاً بظلالة في مقدمة السورة، تربط بين أجزائها، وتوضح أهدافها ومقاصدها، ثم يشرع بعد ذلـك فـي التفسير، فيذكر المأثور الصحيح، ويضرب صفحاً عن المباحث اللغويـة مكتفيـاً بالإشارة العابرة، ويتجه إلى إيقاظ الوعي، وتصحيح المفـاهيم، وربـط الإسـلام بالحياة.

والكتاب يقع في ثماني مجلدات، وقد طبع عدة طبعات، في سنوات معـدودة، لما له من رواج كبير لدى المثقفين.

وهو بحق ثروة فكرية اجتماعية هائلة لا يستغني عنها المسلم المعاصر.

---

1 صفحة (8) المجلد الأول- الجزء الأول.

4- التفسير البياني للقرآن الكريم
لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ

من نسائنا المعاصرات اللاتي أسهمن بنصيبهن في الأدب العربي- والفكر الاجتماعي الدكتورة عائشة عبد الرحمن، المشهورة ببنت الشاطئ.

وقد تولت التدريس في كلية الآداب بالقاهرة، وفي كلية التربية للبنات. وتناولت في تدريسها تفسير بعض سور القرآن القصار وطبعت ذلك في ((التفسير البياني للقرآن)).

وبنت الشاطئ تهتم في تفسيرها بالبيان العربي وتذكر في المقدمة أنها اهتدت إلى هذه الطريقة لمعالجة مشكلاتنا في حياتنا الأدبية واللغوية، وأنها بحثت ذلك في عدة مؤتمرات دولية، ففي مؤتمر المستشرقين الدولي في الهند سنة 1964 كان موضوع البحث الذي شاركت به في شعبة الدراسات الإسلامية، هو ((مشكلة الترادف اللغوي، في ضوء التفسير البياني للقرآن الكريم)) تقول: ((وفيه بينت كيف شهد التتبع الدقيق لمعجم ألفاظ القرآن واستقراء دلالاتها في سياقها، بأن القرآن يستعمل اللفظ بدلالة محدودة، لا يمكن معها أن يقوم لفظ مقام آخر، في المعنى الواحد الذي تحشد له المعاجم اللغوية وكتب التفسير، عدداً قل أو كثر من الألفاظ المقول بترادفها)).

وتعيب بنت الشاطئ على الانشغال في دروس الأدب بالمعلقات والنقائض والمفضليات ومشهور الخمريات والحماسيات عن الاتجاه إلى القرآن الكريم، ثم تقول: ((ونحن في الجامعة نترك هذا الكنز الغالي لدرس التفسير، وقل فينا من حاول أن ينقله إلى مجال الدراسة الأدبية الخالصة التي قصرناها على دواوين الشعر، ونثر أمراء البيان)).

والتفسير البياني محاولة لا بأس بها لتحقيق الأغراض التي تهدف إليها بنت الشاطئ، وهي تعتمد في ذلك على كتب التفسير التي لها عناية بوجوه البلاغة القرآنية، وتعبر تعبيراً أدبياً راقياً[1].

تفسير الفقهاء

كان الصحابة في عهد رسول الله r يفهمون القرآن بسليقتهم العربية، وإن التبس عليهم فهم آية رجعوا إلى رسول الله r فيبينها لهم.

ولما توفي r وتولى فقهاء الصحابة توجيه الأمة بقيادة الخلفاء الراشدين، وجدّت قضايا لم تسبق لهم كان القرآن ملاذاً لهم لاستنباط الأحكام الشرعية للقضايا الجديدة. فيجمعون على رأي فيها، وقلما يختلفون عند التعارض، كاختلافهم في عدة الحامل المتوفي عنها زوجها. أهي وضع الحمل، أم مضى أربعة أشهر وعشراً، أم أبعد الأجلين منهما؟ حيث قال تعالى: **(**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**)** [البقرة:234] وقال: **(**وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**)** [الطلاق:4] فكانت هذه الأحوال على قلتها بداية الخلاف الفقهي في فهم آيات الأحكام.

فلما كان عهد الأئمة الفقهاء الأربعة، واتخذ كل إمام أصولاً لاستنباط الأحكام في مذهبه. وكثرت الأحداث وتشعبت المسائل ازدادت وجوه الاختلاف في فهم بعض الآيات لتفاوت وجوه الدلالة فيها دون تعصب لمذهب بل استمساكاً بما يرى الفقيه أنه الحق، ولا يجد غضاضة إذا عرف الحق لدى غيره أن يرجع إليه.

ظل الأمر هكذا حتى جاء عصر التقليد والتعصب المذهبي، فقصر أتباع الأئمة جهودهم على توضيح مذهبهم والانتصار له، ولو كان ذلك بحمل الآيات القرآنية على المعاني المرجوحة البعيدة. ونشأ من هذا تفسير فقهي خاص لآيات الأحكام في القرآن، يشتد التعصب المذهبي فيه أحياناً، ويخف أخرى.

---

1 م محاذير هذا النهج في التفسير أنه يغفل جوانب القرآن المتعددة من أسرار الإعجاز في معانيه وتشريعاته، وأحكامه ومبادئه للحياة الإنسانية الفاضلة، يتخذ من النص القرآني مادة للدراسة الأدبية كالنص الشعري أو النثري، ودراسة النصوص الأدبية تعتمد على الذوق اللغوي الذي يتفاوت من شخص لآخر بتفاوت ثقافته.

وتتابع هذا المنهج على العصر الحديث، وهذا هو ما نسميه بالتفسير الفقهي، ومن أشهر كتبه:

1- أحكام القرآن للجصاص	مطبوع.
2- أحكام القرآن للكيا الهراس	مخطوط.
3- أحكام القرآن لابن العربي	مطبوع.
4- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي	مطبوع.
5- الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي	مخطوط.
6- التفسيرات الأحمدية في بيان الآيات الشرعية لملاجيون	مطبوع بالهند.
7- تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد السايس	مطبوع.
8- تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد الشنقيطي	مطبوع.
9- أضواء البيان للشيخ محمد الشنقيطي	مطبوع.

وسنعرف ببعض منها:

1- أحكام القرآن للجصاص

أبو بكر أحمد بن علي الرازي المشهور بالجصاص – نسبة إلى العمل بالجص- من أئمة الفقه الحنفي في القرن الرابع الهجري. ويعتبر كتابه ((أحكام القرآن)) من أهم كتب التفسير الفقهي، ولاسيما عند الأحناف.

وقد اقتصر المؤلف في هذا الكتاب على تفسير الآيات التي تتعلق بالأحكام الفرعية، فيورد الآية أو الآيات، ثم يتولى شرحها بشيء من المأثور في معناها، ويستطرد في ذكر المسائل الفقهية التي تتصل بها من قريب أو بعيد، ويسوق الخلافات المذهبية، حيث يشعر القارئ أنه يقرأ في كتاب من كتب الفقه، لا في كتاب من كتب التفسير.

والجصاص يتعصب لمذهب الحنفية تعصباً ممقوتاً، يحمله على التعسف في تفسير الآيات وتأويلها انتصاراً لمذهبه، ويشتد في الرد على المخالفين متعنتاً في التأويل بصورة تنفر القارئ أحياناً من متابعة القراءة، لعباراته اللاذعة في مناقشة المذاهب الأخرى.

ويبدو من تفسير الجصاص كذلك أنه ينحو منحى المعتزلة في العقائد. فيقول مثلاً في قوله تعالى: **(لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ)** [الأنعام:103] ((معناه لا تراه الأبصار، وهذا تمدح بنفي رؤية الأبصار، كقوله تعالى: **(لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ)** [البقرة:255] وما تمدح الله بنفيه عن نفسه فإنه إثبات ضده ذم نقص، فغير جائز إثبات نقيضه بحال.. فلما تمدح بنفي رؤية البصر عنه لم يجز إثبات ضده ونقيضه بحال. إذ كان فيه إثبات صفة نقص، ولا يجوز أن يكون مخصوصاً بقوله تعالى: **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ~ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)** [القيامة:22، 23] لأن النظر محتمل لمعان: منها انتظار الثواب، كما روي عن جماعة من السلف، فلما كان ذلك محتملاً للتأويل لم يجز الاعتراض به على ما لا مساغ للتأويل فيه، والأخبار المروية في الرؤية إنما المراد بها العلم لو صحت، وهو علم الضرورة الذي لا تشوبه شبهة، ولا تعرض فيه الشكوك، لأن الرؤية بمعنى العلم مشهورة في اللغة))[1].

والكتاب مطبوع في ثلاث مجلدات، وهو متداول بين أهل العلم، ومن مراجع الفقه الحنفي.

2- أحكام القرآن

لابن العربي

أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري الأندلسي الإشبيلي. من أئمة علماء الأندلس المتبحرين. وهو مالكي المذهب. وكتابه ((أحكام القرآن)) أهم مرجع للتفسير الفقهي عند المالكية.

وابن العربي في تفسيره رجل معتدل منصف، لا يتعصب لمذهبه كثيراً، ولا يتعسف في تفنيد آراء المخالفين كما فعل الجصاص، وإن كان يتغاضى عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكي.

---

1 انظر صفحة 5 ج3.

وهو يذكر آراء العلماء في تفسير الآية مقتصراً على آيات الأحكـام، ويبـين احتمالاتها المختلفة لدى المذاهب المتعددة، ويفرد كل نقطة في تفسير الآية بعنوان. فيقول: المسألة الأولى.. المسألة الثانية.. وهكذا، وقلما يقسو في الرد على مخالفيه، كقوله مثلاً في تفسير قوله تعالى: **(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ**)** [المائدة:6] ((المسألة الحادية عشرة)) قوله عز وجل **(** فاغْسِلُواْ**)** وظن الشافعي – وهو عند أصحابه معد بن عدنان في الفصاحة بله أبي حنيفة وسـواه- أن الغسل صب الماء على المغسول من غير عرك، وقد بينا فساد ذلك في مسائل الخلاف، وفي سورة النساء، وحققنا أن الغسل مس اليد مع إمرار الماء أو ما فـي معنى اليد))[1].

ويحتكم ابن العربي في تفسيره إلى اللغة في استنباط الأحكـام. وينفـر مـن الإسرائيليات، ويتعرض لنقد الأحاديث الضعيفة ويحذر منها.

والكتاب مطبوع عدة طبعات، منها طبعة في مجلدين كبيرين، ومنها طبعة في أربع مجلدات ويتداوله العلماء.

3- الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله القرطبي

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فـرح الأنـصاري، الخزرجـي، الأندلسي عالم فذ من علماء المالكية. له مصنفات كثيرة، أشهرها كتابه في التفسير ((الجامع لأحكام القرآن)).

والقرطبي في تفسيره لم يقتصر على آيات الأحكام وإنما يفسر القرآن الكريم تباعاً، فيذكر سبب النزول، ويعرض للقراءات والإعراب، ويشرح الغريـب مـن الألفاظ، ويضيف الأقوال إلى قائليها، ويضرب صفحاً عن كثيـر مـن قـصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، وينقل عن العلماء السابقين الموثوقين. ولاسيما من

---

1 انظر صفحة 232 ج1.

ألف منهم في كتب الأحكام، فينقل عن ابن جرير الطبري، وابن عطية، وابن العربي، والكيا الهراس، وأبو بكر الجصاص.

ويفيض القرطبي في بحث آيات الأحكام، فيذكر مسائل الخلاف، ويسوق أدلة كل رأي، ويعلق عليها، ولا يتعصب لمذهبه المالكي، ففي تفسير قوله تعالى: **(**لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ**)** [البقرة:187] يقول في المسألة الثانية عشرة من مسائل هذه الآية بعد أن ذكر خلاف العلماء في كم من أكل في نهار رمضان ناسياً وما نقل عن مالك من أنه يفطر وعليه القضاء يقول: ((وعند غير مالك ليس بمفطر كل من أكل ناسياً لصومه، قلت: وهو الصحيح، وبه قال الجمهور إن من أكل أو شرب ناسياً فلا قضاء عليه، وإن صومه تام، لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله **r** إذا أكل الصائم ناسياً أو شرب ناسياً فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه، ولا قضاء عليه))[1]. فأنت ترى أنه بهذا يخالف مذهبه، وينصف الآخرين.

ويرد القرطبي على الفِرَق، فيرد على المعتزلة، والقدرية، والروافض، والفلاسفة، وغلاة المتصوفة، ولكن بأسلوب مهذب كذلك، ويدفعه الإنصاف إلى الدفاع عمن يهاجمهم ابن العربي من المخالفين أحياناً- ويلومه على ما يصدر منه من عبارات قاسية على علماء المسلمين. وحين ينقد يكون نقده نزيهاً في أدب وعفة.

وقد كان كتاب ((الجامع لأحكام القرآن)) مفقوداً من المكتبات حتى قامت دار الكتب المصرية بطبعه أخيراً فيسرت الحصول عليه للقارئين.

تراجُم لبَعض مشاهير المفسِّرين

ابن عباس

نسبه وحياته: هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي ابن عم رسول الله **r**، أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث، وقيل بخمس والأولى أثبت.

---

1 انظر صفحة 322 ج2.

وقد حج عبد الله بن عباس سنة قتل عثمان بأمر منه، وكان على الميسرة يوم صفين، وولاه على البصرة، فلم يزل ابن عباس عليها حتى قتل علـي فاسـتخلف على البصرة عبد الله بن الحارث ومضى إلى الحجاز. وتوفي بالطائف سنة خمس وستين، وقيل سبع، وقيل ثمان وهو الصحيح في قول الجمهور، قال الواقـدي: لا خلاف عند أئمتنا أنه ولد بالشعب حين حصرت قريش بني هاشم، وأنه كان له عند موت النبي r ثلاث عشرة سنة.

منزلته وعلمه: وابن عباس ترجمان القرآن، وحبر الأمة، ورئيس المفسرين، فقد أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال: ((نعم ترجمـان القـرآن ابـن عباس)) وأخرج ابن سعد بسد صحيح عن يحيى بن سعيد الأنصاري: ((لما مـات زيد بن ثابت قال أبو هريرة، مات حبر هذه الأمة، ولعل الله أن يجعل فـي ابـن عباس خلفاً)).

وقد أحرز ابن عباس منزلته بين كبار الصحابة على صغر سنه بعلمه وفهمه تحقيقاً لدعوة رسول الله r ففي الصحيح عنه أن النبي r ضمه إليه وقال: ((اللهم علمه الحكمة)). وفي معجم البغوي وغيره عن عمر أنه كان يقرب ابـن عبـاس ويقول: ((إني رأيت رسول الله r دعاك فمسح رأسك، وتفل في فيـك)) وقـال: ((اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل)). وأخرج البخاري من طريق سـعيد بـن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنـه مـن علمـتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقـال: ما تقولون في قول الله تعالى: **(إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)** فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله r أعلمه له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك، فـسبح بحمـد ربـك واستغفره إنه كان تواباً، فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول)).

تفسيره: وقد ورد عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى كثرة، وجمع مـا نقل عنه في تفسير مختصر ممزوج يسمى ((تفسير ابن عباس)) وفيـه روايـات

وطرق مختلفة، ولكن أحسن الطرق عنه طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي عنه، واعتمد على هذه البخاري في صحيحه، ومن جيد الطرق طريق قيس بن مسلم الكوفي عن عطاء بن السائب.

وفي التفاسير الطوال التي أسندوها إلى ابن عباس مجاهيل: وأوهى طرقه طريق الكلبي عن أبي صالح، والكلبي هو أبو النصر محمد بن السائب المتوفى سنة 146هـ فإن انضم إليه رواية محمد بن مروان السدي الصغير سنة 186هـ فهي سلسلة الكذب، وكذلك طريق مقاتل بن سليمان بن بشر الأزدي، إلا أن الكلبي يفضل عليه لما في مقاتل من المذاهب الرديئة.

وطريق الضحاك بن مزاحم الكوفي عن ابن عباس منقطعة، فإنه لم يلق ابن عباس وإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة فضعيفة لضعف بشر، وإن كان من رواية جويبر عن الضحاك فأشد ضعفاً، لأن جويبراً شديد الضعف متروك.

وطريق العوفي عن ابن عباس أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، والعوفي ضعيف ليس بواه، وربما حسن له الترمذي.

وبهذا يستطيع القارئ أن ينقب عن الطرق ويعرف منها الجيد المقبول من الضعيف أو المتروك، فليس كل ما روي عن ابن عباس بالصحيح الثابت. وقد ذكرنا مزيداً من التفصيل عن ذلك عند الكلام عن تفسيره.

مجاهد بن جبر

نسبه وحياته: هو مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج المخزومي المقرئ، مولى السائب بن أبي السائب، روى عن علي. وسعد بن أبي وقاص، والعبادلة الأربعة، ورافع بن خديج، وعائشة، وأم سلمة، وأبي هريرة، وسراقة بن مالك، وعبد الله بن السائب المخزومي، وخلق كثير. وروى عنه عطاء، وعكرمة، وعمرو بن دينار، وقتادة، وسليمان الأحول، وسليمان الأعمش، وعبد الله بن كثير القارئ، وآخرون. وكان مولده سنة 21 هـ إحدى وعشرين في خلافة عمر، ومات سنة اثنين أو ثلاث ومائة، وقال يحيى القطان: مات سنة 104 هـ أربع ومائة.

منزلته: ومجاهد رأس المفسرين من طبقة التابعين حتى قيل أنه كان أعلمهم بالتفسير، وقد أخذ تفسيره عن ابن عباس ثلاثين مرة، وعنه أيضاً قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية وأسأله عنها، فيم نزلت، وكيف كانت؟ وقال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، قال ابن تيمية: ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم.

وقال أبو حاتم: مجاهد لم يسمع عن عائشة، حديثه عنها مرسل، وقال مجاهد عن سعد ومعاوية وكعب بن عجرة مرسل، وقال أبو نعيم: قال يحيى القطان: مرسلات مجاهد أحب إليَّ من مرسلات عطاء، وقال قتادة: أعلم من بقي بالتفسير جاهد، وقال ابن سعد: كان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث، وقال ابن حباين: كان فقيهاً ورعاً عابداً متقناً، وقال الذهبي في آخر ترجمته: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به، وقال: قرأ عليه عبد الله بن كثير.

وإذا كان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، فليس معنى هذا أن نأخذ كل ما نسب إلى مجاهد، فإن مجاهداً كغيره من الرواة الذين نقل عنهم، وقد يكون من النقلة عنه الضعيف الذي لا يوثق به، فلابد من التحري وثبوت سلامة السند، شأنه في ذلك شأن ابن عباس فيما روي عنه.

الطبري

نسبه وحياته: هو محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير أبو جعفر الطبري، الآملي الأصل، البغدادي المولد والوفاة- ولد سنة 224هـ أربع وعشرين ومائتين، وتوفي سنة 310هـ عشر وثلاثمائة، وكان عالاً فذاً كثير الرواية ا بصيرة بالنقل والترجيح بين الروايات، وله باع طويل في تاريخ الرجال وأخبار الأمم.

تصانيفه: صنف ابن جرير من الكتب: جامع البيان في تفسير القرآن، وتاريخ الأمم والملوك وأخبارهم، والآداب الحميدة والأخلاق النفيسة، وتاريخ الرجال واختلاف الفقهاء، وتهذيب الآثار، وكتاب البسيط في الفقه، والجامع في القراءات، وكتاب التبصير في الأصول.

تفسيره: وكتابه في التفسير ((جامع البيان في تفسير القرآن)) أجل التفاسير وأعظمها، وهو المرجع الأصيل للمفسرين بالأثر، وابن جرير يورد التفسير مسنداً إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم، ويتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، وقد أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله، قال النووي في تهذيبه: كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله، ويمتاز ابن جرير بالاستنباط الرابع، والإشارة إلى ما خفي في الإعراب، وبذلك كان تفسيره فوق أقرانه من التفاسير، وأكثر ما ينقل ابن كثير عن ابن جرير.

ابن كثير

نسبه وحياته: هو إسماعيل بن عمر القرشي ابن كثير البصري ثم الدمشقي، عماد الدين أبو الفداء الحافظ المحدث الشافعي.

ولد سنة 705هـ خمس وسبعمائة، وتوفي سنة 774هـ أربع وسبعين وسبعمائة، بعد حياة زاخرة بالعلم، فقد كان فقيهاً متقناً، ومحدثاً بارعاً، ومؤرخاً ماهراً، ومفسراً ضابطاً، قال فيه الحافظ ابن حجر: ((إنه كان من محدثي الفقهاء)) وقال: ((سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها بعد وفاته)).

تصانيفه- ومن تصانيفه: البداية والنهاية في التاريخ، وهو من أهم المراجع للمؤرخين، والكواكب الدراري في التاريخ، انتخبه من البداية والنهاية وتفسير القرآن، والاجتهاد في طلب الجهاد، وجامع المسانيد، والسنن الهادي لأقوم سنن، والواضح النفيس في مناقب الإمام محمد بن إدريس.

تفسيره: - قال فيه محمد رشيد رضا : - ((هذا التفسير من أشهر كتب التفسير في العناية بما روي عن مفسري السلف، وبيان معاني الآيات وأحكامها، وتحامي ما أطال به الكثيرون من مباحث الإعراب ونكت فنون البلاغة، او الاستطراد لعلوم أخرى لا يحتاج إليها في فهم القرآن، ولا التفقه فيه، ولا الاتعاظ به.

ومن مزاياه العناية بما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن، فهو أكثر ما عرفنا من كتب التفسير سرداً للآيات المتناسبة في المعنى، ويلي ذلك فيه الأحاديث المرفوعة

التي تتعلق بالآية وبيان ما يحتج به منها، ويليهما آثار الصحابة وأقوال التابعين ومن بعدهم من علماء السلف.

ومنها تذكيره بما في التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات وتحذيره منها بالإجمال، وبيانه لبعض منكراتها بالتعيين، ويا ليته استقصى ذلك أو ترك إيراد ما لم تتوفر فيه داعية التمحيص والتحقيق.

فخر الدين الرازي

نسبه وحياته: وهو محمد بن عمر بن الحسن التميمي البكري الطبرستاني الرازي فخر الدين المعروف بابن الخطيب الشافعي الفقيه.

ولد بالري سنة 543هـ ثلاث وأربعين وخمسمائة، وتوفي بهراة سنة 606هـ ست وستمائة- ودرس العلوم الدينية والعلوم العقلية، فتعمق في المنطق والفلسفة، وبرز في علم الكلام، وله في هذا كله الكتب والشروح والتعليقات، حتى عدوه من فلاسفة عصره، ولا تزال كتبه مراجع هامة لمن يسمونهم بالفلاسفة الإسلاميين.

تصانيفه: ولفخر الدين الرازي تصانيف كثيرة، منها: مفاتيح الغيب في تفسير القرآن، وتفسيره أسرار التنزيل وأنوار التأويل، وإحكام الأحكام، والمحصل في أصول الفقه، والبرهان في قراءة القرآن، ودرة التنزيل وغرة التأويل في الآيات المتشابهات، وشرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا، وإبطال القياس، وشرح القانون لابن سينا، والبيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان، وتعجيز الفلاسفة، ورسالة الجوهر، ورسالة الحدوث، وكتاب الملل والنحل، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين في علم الكلام، وشرح المفصل للزمخشري.

تفسيره: وقد أثرت العلوم العقلية على الرازي في تفسيره، فمزجه بخليط من الطب والمنطق والفلسفة والحكمة، وخرج به عن معاني القرآن وروح آياته، وحمّل نصوص الكتاب ما لم تتنزل له من مسائل العلوم العقلية واصطلاحاتها

العلمية، ففقد كتابه بهذا روحانية التفسير وهداية الإسلام، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير. كما ذكرنا آنفاً.

الزمخشري

نسبه وحياته: هو أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري- ولد في السابع والعشرين من شهر رجب سنة 467هـ سبع وستين وأربعمائة بزمخشر، وهي قرية كبيرة من قرى خوارزم، وتلقى العلم في بلاده، ورحل إلى بخارى في طلبه، وأخذ الأدب عن شيخه منصور أبي مضر، ثم رحل إلى مكة وجاور بها زماناً، فقيل له (جار الله) وبها ألّف كتابه في التفسير (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) وتوفي الزمخشري سنة 538هـ ثمان وثلاثين وخمسمائة، بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، ورثاه بعضهم بأبيات منها:

فأرض مكة تذري الدمع مقلتها حزناً لفرقة جار الله محمود

علمه ومؤلفاته: والزمخشري إمام من أئمة اللغة والمعاني والبيان، وكثيراً ما يجد القارئ في كتب النحو والبلاغة استشهادات له من كتبه للاحتجاج بها، فيقولون: قال الزمخشري في كشافه، أو في أساس البلاغة، وهو صاحب رأي وحجة في كثير من مسائل العربية، وليس من هؤلاء النفر الذين ينهجون نهج غيرهم فيجمعون وينقلون، ولكنه صاحب رأي يقتفي غيره أثره وينقل عنه، وله تصانيف في الحديث والتفسير والنحو واللغة والمعاني والبيان وغير ذلك، منها: كتابه في تفسير القرآن (الكشاف)، والفائق في تفسير الحديث، والمنهاج في الأصول، والمفصل في النحو، وأساس البلاغة في اللغة، ورؤوس المسائل الفقهية.

مذهبه عقيدته: والزمخشري حنفي المذهب، معتزلي العقيدة، يؤول الآيات وفق مذهبه وعقيدته بلحن لا يدركه إلا الخاصة، ويسمي المعتزلة إخوانه في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية.

تفسيره: وكتاب الكشاف للزمخشري من أشهر كتب المفسرين بالرأي، الماهرين في اللغة، ينقل عنه الألوسي، وأبو السعود، والنسفي، وغيرهم من

المفسرين بدون نسبة إليه، واعتزالياته في التفسير قد تولى التنقيب عنها العلامة أحمد النير. وسماها بالانتصاف، وفيها يناقش الزمخشري فيما أورده من العقائد على مذهب المعتزلة ويورد ما يقابلها، كما يناقشه في كثير من أبواب اللغة، وقد طبعت المكتبة التجارية بمصر الكشاف طبعة أخيرة رتبها مصطفى حسين أحمد، وذيلت بأربعة كتب، الأول: الانتصاف السابق، والثاني: الشاف في تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر العسقلاني، والثالث: حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف (كالانتصاف)، والرابع: مشاهد الإنصاف على شاهد الكشاف للمرزوقي المذكور وقد ضمن تفسيره كثيراً من عقائد المعتزلة على طريق الإشارة، وقد ذكرنا قبل ما نقل عن البلقيني أنه قال: استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش.

الشوكاني

نسبه وحياته: هو القاضي محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني ثم الصنعاني الإمام المجتهد، ناصر السنة، وقامع البدعة.

ولد سنة 1173هـ ثلاث وسبعين ومائة ألف في بلدة هجرة شوكان، ونشأ بصنعاء، فقرأ القرآن، وأخذ يطلب العلم، ويسمع من العلماء الأعلام، وحفظ كثيراً من متون النحو والصرف والبلاغة، والأصول وآداب البحث والمناظرة، حتى صار إماماً يشار إليه بالبنان، وظل مكباً على العلم قراءة وتدريساً إلى أن توفي سنة 1250هـ خمسن ومائتين وألف.

مذهبه وعقيدته: تفقه على مذهب الإمام زيد، وبرع فيه، وألّف وأفتى، وطلب الحديث، وفاق فيه أهل زمانه حتى خلع ربقة التقليد، وصار مناصراً للسنة ومناوئاً لأعدائها، وكان يرى تحريم التقليد حتى ألف في ذلك رسالة أسماها (القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد).

مؤلفاته: له مؤلفات عديدة في شتى الفنون منها تفسيره ((فتح القدير)) وشرحه نيل الأوطار على منتقى الأخبار للمجد بن تيمية جد شيخ الإسلام، وهو من خير

ما كتب في الحديث على أبواب الفقه، وكتابه في الأصول (أرشاد الفحول) وفتاواة المسماة (بالفتح الرباني).

تفسيره: وفتح القدير للشوكاني تفسير يجمع بين الرواية والاستنباط وفقه نصوص الآيات، اعتمد فيه على فحول المفسرين كالنحاس، وابن عطية، والقرطبي، وهو متداول في جهات كثيرة من أنحاء العالم الإسلامي.

وصلى الله على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المَراجعُ

1- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي.

2- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني.

3- الأعلام، خير الدين الزركلي.

4- اعجاز القرآن، الباقلاني.

5- البرهان في علوم القرآن، الزركشي.

6- تفسير الطبري جامع البيان، ابن جرير.

7- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير.

8- الكشاف، الزمخشري.

9- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي.

10- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني.

11- رسالة التوحيد، محمد عبده.

12- الرد على المنطقيين، ابن تيمية.

13- التدمرية، ابن تيمية.

14- اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية.

15- الإكليل في التشابه والتأويل، ابن تيمية.

16- العقل والنقل، ابن تيمية.

17- أعلام الموقعين، ابن القيم.

18- أقسام القرآن، ابن القيم.

19- إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي.

20- الوحي المحمدي، السيد محمد رشيد رضا.

21- القاموس المحيط، الفيروز آبادي.

22- مفردات غريب القرآن، الراغب الأصبهاني.

23- روضة الناظر، ابن قدامة.

24- فوائح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، ابن عبد الشكور.

25- المستصفى، الغزالي.

26- مناهل العرفان، الزرقاني.

27- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح.

28- النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز.

29- منهج الفرقان في علوم القرآن، محمد علي سلامة.

30- بلاغة القرآن، محمد الخضر حسين.

31- مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية.

32- كشف الظنون عن أساس الكتب والفنون، حاجي خليفة.

33- هدية العارفين، إسماعيل البغدادي.

34- في ظلال القرآن، سيد قطب.

35- الفلسفة القرآنية، العقاد.

36- رياض الصالحين، النووي.

37- مقدمة ابن خلدون.

38- الإحكام، للآمدي.

فهرس الموضوعات